رواية

2020
31.12.2019

إيان مكيوان

ترجمة إيمان حرزالله

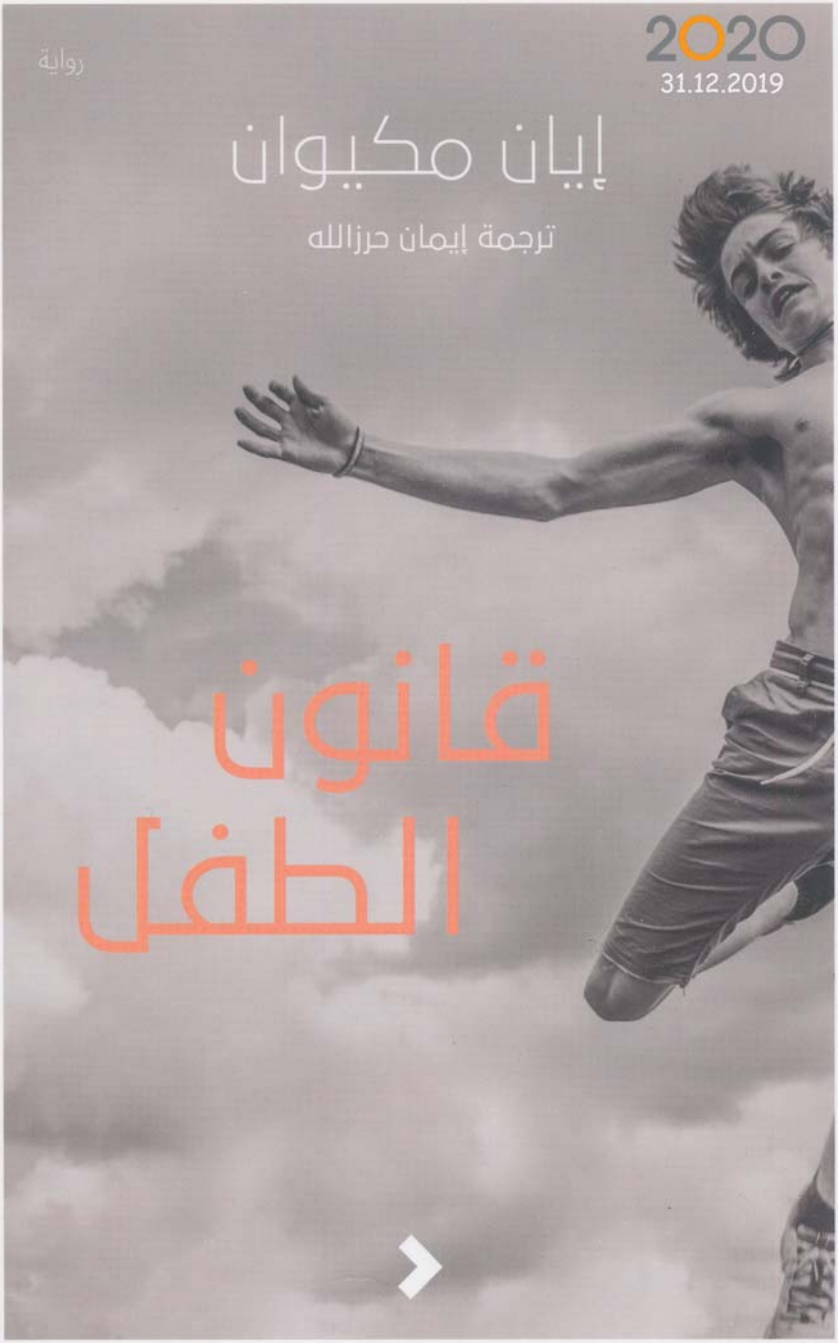

قانون الطفل

إيان مكيوان

قانون الطفل

ترجمة إيمان حرز الله

قانون الطفل

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

قانون الطفل

تأليف: إيان مكيوان
ترجمة: إيمان حرز الله
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-37-973-7

روايات REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

الفصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-3295255

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Children Act
Copyright © Ian McEwan 2014

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إلى راي دولان

حين تنظر المحكمة في أيّ مسألة تخصّ تربية الطفل، فإنه ينبغي أن تولي اعتبارها الأوّل لرفاه الطفل.

المادة الأولى - بند أ - قانون الطفل 1989

واحد

لندن. بدأت فترة العمل الصيفية منذ أسبوع فقط. طقس يونيو الحقود. فيونا ماي، القاضية في المحكمة العليا، في بيتها مساء الأحد، مستلقية على كرسيّ شيزلونج، تنظر أعلى قدميها، بجوربيهما، إلى طرف الغرفة، مشهد جزئي لأرفف كتب مثبتة أعلى مدفأة، وعلى أحد جانبيها، بجوار نافذة طويلة، لوحة صغيرة بالطباعة الحجرية لرينوار، لشخص يستحم، اشترتها منذ ثلاثين عاما بخمسين جنيه. قد تكون غير أصلية. أسفلها، آنية زهور زرقاء وسط طاولة مستديرة من خشب الجوز. لا تتذكر كيف أتت بها ولا آخر مرة وضعت فيها زهورا. لم تشعل نارا في المدفأة منذ عام. تتساقط قطرات مطر مسودّة بغير انتظام على الشبكة الحديدية مصدرة صوت نقر على كومة ورق جرائد مُصفرّة. على ألواح الأرضية العريضة والمصقولة سجادة من بُخارى. عند حافة المشهد بيانو صغير يحمل على بريقه الأسود الداكن إطارات فضية لصور عائلية. على الأرض بجوار مضجعها، في متناول يدها، مسوّدة حكم. وفيونا مستلقية على ظهرها، تتمنى أن يغرق كل هذا في قاع البحر.

في يدها كأسها الثانية من الويسكي والماء. تشعر برعشة، ما زالت تستعيد هدوءها بعد لحظة سيئة مع زوجها. نادرا ما تشرب، لكن

التالِسكر والماء بمثابة البلسم، وتفكر في عبور الغرفة إلى المائدة لتأتي بالثالثة. ويسكي أقل وماء أكثر لأنها ستكون في قاعة المحكمة غدًا وهي القاضية المسؤولة الآن، تحت الطلب في أي لحظة، حتى وهي راقدة تتعافى. ألقى زوجها إعلانًا صادمًا ووضع على عاتقها عبئا لا يُصدّق. لأول مرة خلال سنوات صاحت بصوت عالٍ حقًا، ما زال بعض صدى واهن يتردد في أذنيها. "أنت غبي، أنت غبي لعين!" لم تشتم بصوت عال منذ زيارات أيام المراهقة الرخية إلى نيوكاسل، مع ذلك قد تخطر لها أحيانا سُبّة قوية حين تسمع دليل براءة ذاتي أو رأيًا قانونيًّا غير ذا صلة.

بعد وقت قصير من الشّتم، وبأنفاس لاهثة من الغضب، رددتْ بصوت عال، على الأقل مرتين، "كيف تجرؤ!"

بالكاد يمكن اعتباره سؤالا، لكنه أجابها بهدوء. "أنا في حاجة لذلك. أنا في الثانية والخمسين. هذه فرصتي الأخيرة. ما زال عليّ سماع الأدلة على وجود حياة أخرى".

رد متغطرس لم يسعها الرد عليه. ظلت تحدق فيه فقط، بفمها مشدوها ربما. لديها الآن الرد المناسب بروح الأثر الرجعي وهي على مضجعها. "اثنان وخمسون؟ جاك، أنت ستون! هذا مثير للشفقة، هذا ابتذال".

أما ما قالته بالفعل، بصوت كسير، فقد كان: "هذا سخف شديد".

"فيونا، متى كانت آخر مرة مارسنا فيها الحب؟"

متى كان ذلك؟ سألها هذا السؤال من قبل، في أمزجة تتنوع من الأسى إلى المناكدة. لكن الماضي القريب مزدحم يصعب تذكره.

اكتظت محكمة الأسرة بنزاعات غريبة، التماسات خاصة، نصف حقائق حميمية، اتهامات مثيرة. وكما في جميع فروع القانون ينبغي استيعاب الخصوصيات الدقيقة للظروف بسرعة. سمعتْ الأسبوع الماضي المذكرات النهائية لوالدين يهوديين مطلّقين، متدينين بشكل غير متكافئ، يتنازعان على تعليم ابنتيهما. مُسوّدة حكمها النهائي على الأرض بجانبها. وسوف تمثُل أمامها غدًا مجددًا امرأة إنجليزية بائسة، نحيلة وشاحبة، متعلّمة تعليمًا عاليًا، أم لابنة تبلغ من العمر خمسة أعوام، تجزم، بالرغم من تأكيد المحكمة على العكس، أن الأب، رجل أعمال مغربي ومسلم متشدد، سينتزع الابنة من اختصاص المحكمة، إلى حياة جديدة في الرباط حيث ينوي أن يستقر. ما عدا ذلك، الخصومات الروتينية على حضانة الأطفال، والمنازل، ومعاشات التقاعد، والرواتب، والميراث. التَّركات الكبيرة هي ما تصل إلى المحكمة العليا. غالبا ما تفشل الثروة في جلب سعادة ممتدة. سرعان ما يتعلم الآباء مصطلحات القانون الجديدة وإجراءاته السقيمة، يجد أحدهم نفسه في نزاع مَعيب مع من أحبّه ذات مرة. وخلف ذلك في غرف الانتظار، فتيان وفتيات بأسمائهم الأولى في أوراق المحكمة، الكثير جدا من الصغير بِن والصغيرة سارة، يتكومون معًا ريثما تتصارع الآلهة أعلاهم حتى النهاية، من محكمة الأسرة إلى المحكمة العليا إلى محكمة النقض.

لكل هذا الأسى موضوعات عامة، شيء ما من التماثل الإنساني، لكنه يواصل إدهاشها. كانت ترى أنها صوت العقل في المواقف الميؤوس منها. تؤمن بمواد قانون الأسرة إجمالًا. تعتبرها في لحظات تفاؤلها صرحا هاما في التقدم الحضاري، أن تركز التشريعات على احتياجات

الأطفال قبل احتياجات آبائهم. كانت نهاراتها ممتلئة، والأمسيات كذلك مؤخرا، عشاءات متنوعة، شيء ما في المعبد الأوسط[1] على شرف زميل يتقاعد، أو حفلًا موسيقيًّا في كينجز بليس (شوبرت، سكيريابين)، وسيارات الأجرة، وقطارات المترو، وجلب الملابس من المغسلة، وكتابة خطاب لمدرسة خاصة عن ابن عاملة النظافة المتوحِّد، وأخيرا النوم. أين كان الجنس؟ في تلك اللحظة، لم تتذكر.

"أنا لا أسجل في دفتر".

رفع راحتيه، وهو المطلوب إثباته.

راقبتْه وهو يعبر الغرفة ويصب لنفسه كأس ويسكي، التاليسكر الذي تشربه الآن. بدا لها مؤخرًا أطول وحركته أكثر سلاسة. شعرتْ وظهره لها بخوف بارد من الرفض، من مهانة أن يهجرها من أجل واحدة أصغر، أن يتركها خلفه، عقيمة ووحيدة. فكّرتْ في إمكانية أن توافقه ببساطة على كل ما يريده، ثم رفضتْ الفكرة.

عاد إليها بكأسه، لم يعرض عليها كأس نبيذ أبيض كعادته في مثل هذا الوقت من اليوم.

"ماذا تريد جاك؟"

"سأدخل تلك العلاقة".

"تريد الطلاق".

"لا. بل أريد أن يبقى كل شيء على ما هو عليه. بلا خداع".

"لا أفهم".

---

1 الجمعية العليا للمعبد الأوسط، معروفة بالمعبد الأوسط، إحدى أربع جمعيات عليا ينتمي إليها القانونيين البريطانيين، الثلاث جمعيات الأخرى، مذكورة أيضًا في الرواية، هي المعبد الداخلي، وجمعية جراي، حيث تعيش البطلة، وجمعية لينكولن. توجد جميعا في منطقة المعبد الأوسع في لندن، بالقرب من محاكم العدل الملكية وسط مدينة لندن. يعود تاريخها جميعًا إلى القرن الخامس عشر.

"بل تفهمين، ألم تخبريني مرة أن الأزواج في الزيجات الطويلة يطمحان إلى حالة الأشقّاء؟ ها قد وصلنا إليها فيونا. صرت شقيقك. الأمر مريح وجميل وأنا أحبك، لكنني، قبل موتي، أريد شغفا واحدا كبيرا ".

افترضَ أن شهقة ذهولها ضحكة، استهزاء ربما، فقال بقسوة "نشوة، يكاد المرء من رعشتها أن يفقد وعيه. أتذكرين هذا؟ أريد هذا مرة واحدة أخيرة، حتى إن كنتِ لا تريدين. أو ربما تريدينه".

حدّقت فيه مذهولة.

"هكذا هو الأمر إذن".

عثرتْ حينها على صوتها وأخبرته أي أحمق هو. لديها قبضة محكمة على ما هو صواب تقليديًّا. وكونه قد ظل مخلصًا لها دائما، على حد علمها، فقد صار عرضه أكثر استفزازا. أو لو كان قد خدعها من قبل فقد فعلها بذكاء. تعرف اسم المرأة بالفعل. ميلاني. ليس بعيدا عن اسم نوع مميت من سرطان الجلد. تعلم أن علاقته بتلك الإحصائية ذات الثمانية والعشرين عاما قد تقضي عليها تمامًا.

"إن فعلتَ هذا ستكون النهاية بيننا. الأمر بهذه البساطة".

"هل هذا تهديد؟"

"هذا وَعيد كئيب".

حينها استعادت أعصابها. وبدا الأمر بسيطا بالفعل. إنّ عرْضَ زواج مفتوح أمر يأتي قبل الزفاف وليس بعده بخمسة وثلاثين عاما. أن يخاطرا بكل ما لديهما لاحتمال أن يحظى برعشة جِسيّة عابرة! حين حاولت تخيّل شيء ما كهذا لنفسها – ستكون بدايتها هي نهايتها – لم يسعها التفكير سوى في العقبات، والتوقعات، والإحباطات،

والمكالمات سيئة التوقيت. لُزوجة تعلّم الوجود مع شخص جديد في الفراش، المداعبات المبتكرة حديثًا، كل الزيف. وأخيرًا، الانفصال الضروري، الجهد اللازم لتبقى منفتحًا وأمينًا. ولا شيء يعود كما هو تقريبا حين تبتعد. لا، إنها تفضّل وجودا منقوصًا – وجودها الآن – على كلّ ذاك.

لكنها، وهي على كرسيّ الشيزلونج، يرتفع أمامها المدى الحقيقي للإهانة، كيف أنه على استعداد لدفع ثمن سعادته من بؤسها. متوحش. كانت قد رأتْ تعامله بعِناد مع الآخرين، من أجل قضية جيدة في الغالب. أما هذا، فجديد. ماذا تغير فيه؟ وقف منتصبا موسعًا بين ساقيه بمسافة جيدة وهو يصُب كأسه، أصابع يده الحرة تتحرك مع أنغام تتردد في رأسه، أغنية مشتركة ربما، ليست معها هي. أن يجرحها دون أن يبالي، هذا جديد. كان عطوفا دائما، وفيا وعطوفا، والعطف، كما تثبت محكمة الأسرة يوميًا، مكوّن إنساني أساسي. لديها سلطة انتزاع طفل من أحد أبويه إن كان قاسيًا، وأحيانا تفعل. لكن أن تنزع نفسها من زوج قاس؟ متى كانت ضعيفة وكئيبة؟ أين قاضيها هي؟

يُحرجها رثاء الذّات حين يُقدم عليه الآخرون. لن ترثي حالها الآن. كانت تشرب كأسها الثالثة بدلا من ذلك، صبّتْ ويسكي أقل وأضافتْ ماءً أكثر وعادت إلى أريكتها. نعم، كانت محادثة من النوع الذي ينبغي تسجيل الملاحظات بشأنها. من المهمّ أن تتذكر، لقياس الإهانة بحرص. حين هدّدت بإنهاء زواجهما إن واصل تقدّمه في علاقته الجديدة، كرّر ما قاله سابقًا ببساطة، أخبرها مجدّدًا أنه يحبّها، وسيظلّ دائما يحبّها، وأنه ليس لديه أيّ حياة أخرى غيرها،

وأن حاجاته الجنسيّة غير المُشبَعة أتعسته بشدّة، وأن أمامه فُرصة أخيرة يُريد انتهازها مع فتاة شابّة، بعِلمها هي، زوجته، وبتأييدها كما يأمل. كان يتحدث بروح مُنفتحة. يمكنه فعل ذلك خلف ظهرها، ظهرها الضعيف الذي لا يَغفر.

"أوه"، تمتمت "هذا احترام منك يا جاك".

"حسنا، في الحقيقة..." بادر القول لكنه لم يُكمل.

ظنّته سيخبرها أن العلاقة قد بدأت بالفعل، لكنها لن تتحمل سماع هذا. لا داعي. لقد رأتها. إحصائية جميلة تعمل على الاحتمالات الضعيفة لرجل يعود إلى زوجة ممرورة. رأته كما في وضح النهار، حمام غير مألوف، وجاك، ما زال بعضلات لا بأس بها، يرتدي قميصًا أبيض نظيفًا مزرّرة نصف أزراره بطريقته نافدة الصّبر، فيما قميصه المستخدم مُلقى في سلة الغسيل، عالقًا على ارتفاع ذراع قبل أن يسقط على الأرض. السقوط. قد يحدث، شاءتْ أم أبتْ.

"الإجابة لا"، قالت بنبرة عالية كمربيّة متعنّتة. ثم أضافت "ماذا تتوقع مني قوله غير هذا؟"

شعرتْ بضعف وأرادت أن تنهي المحادثة. لديها مُسوّدة حُكم عليها مراجعتها قبل الغد لنشرها في تقارير محكمة الأسرة.

كان مصير الطالبتين اليهوديتين قد تقرر بالفعل في الحكم الذي أعلنته في المحكمة، لكنّ عليها تبسيط الصياغة، وكذلك إسناده لقواعد قانونية ملزمة ليكون دليلا ضد الاستئناف. في الخارج، مطر صيفي يضرب النافذة؛ ومن بعيد، من خلف ميدان جمعية جراي، يأتي هسيس الإطارات على الأسفلت المبلل. سيتركها، وسيواصل العالم سيره.

توتّر وجهه وهو يرفع كتفيّه ويستدير ليخرج من الغرفة. شعرتْ حين رأتْ ظهرَه لها مجددًا بالخوف البارد نفسه. كانت لتصيح عليه من خلفه لولا رُعبها من أن يتجاهلها. وماذا كانت ستقول؟ عانِقني، قبّلني، خُذ الفتاة؟ سمِعتْ وقْع خطواته في الردهة، باب غرفة نومهما ينغلق بحزم، ثم احتل الصمت الشقة، الصمت والمطر الذي لم يتوقف منذ شهر.

***

أولًا الحقائق. الطرفان، آل بيرنشتاين، كلاهما عضو متشدد في جماعة الحريدم اليهودية الصارمة بشمال لندن. تَرتّب زواجهما على يد أهلهما، دون اعتراض منهما. ترتّب، ولم يُفرض، كما أصرّ الطرفان في حادثة نادرة. مرّت ثلاثة عشر عاما، كل شيء واضح: وسيط، وعامل اجتماعي، وقاضية، هذا الزواج لا يمكن إصلاحه. انفصل الزوجان الآن. تدبرا معًا بصعوبة رعاية الطفلتين، راشيل ونورا، اللتين تعيشان مع الأم وعلى اتصال دائم بالأب. بدأ انهيار الزواج في السنوات الأولى، بعد الولادة العسيرة للطفلة الثانية، لم تعد الأم قادرة على الإنجاب إثر جراحة استئصال. كان الأب يتمنى من كل قلبه عائلة كبيرة لذلك بدأ الكشف المؤلم. بعد فترة معاناة (مطولة حسب قول الأب؛ وقصيرة حسب قول الأم)، درستْ الأم في جامعة مفتوحة، حصلت على مؤهل جيد وبدأت مسارها الوظيفي كمدرسة في التعليم الابتدائي ما إن بدأت الطفلة الصغرى الدراسة. لم يناسب هذا الترتيب لا الأب ولا كثيرًا من الأقارب. في طائفة الحريدم، التي ظلت

تقاليدها راسخة منذ قرون، على المرأة رعاية المنزل وتربية الأطفال، الذين كلما زادوا كان ذلك أفضل. الشهادة الجامعية والوظيفة أمران غير مألوفين إطلاقًا حسب قول رجل كبير ومميز في الطائفة، كان الأب قد استدعاه كشاهد.

رجال الطائفة أيضًا لا يتلقّون قدرا كبيرا من التعليم. عليهم منذ بدء صباهم منح أغلب وقتهم لدراسة التوراة. وبصفة عامة، لا يذهبون إلى الجامعة. لذلك جزئيًا، كان أكثرية الحريدم على مستوى متواضع نسبيًا من العيش. لكن ليس آل برينشتاين، مع أنهما سيغدوان كذلك حين تصلهما فواتير المحاميتان. كان أحد الأجداد لديه حصة في براءة اختراع ماكينة نقر الزيتون قد ترك مالا للزوجين معًا. المتوقع أن ينفِقا كل ما لديهما على محاميتيهما، تعرف القاضية كلتا المرأتين جيدًا. كان النزاع، في ظاهره، بخصوص تعليم نورا وراشيل. مع ذلك، كان السياق الكلي لنموهما على المحك، كان صراعا من أجل روحيهما.

ممنوع الاختلاط بين الفتية والفتيات الحريدم لحفظ طهارتهم. وعليهم ارتداء ملابس محتشمة، ممنوع التلفاز والإنترنت والاختلاط بالأطفال المسموح لهم بهذه التشويشات. تعتَبر البيوت التي لا تلتزِم بقواعد الكوشر بصرامة خارجة على الجماعة، كل عوامل الحياة مكسوة جيدا بعادات راسخة. بدأت المشكلة مع الأم، التي تمرّدت على الطائفة، لكن ليس على اليهودية. كانت بالفعل، رغم اعتراضات الأب، تُرسل الفتاتين إلى مدرسة ثانوية يهودية مشتركة حيث يُسمح لهما باستخدام التلفاز والإنترنت وسماع الموسيقا والاختلاط بأطفال من غير اليهود. تريد أن تظل ابنتاها في التعليم إلى ما بعد السادسة

عشرة من عمرَيْها وأن تلتحقا بالجامعة إن أرادتا. قالتْ في مذكرتها المكتوبة إنها تريد أن تعرف ابنتاها مزيدًا عن حياة الآخرين، وأن تكونا متسامحتين اجتماعيا وأن تحظيا بفرص وظيفية لم تتوفر لها هي قط، وأن تصيرا، وهما في سن الرشد، مستقلتين ماليًا، بفرص إيجاد زوج بمهارات مهنية مماثلة تمكّنه من إعالة أسرة. بخلاف زوجها، الذي يمنح كل وقته لدراسة وتعليم التوراة لثمان ساعات أسبوعية بلا مقابل.

على كل عقلانية زعمها، لم يكن لوجه جوديث بيرنشتاين – الشاحب الهزيل، وشعرها المكشوف الزنجبيلي المجعد والمعقود بمشبك أزرق ضخم – حضورا سهلا في قاعة المحكمة. تظل ترسل إشارات عابرة بأصابع منمشة متوترة ملاحظات لمحاميتها، وكثيرًا من التنهّد المكتوم وتدوير العين وزمّ الشفتين كلما تحدث محامي زوجها، تفتش وتنبُش على نحو غير لائق في حقيبة ضخمة من جِلد الجِمال، تُخرِج منها في لحظة إحباط في نهاية ظهيرة مرهقة علبة سجائر وقداحة – بنود استفزازية لجهة زوجها بالطبع – تضعهما جنبا إلى جنب، في متناول اليد لحين رفع الجلسة. رأتْ فيونا كل ذلك من موقعها العالي لكنها تظاهرت بأنها لا تراه.

الغرض من مذكرة السيّد بيرنشتاين المكتوبة إقناع القاضية بأن زوجته امرأة أنانية تعاني من مشاكل إدارة الغضب (اتهام شائع ومتبادل غالبًا في محكمة الأسرة) أدارت ظهرها لوعود زواجها، وعارضت والديها وطائفتها، وقطعت صلة الفتاتين بالاثنين. على النقيض من ذلك، قالت جوديث منذ البداية أن حمويها هما من لا يرغبان في رؤيتها أو رؤية الفتاتين ما لم يعدن إلى طريقة العيش

الصائبة، ويتركن العالم الحديث، بما في ذلك وسائل التواصل الاجتماعي، وما لم يعشن في بيت يلتزم بالشريعة اليهودية.

السيّد جوليان بيرنشتاين، طويل كعود الخيزران، كأحد أفرع الأسل التي أخفت النبيّ موسى رضيعًا، ينحني مُعتذرا أمام المحكمة، يختلج صدغيه بعصبية حين تتهم محاميتُه زوجتَه بالعجز عن الفصل بين رغباتها الشخصيّة ورغبة الفتاتين، فما تزعُم أنهما تريدانه هو ما كانت تريده هي. فقد كانت تنتزع الفتاتين بعيدًا عن بيئة آمنة ودافئة ومألوفة، متشددة لكنها ودودة، تناسب قواعدها وعباداتها جميع الإمكانات، هويتها واضحة، وطرقها راسخة عبر الأجيال، وأعضاؤهما بصفة عامة أسعد وأكثر رضا إلى حد كبير من آخرين في العالم العلماني الاستهلاكي خارجها – العالم الذي يهزأ من الحياة الروحانية وتحطّ ثقافته العامة من شأن الفتيات والنساء. طموحاتها طائشة، وطُرقها غير محترمة ومدمِّرة. حُبّها لابنتيها أقل كثيرا من حبها لذاتها.

أجابت جوديث بخشونة على ذلك بأن لا شيء قد يحطّ من شأن أي شخص سواء كان فتى أو فتاة أكثر من حرمانه من تعليم جيد وكرامة العمل الجيد؛ وأنها ظلت طوال طفولتها وسِنيّ مراهقتها تتعلم أن هدفها الوحيد في الحياة هو أن تصنع لزوجها بيتا سعيدا وتعتني بأطفاله، ما كان حَطًّا أيضًا من شأن حقها في اختيار الهدف من حياتها بنفسها. وأنها حين واصلتْ تعليمها، بصعوبة شديدة، في الجامعة المفتوحة، واجهت استهزاءً، وازدراءً ولعنات، وقد قطعت وعدًا على نفسها ألّا تتعرّض ابنتاها لمثل تلك القيود.

كانت محاميتا الطرفين متفقتين ضمنيًا (لأنه من الواضح أن

هذا هو رأي القاضية) على أن القضية ليست بشأن التعليم تمامًا، وأن على المحكمة أن تختار، نيابة عن الطفلتين، بين الدين المطلق وشيء ما أقل قليلًا. بين الثقافات والهويات، والحالات الذهنية، والتطلعات، والأواصر العائلية، والمفاهيم الأصولية، والولاءات الأساسية، والمستقبل المجهول.

في تلك الحالات، تميل الفطرة إلى إبقاء الوضع على ما هو عليه، طالما بدا حميدا. كانت مسوّدة حكمها في واحد وعشرين صفحة، ملقاة على الأرض في شكل مروحة واسعة، تنتظرها لترفعها، ورقة بعد أخرى، لتَخُطّ فيها بقلم رصاص ناعم.

لا صوت من غرفة النوم، لا شيء سوى همس انسياب السيارات تحت المطر. أغاظها تسمُّعها لأي صوتٍ منه، تُصيخ السمع، تحبس أنفاسها لتسمع صرير الباب أو ألواح الأرضية، تتمنّى هذا، ومرعوبة منه.

من بين زملاءها القضاة كانت فيونا ماي تحظى بالإشادة، حتى في غيابها، لصياغتها النضرة، الساخرة تقريبا، والدافئة تقريبا، وللبنود القانونية الوثيقة الصلة التي تحل بها أي نزاع. سُمِع اللورد رئيس القضاة بنفسه يقول عنها في همهمة جانبية ذات غداء "إنها تَرى من مسافة ربانية، ولديها فهم شيطاني، وما زالت جميلة". كان رأيها هي في نفسها، أنها بمرور كل عام كانت تميل أكثر قليلا إلى دقة قد يدعوها البعض حذلقة، إلى البيان الحصين الذي قد يُعتبر يوما ما اقتباسا متواترا، مثل هوفمان في بيجلوفيسكا ضد بيجلوفيسكا، أو بينجهام، أو وراد، أو سكارمان الذي لا غنى عنه، أفادت من كل هؤلاء هنا. ها هنا طرف الخيط في الصفحة الأولى التي لم تنظر فيها، بين

أصابعها. أكانت حياتها على وشك أن تتغير؟ هل سرعان ما سيغمغم أصدقاءهم بدهشة على غداءٍ ما هنا أو في جمعية لينكولن أو في المعبد الأوسط أو الداخلي، ثم طردته خارج البيت؟ خارج شقة جراي المبهجة حيث ستمكث وحيدة حتى ينتهي عقد الإيجار، أو تكنسها السنون في مرورها كتيار نهر التيمز الواجم، إلى الخارج هي الأخرى؟

عودة إلى عملها. القسم الأول: "خلفية". بعد ملاحظات روتينية عن معيشة الأسرة، ومقر إقامة الطفلتين واتصالهما بالأب، وصفتْ الطائفة الحريدية في فقرة منفصلة، وكيف تشمل ممارساتها الدينية الحياة بأكملها. لا تمييز بين ما لقيصر وما للرب. على نحو يُشبه المسلمين المتشدّدين كثيرا. علق قلمُها الرصاص في الهواء. وضع المسلم واليهودي في قالب واحد، ألا يبدو ذلك غير ضروري أو استفزازيًّا، على الأقل بالنسبة للأب؟ فقط إن كان لا عقلانيًّا، وفكرتْ إنه ليس كذلك. أبقت الجملة كما هي.

القسم الثاني بعنوان الاختلافات الأخلاقية. طُلب من المحكمة اختيار تعليم للفتاتين، الاختيار بين القِيَم، وفي حالات كهذه، لا يساعد كثيرا الميل إلى المقبول في المجتمع عمومًا. كان هنا أن استدعت لورد هوفمان. "تلك أحكام قيمية قد يختلف حولها أولو الألباب. وبما أن القضاة بشر أيضًا فهذا يعني وجود درجة ما حتمية من التباين في تطبيقهم للقيم..."

أعلى الصفحة، وبذائقة اكتسبتها مؤخرًا للاستطراد الدقيق والمتأنّي، أضافت فيونا عدة مئات من الكلمات لتعريف "الرّفاه"، ثم وصفًا لمعايير هذا الرفاه. تتبعت لورد هيلشمان في ربط المصطلح بشكل وثيق بالرخاء وتضمينه كل ما له صلة بنمو شخصية الطفل. يعود

الفضل لتوم بينجهام في معرفتها بضرورة النظر على المدى المتوسط أو المدى الطويل، وحُسبان أن طفل اليوم قد يعيش في القرن الثاني والعشرين. اقتبستْ من حكم للورد ليندلي رئيس القضاة عام 1893 ما معناه أن الرفاه لا يمكن تلخيصه في مصطلحات مالية صِرفة، أو بالإشارة إلى الراحة البدنية فقط. بل من وجهة نظر أوسع، يجب أن يشمل الرفاه، أو السعادة، أو الرخاء المفهوم الفلسفي للحياة الجيدة. عدّدت بعض المكونات ذات الصلة، أهدافًا يجب أن يتجه نحوها نمو الطفل. الحرية الاقتصادية والأخلاقية، الفضيلة، الرأفة والإيثار، عمل ملائم بالمشاركة في مهام إلزامية، شبكة علاقات شخصية نامية، اكتساب تقدير الآخرين، السّعي نحو معنى أكبر لوجود الفرد، وتمحور الحياة حول علاقة أو عدد صغير من العلاقات المهمّة التي يعمها قبل كل شيء الحب.

نعم، في هذا المكوّن الأخير، فشلتْ هي نفسها. كأس الويسكي والماء بجوارها لم يُمَس. يقززها الآن لونه الأصفر البَوْلِيّ ورائحته المعدنية النفاذة. يجب أن تشعر بالغضب أكثر، أن تتحدث مع صديق قديم – لديها العديد – أو تذرع الخُطى في الغرفة، تريد أن تعرف المزيد. لكنها تشعر أنها قد تقلصت إلى نقطة هندسية غرضها القلق. لا بد أن تُسلّم الحكم للطباعة، غدا آخر موعد، لا بد أن تعمل. حياتها الشخصية لا شيء، أو يجب أن تكون كذلك. ظل انتباهها مقسّما بين الصفحة في يدها وباب غرفة النوم على مبعدة خمسين قدمًا. جعلت نفسها تقرأ فقرة طويلة. فقرة أثارت شكوكها حين تَلَتْها بصوت عالٍ في المحكمة، لكن لا ضرر من بيانٍ رادع لما هو واضح. السعادة اجتماعية. الشبكة المعقدة لعلاقات الطفل بالأسرة والأصدقاء هي

المكوّن الحيوي. لا طفل جزيرة وحده. الإنسان حيوان اجتماعي، في منطق أرسطو الشهير. بأربعمائة كلمة في هذا الموضوع أبحرت بعيدا، ترفع لها أشرعتها مرجعيتها المعرفية (آدم سميث، جون ستيوارت ميل). الوجهة الحضارية التي يحتاج إليها كل حُكم جيد.

ثم، السعادة مفهوم متغيِّر ليتم تقييمه طبقا لفهم الرجل العاقل أو المرأة العاقلة في العصر الحالي. ما كان مُرضيا لجيل سابق قد لا يكون كذلك الآن. ومجددا، ليس من شأن محكمة علمانية أن تحكم بين المعتقدات الدينية أو في الخلافات اللاهوتية. ينبغي احترام جميع الأديان شريطة أن تكون حسب تعبير اللورد بوركا رئيس القضاة "قانونية ومقبولة اجتماعيًا" وليست، حسب عبارة لورد سكارمان الأكثر قتامة "لا أخلاقية أو بغيضة".

يجب أن تتمهل المحكمة في تدخلها من أجل مصلحة الطفل ضد مبادئ الوالدين الدينية. لا بد من هذا أحيانًا. لكن متى؟ تذكرت في الرد على هذا إحدى مفضّلاتها، اللورد مونباي، رئيس القضاة الحكيم في محكمة الاستئناف. "إن التنوع اللانهائي للوضع الإنساني يحول دون أي تعريف عشوائي". اللمسة الشكسبيرية المثيرة للإعجاب، ولا ينفذ إليها فَنّ فيملّها عاشق[2]. جرفتها الكلمات. تحفظ كلمات ابنوباربوس عن ظهر قلب، لعبت دوره ذات مرة وهي طالبة في كلية الحقوق، مسرحية بممثلات نساء فقط على العشب في ملاعب جمعية لينكولن ذات ظهيرة صيفية مشمسة. حين كان عبء امتحانات النقابة قد انزاح مؤخرًا عن كاهلها. حينها وقع جاك في غرامها، وبعد وقت ليس طويلا وقعتْ هي في غرامه. مارسا الحب أول

2 من مسرحية أنطونيوس وكليوباترة لشكسبير، ترجمة د. لويس عوض.

مرة في غرفة عليّة مستعارة كان سقفها يتحرَّق تحت شمس الظهيرة. تطل كوة نافذة لا يمكن فتحها شرقًا على مشهد من نهر التيمز ناحية حمام سباحة لندن.

فكّرت في حبيبته الجديدة أو الفعلية، الإحصائية خاصته، ميلاني – قابلتها مرة – شابة صامتة بعُقد كهرماني ذي حبّات كبيرة وعافية تمكّنها من تحطيم لوح أرضية من البلوط القديم. سواها من النساء يُتخِمن حيث يُشبِعن، أما هي فيسغَب لها الجسد كلما أطعمته[3]. قد تكون هكذا بالضبط، هوس سام، إدمان يجذبه بعيدا عن البيت، يبدّل كيانه، يقرض كل ما بينهما من ماض ومستقبل، وحاضر كذلك. أم إنها، ميلاني، مثل فيونا كما هو واضح، تنتمي إلى فئة "النساء الأخريات"، اللائي يُتخِمن، وسوف يعود خلال أسبوعين، مُشبعًا، ويخطط للعُطلة العائلية.

احتمالان كلاهما لا يطاق.

لا يُطاق ومذهل. ولا صلة له بالأمر. أجبرت نفسها على العودة إلى أوراقها، إلى ملخصها لمذكرتيّ الطرفين – بعمليّة وتعاطُف جاف بما يكفي. التالي، تقرير الأخصائية الاجتماعية التي عيّنتها المحكمة، شابة ممتلئة وطيبة القلب تلهث معظم الوقت، شعرها غير مصفف، أزرار بلوزتها مفتوحة والبلوزة نفسها خارج التنورة. مبلبلة، تأخرت على موعد الجلسة مرتين بسبب مشاكل معقدة مع مفاتيح السيارة، نسيَت الوثائق في السيارة ذات مرة، مع طفل كان يجب أن تقله من المدرسة، لكنها بدلا من التردد المعتاد لإرضاء الطرفين، كان تقرير موظفة الكافكاس[4] معقولًا، بل وثاقبًا حتى، واقتبست منها فيونا

3 الهامش السابق.

4 اختصار لمكتب خدمة دعم واستشارات محكمة الأسرة والطفل.

باستحسان. التالي؟

رفعتْ بصرها ورأت زوجها عند الطرف الآخر من الغرفة، يصب كأسا أخرى، كبيرة، بطول ثلاثة أصابع، أربعة ربما. وحافيًا الآن كعادته في البيت صيفًا، الأكاديمي البوهيمي، لذلك لم تسمع صوت دخوله. الأرجح أنه ظل طوال النصف ساعة الماضية راقدا على الفراش يحدق في السقف ويفكر في لا معقوليتها. الانحناء المتوتر للكتفين، وطريقته في إعادة السدادة – ضغطة بإبهامه – ينمّان عن استعداده للجدل. إنها تعرف العلامات.

عاد يُقبِل نحوها بكأسه غير المخفَّفة بالماء. الفتاتان اليهوديتان، راشيل ونورا، عليهما التحليق خلفها كمَلَكين مسيحيين والانتظار. ربّهما العلماني لديه مشاكل شخصية. من منظورها الواطئ ترى أظافر أصابع قدميه جيدا – مُقلّمة ومستوية، أقواس لامعة ونضرة بلا أثر من الخطوط الفطرية التي تلطخ أصابع قدميها هي. يحافظ على لياقته البدنية بلعب التنس في الكلية ورفع مجموعة أوزان في مكتبه، يجعل هدفه رفعها مئات المرات خلال اليوم. هي لا تفعل أكثر من حمل حقيبة أوراقها من قاعة المحكمة إلى غرفتها، قد تصعد السلم بدلا من المصعد. كان وسيما بطريقة مغايرة، فك مربع غير متوازن، تعبير كاشف عن الأسنان ولعوب يفتن به طلبته الذين لا يتوقعون جانبًا مُنفلتًا في أستاذ جامعي للتاريخ القديم. لم تفكر قط في وضعه إصبعا على الأطفال. الآن، يبدو كل شيء مختلفًا. ربما ظلّت بريئة، رغم عمرها الذي قضته في شبكة الضعف الإنساني، تنأى بنفسها هي وجاك عن الوضع العام بذهن منشغل. سرعان ما جعله كتابه الوحيد للقارئ غير الأكاديمي، سيرة سريعة ليوليوس

قيصر، شهيرًا بطريقة كتومة ومحترمة. ربما وضعت فتاة ما متأنقة وصفيقة، في عامها الجامعي الثاني، نفسَها في طريقه بإلحاح. توجد، أو كانت توجد، أريكة في مكتبه، ولافتة برجاء عدم الإزعاج أخذها من فندق الجريون بعد قضاء شهر عسلهما منذ وقت طويل. كانت تلك أفكارا جديدة، هكذا ستقضي آفة الشك على الماضي كله.

جلس على أقرب كرسي "لم تستطيعي الإجابة على سؤالي، لذلك سأخبرك: منذ سبعة أسابيع ويوم. أأنتِ راضية الآن حقًا؟"

قالت بهدوء "أأنت بالفعل في هذه العلاقة؟"

يعرف أن أفضل طريقة لإجابة سؤال صعب هي طرح سؤال آخر، "أتظنيننا عجوزين للغاية؟ أهذا هو الأمر؟"

قالتْ "لأنك إن كنت كذلك فأنا أريدك أن تحزم حقيبتك الآن وترحل".

حركة ضرر ذاتي، بلا تفكير مسبق، قَلْعتها مقابل حصانه، حماقة تامة، ولا سبيل للتراجع. إن مكث مهانة وإن رحل الهاوية.

كان يستقر في مقعده، قطعة من الخشب والجلد بهيئة تُذكّر بالتعذيب في العصور الوسطى، لم تحب الطراز الفيكتوري القوطي قط، ولن تحبه الآن. يضع أحد كاحليه على رُكْبته الأخرى، رأسه مرفوع وينظر إليها بتسامح أو بشفقة، وهي تشيح ببصرها بعيدا عنه. سبعة أسابيع ويوم لها وقع العصور الوسطى أيضًا، كحكم أصدرته محكمة جنايات قديمة. أزعجها التفكير في أن لديها قضية عليها النظر فيها. لقد تمتعا بحياة جنسية جيدة لسنوات كثيرة، بشكل منتظم وحسي على نحو غير معقد، خلال أيام الأسبوع في الصباح، ما أن يستيقظا، قبل أن تخترق مهام أيام العمل الطاحنة

ستائر غرفة النوم الثقيلة، وفي العطلات الأسبوعية خلال الظهيرة، أحيانًا بعد التنس، أو النزهات الزوجية في ميدان ميكلينبيرج. إلقاء اللوم كله على الشريك يُعد إهدارا للذخيرة. في الحقيقة كانت حياتهما العاطفية سعيدة بعمق، وعملية، لذلك أوصلتهما معا بسلاسة إلى بقية وجودهما، كذلك كانت فوق مستوى النقاش، ما كان أحد مسرّاتها. لا توجد كلمة لوصفها، كان هذا أحد أسباب تألمها وهي تسمعه يناقشها الآن، كذلك أحد أسباب عدم ملاحظتها التراجع البطيء في الرغبة والتكرارية.

لكنها أحبته دومًا، كانت دائما حنونة، وفيّة، مهتمة، العام الماضي فقط مرّضته بعناية حين كسر ساقه ومعصمه في ميريبيل أثناء سباق تزلج جليدي سخيف مع بعض زملاء الدراسة القدامى. كانت ترفّه عنه، تُجلسه منفرج الساقين، تتذكر الآن حين كان يرقد مبتسما بالألق الطباشيري لجبسه. ما كانت لتشير إلى تلك الأشياء دفاعا عن نفسها، كذلك هذا ليس سبب الهجوم عليها. لم يكن ما ينقصها الوفاء، بل الشغف.

ثم كان التقدُّم في السن. ليس الذبول التام، ليس بعد تمامًا، لكن بوادره الأولى كانت تبرق في الداخل، تماما مثلما قد يلمح المرء، في إضاءة معيّنة، هيئة الكبار في وجه طفل عمره عشر سنوات. إن تمدّد جاك على الأرض أمامها الآن، ما يبدو سخيفا في هذه المحادثة، كم سيبدو أكبر بكثير. يبزغ شعر صدره الأبيض، فخره الدائم، عند زر قميصه العُلوي فقط ليُعلن أنه لم يعد أسود؛ خَفّ شعر الرأس بهيئة قروديّة على النمط التقليدي، فأطاله كتعويض غير كاف. فخذاه أقل ذكورية، لا يملآن سرواله الجينز تماما، وعيناه

تحملان تلميحًا رقيقًا بوقت فراغ في المستقبل، بتجويف لائق حول الوجنتين. ماذا إذن عن امتلاء كاحليها في دلال، مُقابل تضخّم ردفيها كسُحُب الصيف، وسُمنة خصرها المتزايدة وارتكاس لثتها؟ تفكّر في كل هذا مذعورة. الأنكى هو الإهانة التي تحتفظ بها السنون لنساء بعينهن، التي تبدأ زاوية فم إحداهن بالهبوط فتكتسب هيئة التأنيب الدائم، هيئة تليق بقاضية ترتدي شعرًا أبيض مستعارًا وتعْبس من أعلى عرشها للجميع في قاعة المحكمة، لكن هل تليق بحبيبة؟

وها هما، كمراهقين، يجلسان باعتدال ليناقشا أمرهما أمام إله الحب. تجاهلَ بيانَها القاطع بذكاء تكتيكي قائلًا "لا أظن أن علينا الاستسلام، أليس كذلك؟"

"أنت من تريد الذهاب".

"أعتقد أنّ لكِ يدًا في هذا أيضًا".

"لست أنا من يهم بإغراق زواجنا".

"هذا ما تظنينه".

قال ذلك بعقلانية، مُلقيًا الضوء على الكلمات الثلاث في أغوار شكوكها الذاتية، ميلها إلى تصديق أنها، في أي صراع، حتى لو كان على هذا القدر من الإحراج، فالأرجح أنها المخطئة.

أخذَ رشفة حريصة من كأسه. لن يسْكَر ليؤكد على احتياجاته، يُفضّل أن يظل جادا وعاقلا بينما تريده هي صائحًا ومخطئًا.

التقطَ نظرتها قائلًا "أنتِ تعرفين أنني أحبك".

"لكنكَ ترغب في واحدة أخرى أصغر".

"أرغب في حياة جنسية".

ها هو خيطها لتبدأ الوعود الحارة، لتجذبه إليها مجددا، لتعتذر

إن كانت متسلطة أو متعَبة أو مشغولة. لكنها نظرت بعيدًا ولم تقل شيئا. لن تعِده تحت التهديد بتكريس نفسها لتجديد حياة حسيّة ليس لديها في تلك اللحظة ذائقة لها. خاصة بعد أن شكّت في ابتداء العلاقة بالفعل ولم يهتم بنفي الأمر، ولن تسأله مجددا. ليس عن كبرياء فقط، بل لأنها ما زالت مرعوبة من رده.

"حسنا"، قال بعد صمت طويل. "ألا ترغبين في حياة جنسية؟"

"ليس بهذا المسدس مصوّبًا إلى رأسي".

"بمعنى؟"

"أن أُصلِح الأمر وإلا ستذهب إلى ميلاني".

افترضتْ أنه فهم كلامها جيدا لكنه أراد أن يسمعها تردد اسم المرأة، الذي لم تذكره بصوت عال من قبل، جعل ذلك وجهه يختلج أو يحتد، لازمة لا إرادية صغيرة للإثارة، أم كانت الصياغة العارية لـ "بل سأذهب!". هل فقدَته بالفعل؟ شعرت بدوار مفاجئ كأن ضغط دمها قد هبط ثم ارتفع. نهضت عن كرسيّ الشيزلونج وجلست على السجادة وما زالت ورقة الحكم في يدها.

"الأمر ليس كذلك"، كان يقول. "انظري، لنتبادل الأدوار، ضعي نفسك مكاني وأنا مكانك، ماذا كنتِ ستفعلين؟"

"لم أكن لأبحث لنفسي عن رجل ثم آت إليك لبدء المفاوضات".

"ماذا كنت ستفعلين إذن؟"

"كنت سأبحث عن ما يضايقك". بدا صوتها لأذنيها متزمتًا.

مدّ كلتا يديه نحوها بغرور قائلًا "جميل!" الأسلوب السقراطي، كما يستخدمه، بلا شك، مع طلبته. "ماذا يضايقك إذن؟"

على كل غباء وزور هذا التبادل، كان هذا هو السؤال الوحيد

الذي رحّبت به، لكنها شعرت بالغيظ منه، وبالانهزام أيضًا، وللحظة لم ترد، صرفت نظرها عنه عبر الغرفة، إلى البيانو، بالكاد عزفت عليه منذ أسبوعين، عليه الصور ذات الأطر الفضية على طراز المنازل الريفية، الوالدان من كلا الجانبين منذ يوم الزفاف وحتى الشيخوخة، شقيقاته الثلاث، شقيقاها الاثنان، زوجتيهما وأزواجهن في الحاضر والماضي (الخيانة لا تترك أحدًا)، أحد عشر من أبناء وبنات الأخوة، ثم الثلاثة عشر طفلا الذين أنجبوهم بدورهم، سرعان ما تمد الحياة الناس بقرية صغيرة مزدحمة أعلى بيانو صغير. لم تسهم هي وجاك بشيء، لا شيء ما عدا التجمعات العائلية، وهدايا أعياد الميلاد شبه الأسبوعية، والعطلات متعددة الأجيال في القِلاع الأقل كلفة نوعًا ما. كانا يستضيفان العائلة في شقتهما أكثر. يوجد في خزانة في نهاية الرواق سرير يمكن طيه، وكرسي عالٍ للرُّضّع، وقفص للأطفال، وثلاث سلال من الخيزران مليئة بدمى ممضوغة وبالية مستعدة للإضافة التالية. وقلعة هذا الصيف على مبعدة عشرة أميال شمال أولابول، تنتظر قرارهما، تظهر في المطويّة السياحيّة سيّئة الطباعة كخندق، جسر متحرك يعمل وزنزانة بمشاجب وحلقات حديدية في الجدران. أماكن التعذيب في الأمس صارت أماكن زيارة مشوّقة لمن تحت الثانية عشرة الآن. فكّرت مجددا في حُكم العصور الوسطى، سبعة أسابيع ويوم، فترة بدأت مع المراحل الأخيرة لقضية التوأمين الملتصقين.

كان كل الرعب والشفقة، والأزمة نفسها، في الصورة التي رأتها القاضية فقط. رضيعان لأبوين من جامايكا واسكتلندا يرقدان ملتصقين وسط شبكة من أنظمة الإنعاش في فراش في العناية

المركزة للأطفال، مُلتصقَي الحوض، ولهما جذع واحد، أقدامهما المفلطحة بزوايا قائمة مع عموديهما الفقريين على نحو يشبه قنديل بحر بأطراف كثيرة. يوضح مقياس مثبَّت إلى جانب الحضّانة إن طول هذا الكيان الإنساني المُدْمَج ستون سنتيمترا. تندمج أوتار عموديهما الفقريين وقاعدتيهما معا، أعينهما مغمضة، أربعة أذرع مرفوعة تسليما بقرار المحكمة. اسماهما في التعميد ماثيو ومارك، ما لم يشجّع على التفكير الواضح في بعض الأوساط. كان رأس ماثيو متورّمًا، وأذناه مجرد ثغرتين في الجلد الوردي، بينما رأس مارك، أسفل قبعة صوف لحديثي الولادة، طبيعيّ. يتشاركان عضوا واحدا فقط، مثانتهما، التي كان أغلبها في جذع مارك، والتي كانت كما أشار أحد المستشارين، تُفرّغ تلقائيًا وبحرية عبر مجريين بَوْليّين منفصلين. قلب ماثيو ضخم لكنه "بالكاد يضخّ". أَوْرَطيّ مارك يضخ في قلب ماثيو وقلب مارك هو ما يُبقي عليهما حيّين. مخ ماثيو مشوه بشدة وغير قابل للنمو الطبيعي، وقفصه الصدري يفتقر إلى نسيج رئوي وظيفي. قالت إحدى الممرضات إنه "ليس لديه رئة ليبكي بها".

كان مارك يرضع طبيعيا، يتغذّى ويتنفس لفردين، يقوم بكل شيء، لذلك كان نحيفا للغاية. أما ماثيو، الذي لم يكن يفعل شيئًا، فكان يكتسِب وزنا. ناهيك عن أن قلب ماثيو سيكُف، إن آجلا أو عاجلا، عن بذل الجهد، وحينها سيموت الاثنان. لم يكن أمام ماثيو أكثر من ستة أشهر. وحين سيموت، سيأخذ معه أخاه. كانت إحدى المستشفيات في لندن تطلب إذن المحكمة بشكل عاجل بفصل التوأمين لإنقاذ مارك، الذي لديه إمكانية عيش حياة طبيعية صحيّة. ولفعل هذا، على الجرّاحين ربْط وقطْع الأوْرَطيّ المشترك،

ومن ثمّ قَتْل مارك. ثم تبدأ مجموعة عمليات تأهيلية معقدة على مارك. الأبوان المحبّان، كاثوليكيّان متديّنان يعيشان في قرية على الساحل الشمالي في جامايكا، هادئان بإيمانهما، يرفضان الموافقة على القتل. الرب من يمنح الحياة وهو وحده من يمكنه استعادتها.

توجد في جزء من ذكراها ضجة رهيبة وطويلة تشتت تركيزها، أبواق آلاف السيارات، آلاف السَّحرة المسعورين، يمثّلون المعنى الحقيقي للتعبير المبتذل القائل "عناوين الأخبار الصارخة". أطباء، قساوسة، مذيعو الإذاعة والتلفزيون، كاتبو عواميد الرأي في الصحف، زملاء العمل، المعارف، سائقو التاكسي، الأُمّة بأسرها لديها رأي. مكونات القصة آسرة: مأساة رضيعين، أبوان طيبان واجمان ورصينان ويحبّ أحدهما الآخر كما يحبان طفلهما والحياة، والحب، والموت، وسباق الزمن. ندّد جراحون في كمّاماتهم بالخرافات. عند أحد طرفي المشهد أصحاب القناعات العلمانية المطلقة، بصبر نافد للتفاصيل القانونية، ينعمون بمعادلة أخلاقية سهلة: إنقاذ طفل واحد أفضل من موت اثنين. وعلى الطرف الآخر أصحاب اليقين الحاسم، ليس فقط في وجود الرب بل وفي فهم مشيئته. باقتباس من اللورد وارد رئيس القضاة، ذكّرت فيونا جميع الأطراف في السطور الافتتاحية لحكمها قائلة "إن هذه القاعة محكمة قانونية وليست أخلاقية، وقد ظلت مهمتنا وواجبنا إيجاد وتطبيق المبادئ القانونية ذات الصلة بالموقف أمامنا – وهو موقف فريد من نوعه".

كان لتلك المباراة الضارية ناتج واحد فقط مرغوب فيه أو آخر أقل قبولا، لكن المسار القانوني إليه لم يكن سهلا. لكنها وجدتْ تحت ضغط الوقت، والعالم الصاخب ينتظر، في أقل من أسبوع

وثلاث عشرة ألف كلمة، مسارا معقولا، أو على الأقل بدا أن محكمة الاستئناف التي عملت تحت ضغط زمني أكبر، بعد يوم من تسليمها حكمها، تظن ذلك. في جميع الأحوال، لا يجوز الافتراض أنّ لحَيَاة ما قِيمة أكبر من حياة أخرى. إن فصل التوأمين قد يقتل ماثيو، لكن عدم فصلهما، إهمالا، يقتلهما معًا. كانت المساحة القانونية والأخلاقية ضيقة وعليها تسوية الأمر كاختيار بين أقل الحلول شرًا. مع ذلك، يظل على القاضي أن يفكر في مصلحة ماثيو الفضلى. ليس الموت بالطبع. لكن الحياة ليست اختيارا كذلك. لديه مخ أولي، لا رئتين، قلب لا جدوى منه، وفي الغالب يتألم ومحكوم عليه بالموت، وعاجلا.

زعمتْ فيونا في صياغة روائية قَبَلتها محكمة الاستئناف إن ماثيو، بخلاف شقيقه، ليس لديه مصلحة.

لكن حتى وإن فضّلنا الأقل شرًا، فقد يظل مع ذلك غير قانوني. كيف يمكننا تبرير جريمة قتل تتمثل في فتح جسد ماثيو وقطع شريان أورطي؟ كانت قد رفضتْ التصور الذي طرحته هيئة مستشاري المستشفى، بأن فصل التوأمين يعادل إطفاء جهاز الإبقاء على الحياة الموصول بماثيو، الذي هو مارك. كانت الجراحة عدوانية للغاية، انتهاكًا واضحًا لحرمة جسد ماثيو، لاعتباره أعراض انسحاب علاج. وجدتْ حجتها بدلًا من ذلك في "مذهب الضرورة"، مذهب أساسي في القانون العام يسمح في ظروف معينة ومحددة، لم يُعْنَ برلمان واحد بتعريفها، بخرق القانون الجنائي بغرض درء ضرر أكبر. عادت إلى قضية اختَطف فيها عدد من الرجال طائرة إلى لندن، وأرهبوا ركّابها، لكن المحكمة برّأتهم من ارتكاب أي جرم لأن غرضهم كان تجنّب

الاضطهاد الذي يتعرضون له في بلدهم.

بخصوص مسألة النية التي تهم الجميع، فالغرض من الجراحة ليس قتل ماثيو بل إنقاذ مارك. وماثيو، بكل ضعفه، كان يقتل مارك، وعلينا أن نسمح للأطباء بالدفاع عن مارك والقضاء على ما يهدد حياته. قد يهلك ماثيو بعد الفصل ليس لأنه قتل عمدًا، بل لعجزه هو نفسه عن النمو.

وافقتْ محكمة الاستئناف، ورُفِض استئناف الأبوين، وبعد يومين، في الساعة السابعة صباحًا دخل التوأمان غرفة العمليات.

بحثَ أصدقاؤها الذين تكنّ لهم تقديرًا خاصًا عنها ليصافحوها، أو كتبوا خطابات من النوع الذي يجب الاحتفاظ به في ملف خاص. كان حكمها أنيقا وصائبا، كان وجهة النظر الداخلية. نجحتْ جراحات إعادة تأهيل مارك، تلاشى الاهتمام العام وواصل تقدمه. لكنها لم تكن سعيدة، لم يسعها ترك القضية. كانت تستيقظ ليلا لساعات طويلة، تقلِّب التفاصيل، تعيد صياغة فقرات معينة من حكمها، تنحو منحى آخر. أو تفكر طويلًا في موضوعات مألوفة، منها حرمانها هي من الأطفال. في الوقت نفسه، بدأت تصلها أفكار المتدينين المسمومة في أظرف صغيرة بألوان فاتحة. إنهم مع الرّأي القائل بترك الطفلين ليموتا ولم يسرّهم حكمها. استخدم بعضهم لغة مسيئة وقال بعضهم إنهم يريدون إيذاءها بدنيًّا. وزعم قليل منهم أنهم يعرفون أين تسكن.

تركتْ تلك الأسابيع المجهِدة أثرها عليها، وكان بالكاد قد بدأ يزول. ما الذي ضايقها بالتحديد؟ سؤال زوجها هو سؤالها، وهو ينتظر إجابة الآن. تلقّت قبل الجلسة مذكرة من رئيس قساوسة

الرومان الكاثوليكيّين في ويستمنستر. فأشارت في حُكمها، في فقرة لا بأس بها، إلى تفضيل رئيس القساوسة موت مارك وماثيو على التدخل في مشيئة الرب. إن تفضيل رجال الكنيسة طمس بذرة حياة ذات معنى التزاما بنظرية دينية أمر لم يُدهشها ولم يعنِها. لدى القانون نفسه مشاكل مشابهة حين يسمح للأطباء بخنق أو تعطيش أو تجويع مرضى بحالات ميؤوس منها حتى الموت، لكنه لا يسمح بالراحة الفورية لحقنة مميتة.

كانت في الليالي تعود بذهنها لصورة التوأمين وعشرات الصور الأخرى التي درستها، وللمعلومات التقنية التفصيلية التي سمعتها من الاستشاريين الطبيين حول كل ما هو خطأ في الرضيعين، وكل ما عليهم فعله من قطع وكسر، وتشريط وطيّ في لحم الرضيع لمنح مارك حياة طبيعية، إعادة تركيب الأعضاء الداخلية، تعديل وضع ساقيه وأعضاءه التناسلية وقولونه بزاوية تسعين درجة. في ظلمة غرفة النوم، وجاك بجانبها يُشخِّر بهدوء، بدا كأنها تختلس النظر من أعلى حافة هاوية. رأتْ في صور مارك وماثيو في ذاكرتها عدمًا أعمى وجُزافيًّا. بويضة مجهرية فشلت في الانقسام في الوقت المحدد بسبب فشل في موضع ما من سلسلة أحداث كيميائية، إزعاج ضئيل في شلال ردود الأفعال البروتينية، حادثة جزيئية تنتفخ كعالم ينفجر بالخارج إلى نطاق أوسع من البؤس الإنساني. لا قسوة، لا ضغينة، لا أشباح تتحرك بطرق غامضة، مجرد خطأ مطبعي جيني، خطأ في وصفة إنزيم، انفصال في رابطة كيميائية. عملية من الخسارة الطبيعية لا مبالية بقدر ما هي لا منطقية. لا ينجو منها سوى حيوات صحية وطبيعية تمامًا، بشكل عرضي بالقدر نفسه، وبلا غرض

بالقدر نفسه. حظ أعمى أن تصل العالم بأعضائك مكونة جيدًا وفي موضعها الصحيح، أن تولد لأبوين محبين وليسا قاسيين، أو أن تنجو، بصدفة جغرافية أو اجتماعية، من الحرب أو الفقر، فيسهل جدا عليك أن تكون متدينا.

لفترة، تركتها القضية خاملة، تبالي أقل، تشعر أقل، تقوم بما عليها، ولا تخبر أحدا بشيء. باتت شديدة الحساسية بشأن الجسد، بالكاد يمكنها النظر إلى جسدها أو جسد جاك دون أن تشعر بالنفور.

كيف كانت ستتحدث عن كل هذا؟ ليس منطقيا، أن تخبره أنها في تلك المرحلة من مسارها القانوني، يمكن لقضية مثل هذه من بين قضايا أخرى كثيرة، بكل بؤسها، وتفاصيلها المعوية والاهتمام العام بها، أن تؤثر عليها بحميمية هكذا. لفترة، أصبح جزء منها باردا، بذهاب المسكين ماثيو. إنها هي مَن طردتْ طفلًا من العالم، طالبته بالخروج من الوجود في أربع وثلاثين صفحة أنيقة. بصرف النظر عن كونه، برأسه المتورم وقلبه الضعيف، محكوما عليه بالموت. لم تكن بأقل جنونا من رئيس القساوسة، فصارت تعتبر الانكماش في دواخلها ضريبة. مر هذا الشعور، لكنه ترك ندبا في الذاكرة، حتى بعد سبعة أسابيع ويوم.

ألّا تمتلكْ جسدا، أن تُحلِّق بلا قيود فيزيقية، هذا هو ما تريده.

***

أعادها صوت وضع جاك كأسه على زجاج الطاولة إلى الغرفة وإلى سؤاله. كان ينظر إليها بثبات. حتى وإن كانت تعرف كيف تؤطر اعترافا، لم تكن في مزاج لهذا. أو لأي عرض لضعف. لديها عمل،

مراجعة خاتمة حكمها، والملّكان ينتظران. حالتها هي ليست القضية. المشكلة في الاختيار الذي على زوجها مواجهته، وفي الضغط الذي يمارسه الآن. ثار حنقها فجأة مجددًا.

"لآخر مرّة جاك. هل تقابلها؟ سأعتبر صمتك موافقة."

لكنه ثار هو الآخر، نهض من مقعده، سار بعيدا عنها إلى البيانو، حيث وقف ووضع إحدى يديه على الغطاء المرفوع، يستجمع صبره قبل أن يعود. في تلك اللحظة امتد الصمت بينهما. انحسر صوت المطر، وهدأت أشجار البلوط في ممرات السير.

"ظننتُ أنني كنت واضحًا. أنا أحاول أن أكون صريحا معكِ. رأيتها مرة على الغداء. لم يحدث شيء. أردت أن أتحدث معكِ أولًا، أردت..."

"حسنا ها قد حظيت بالإجابة، وكانت لديك، ماذا الآن؟"

"الآن أخبريني ماذا حدث لكِ؟"

"متى كان هذا الغداء؟ أين؟"

"الأسبوع الماضي، في العمل. لا شيء حقًا".

"نوع اللا شيء الذي يؤدي إلى علاقة؟"

ظل في الطرف البعيد من الغرفة. "ها نحن ذا" قال بنبرة فاترة. رجل عاقل يكظم غيظه. مُبهرة، الأداءات المسرحية التي يظن أن بإمكانه النجاة بها. خلال الوقت الذي قضته في الجولات القضائية المحلية، وقف أمامها أصحاب سوابق متقدمون في السن وجُهلاء، بعضهم بأسنان قليلة للغاية، يؤدون على نحو أفضل منه، التفكير بصوت عال على خشبة المسرح.

"ها نحن ذا" كرر قوله، "وأنا آسف".

"أتدرك ما الذي ستدمره؟"

"يمكنني قول الشيء نفسه. ثمة شيء ما يحدث وأنتِ لا تتحدثين معي بشأنه".

دعيه يذهب، صوت، صوتها هي، يقول في أفكارها. وعلى الفور قبض عليها الخوف القديم نفسه. لم تستطع، لم تكن تنوي قضاء بقية حياتها وحدها. لديها صديقتان قديمتان في سنها، تطلّقتا من زوجيهما منذ وقت طويل، وما زالتا تكرهان دخول غرفة مزدحمة دون صُحبة.. وبعيدا عن الأبهة الاجتماعية كان الحب الذي تعرف

أنها تكنه له. لم تعد تشعر به الآن.

"مشكلتُك"، قال من الطرف البعيد للغرفة، "أنك لا تظنين أبدًا أن عليك تبرير نفسك، لقد ابتعدتِ عني. لا بد أنه قد خطر لكِ أنني لاحظت وأنني لا أُمانع. أعتقد أن الأمر قد يكون محتملًا قليلًا لو

كنت أعرف أنه لن يستمر إلى الأبد أو لو كنت أعرف سببه. لذلك..."

كان حينها مقبلًا نحوها، لكنها لم تعرف تتمة عبارته قط، ولم يشكل حنقها المتصاعد ردًا عليه، لأن جرس الهاتف رن في تلك اللحظة، فرفعت السماعة تلقائيا. كانت في الخدمة، وبالطبع، كان المتصل كاتبها، نايجل باولينج، كان صوته مترددا كعادته دائمًا، على حافة اللعثمة، لكنه نشيط دائما، وبعيد على نحو سار.

"آسف لإزعاجك في وقت متأخر هكذا سيدتي".

"لا بأس، أخبرني".

"تلقينا مكالمة من الهيئة الممثلة لمستشفى إديث كافيل واندسوُرث،

يريدون إذنًا عاجلًا لعلاج مريض سرطان بالإكراه، يرفض هو وأبواه نقل الدم. وتودّ المستشفى.."

"لماذا يرفضون؟"

"شهود يهوه[5] سيدتي".

"صحيح".

"تطلب المستشفى إذن المحكمة بمواصلة العلاج رغم اعتراض الأبوين".

نظرتْ في ساعة يدها. العاشرة والنصف تمامًا.

"كم أمامنا من الوقت؟"

"بعد الأربعاء ستكون الحالة خطِرة، حسبما يقولون. خطِرة للغاية".

نظرتْ حولها. غادر جاك الغرفة بالفعل. قالتْ: "أدرِجها للاستماع العاجل في الثانية ظهرا يوم الثلاثاء. وبلِّغ أصحاب الدعوى بشكل عاجل. واجعل المستشفى تُبلّغ الأبوين. سيكون لهما حرية المثول. عيّن وصيًّا للولد يكون له حق التمثيل القانوني. وعلى المستشفى تقديم مذكرتها بحلول الرابعة مساء الغد، وعلى أخصائي الأورام المعالج تقديم شهادته".

للحظة خلا ذهنها تمامًا. تنحنحتْ وأردفتْ "سأودّ أن أعرف ضرورة نقل الدم. وعلى الأبوين بذل قُصارى جهدهما لتقديم شهادتهما بحلول الظهيرة يوم الثلاثاء.

"على الفور".

---

5 طائفة مسيحية لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى نشأت في سبعينات القرن التاسع عشر في أمريكا واتخذت لقبها شهود يهوه رسميا عام 1930، يقدر عددهم بحوالي 9 مليون نسمة في 240 بلدًا.

ذهبتْ إلى النافذة وشخصتْ ببصرها عبر الميدان، كانت تكوينات الأشجار تتحول إلى الأسود المصمت في أواخر غسق يونيو البطيء، مع ذلك لم تكن عواميد النور في الشارع تنير بضوئها الأصفر سوى دوائر صغيرة أسفلها على الرصيف. هدأتْ حركة مرور مساء الأحد الآن وبالكاد يصل إلى مسامعها صوت من طريق جراي أو هاي هولبورن. فقط نقر قطرات مطر رفيعة للغاية على أوراق الشجر، وخرير ماء رائق خافت من مزراب قريبة. راقبَت قِطّ الجيران بالأسفل يختار مسارا متعرجا حول بركة ماء ويختفي في الظلام تحت شجيرة. لم يضايقها انسحاب جاك. كان تبادلهما الأدوار يتجه نحو صراحة مؤلمة. لا نكران للراحة في كونك على الأرض المحايدة، الأرض الخالية من الأشجار، من مشاكل الآخرين. الدين مجددا. لديه جوائزه. الولد في الثامنة عشرة من عمره تقريبًا، السن القانوني للاستقلال الذاتي، ستكون لرغباته أهمية محورية.

ربما كان انحرافًا أن اكتشفت في هذه المقاطعة المفاجئة وعدا بالحرية. في الجانب الآخر من المدينة ثمة ولد يواجه الموت من أجل معتقداته أو معتقدات والديه. ليس من شأنها ولا مهمتها إنقاذه، بل تقرير ما يُمليه العقل والقانون. تودُّ لو ترى هذا الولد بنفسها، أن تنزع نفسها من مستنقع المنزل، وقاعة المحكمة، لساعة أو اثنتين، تقوم برحلة، تُغرق نفسها في التعقيدات، أن تصمم حكمها بناءً على ملاحظاتها الخاصة. قد تكون قناعة الأبوين توكيدا لقناعة ابنهما أو حكما بالإعدام لا يمكن الطعن فيه. في هذه الأيام، أمر غير معتاد أبدًا، أن تبحث بنفسك عن الحقيقة. في الثمانينات كان بإمكان القاضي إعفاء الفتى أو الفتاة من الوقوف أمام المحكمة ورؤيتهم في

الردهات أو غرف المستشفى أو في البيت. كان ذلك آنذاك نموذجا نبيلا نجا بطريقة أو بأخرى وظل باقيا في العصر الحديث، منبعجًا وصدئًا كدِرع واقٍ. لطالما وقف القضاة في وجه الحكّام وظلوا لقرون حُماة أطفال الأمة. الآن، يقوم العاملون الاجتماعيون في الكافكاس بالعمل ويكتبون التقارير. النظام القديم، بطيء وغير فعّال، بدون اللمسة الإنسانية. الآن، التعطيل أقل، المزيد من المربعات للتعليم عليها، المزيد من المعلومات الموثوق بها. حياة الأطفال محفوظة في ذاكرات الحواسيب، بدقة، لكن على الأرجح بعطفٍ أقل.

زيارة الولد في المستشفى نزوة عاطفية. طردت الفكرة من ذهنها وهي تبتعد عن النافذة لتعود إلى كرسيّ الشيزلونج. جلست بتنهيدة تسليم وأخذت حُكمها في قضية الفتاتين اليهوديتين من مدرسة ستامفورد الثانوية، وسعادتهما المتنازع عليها. صفحاته الأخيرة، الخاتمة، بين يديها مجددا. لكنها للحظة لم تستطع جبر نفسها على النظر إلى كِتابتها. لم تكن تلك أول مرة يمنعها سخف وعدمية تورطها في قضية ما مؤقتًا من التركيز. الأبوان يختاران مدرسة لأطفالهما – مسألة خاصة وبريئة ومهمة ومملة حوّلها مزيج مميت من الانقسام المرير والكثير من المال إلى مهمة مكتبية وحشية، وصناديق ملفات وثائق قانونية عديدة وثقيلة حدّ أن تُجرّ إلى قاعة المحكمة بعربة يد، وساعات من التحارب المتحضر، وجلسات الاستماع، والقرارات مؤجلة، السيرك بكامله ينتصب، ببطء شديد، في الهرم القضائي كبالون مائل مليء بالهواء الساخن ومربوط بدون إحكام. إن لم يستطع الأبوان الاتفاق، فعلى القانون اتخاذ القرارات، على مضض. تترأس فيونا الأمر بكل جدية ومرونة عالم نووي. تترأس ما بدأ بالحب

وانتهى بالخصومة. الأمر كله يجب تسليمه إلى أخصائي اجتماعي قد يستغرق نصف ساعة للوصول إلى قرار معقول.

رأي فيونا لصالح جوديث، المرأة المتململة ذات الشعر الزنجبيلي التي، حسبما أخبرها كاتبها، كانت تندفع، في كل استراحة، على الأرضية الرخامية المصقولة عبر الأقواس الحجرية لمحكمة العدل، إلى الخارج، إلى الاستراند[6]، لتدخّن سيجارة. تستمر الطفلتان في حضور المدرسة المختلطة التي اختارتها لهما أمهما. ستبقيان فيها حتى تُتمّان الثامنة عشرة من عُمريهما ثم تستكملان التعليم بعدها إن أرادتا. أعرب الحكم عن احترامه لطائفة الحريدم، واستمرارية تقاليدها وعباداتها الموقّرة، مضيفًا إنه ليس للمحكمة رأي محدد في عقيدة الطائفة باستثناء الاحترام لورَعِها الواضح. مع ذلك، فقد ساهم الشهود الذين من تلك الطائفة، والذين استدعاهم الأب، في رفض دعواه. إذ قال أحد الشخصيات المحترمة منهم، وبفخر ربما، إن المفترض بنساء الحريدم تكريس أنفسهن لصنع "بيت آمن" وإن التعليم بعد سن السادسة عشرة لا داعي له. وقال آخر إنه من غير المألوف، حتى للفتيان، أن يعملوا بأي مهنة. وأكد ثالث بشدة على رأيه بضرورة الفصل بين الفتيان والفتيات في المدرسة حفاظا على طهارتهم. كل هذا، كتبت فيونا، بعيد تمامًا عن الاتجاه السائد للممارسات الأبويّة ووجهة النظر العامة بضرورة تشجيع الأطفال على تحقيق طموحاتهم. والتي يجب أن تكون وجهة نظر الأب العقلاني أيضًا. أخذتْ أيضًا رأي الأخصائية الاجتماعية في أن الفتاتين، إن عادتا إلى مدينة الأب المغلقة، ستنقطع صلتهما تمامًا بالأم. والأرجح

6 شارع رئيسي في وسط لندن.

أن العكس ليس صحيحًا.

قبل هذا وذاك. فواجب المحكمة هو تمكين الطفلتين من بلوغ سن الرشد وهما قادرتان على اتخاذ قرارهما بنفسيهما بخصوص نوع الحياة التي تريدان عيشها. للفتاتين أن تميلا إلى أيٍ من نسختي الدين سواء الخاصة بالأب أو بالأم، أو أن تصلا للتصالح مع الحياة في مكان ما آخر. بعد الثامنة عشرة، ستكونان بعيدا عن متناول الوالدين والمحكمة.

في النهاية، أنّبت فيونا الأب قليلًا إذ لاحظت استعانته في القضية بمشورة ومساعدة قانونية نسائية، واستفادته من خبرة الأخصائية الاجتماعية التي عيّنتها المحكمة، سيدة الكافكاس الذكية المبلبلة. ومن الواضح رضوخه لقرار قاضية امرأة. ينبغي عليه إذن أن يسأل نفسه لماذا يحرم طفلتيه من فرصة ممارسة مهنة.

انتهى الأمر. ستتم طباعة التصحيحات في مسودتها النهائية غدا صباحا. نهضتْ وتمطّتْ، ثم حملتْ كأسي الويسكي وذهبت إلى المطبخ لغسلهما. كان الماء الساخن المتدفق على يديها مريحًا وأبقاها عند الحوض لدقيقة فارغة أو نحو هذا. لكنها كانت تُصيخ السمع لأي صوت من جاك أيضًا. ستعرف من أصوات الحمام القديم إن كان سيأوي إلى الفراش أم لا. عادت إلى غرفة الجلوس لتطفئ الأنوار وتجد نفسها غارقة مجددا في موقعها عند النافذة.

في الأسفل في الميدان، ليس بعيدا عن بركة الماء التي مرّ من حولها القط، كان زوجها يجر حقيبة ملابس، وعلى كتفه حقيبة أوراقه التي يستخدمها في العمل مثبَّتة بحزام. وصل إلى سيارته، سيارتهما، فتحها، وضع حقيبتيه في المقعد الخلفي ثم ركب، وأدار المحرك. فيما

أضاء الكشافان الأماميان واعتدلت العجلتان الأماميتان في وضع القفل الكامل ليُمكنه الخروج من مساحة الاصطفاف الضيقة، سمعت صوت راديو السيارة من بعيد. موسيقى شعبية، لكنه يكره الموسيقى الشعبية.

لا بدّ أنه قد حزَم حقيبته في وقت مبكر من المساء، قبل محادثتهما بفترة. أو ربما في منتصفها، حين انسحب إلى غرفة النوم. لم تشعر باضطراب أو غضب أو حزن، بل بالتعب فقط. فكّرتْ بِعملية، إن أمكنها النوم الآن ستتجنب تناول حبّة منوم. عادت إلى المطبخ وهي تخبر نفسها أنها لا تبحث عن رسالة على الطاولة الخشبية حيث يترك أحدهما الرسائل للآخر عادةً. لم يكن هناك شيء. أوصدتْ باب الشقة وأطفأت ضوء الرواق. بدت غرفة النوم هادئة. فتحت دولابه وحسَبتْ بعين الزوجة أنه أخذ ثلاث سترات، أحدثها من الكتان الكريمي من جيفز آند هاوكس. في الحمام منعت نفسها من فتح خزانته لتقدير محتويات حقيبة استحمامه. يكفيها ما تعرفه. في الفراش، كانت فكرتها المنطقية الوحيدة أنه لا بد قد حرص أشدّ الحرص على ألا تسمعه وهو يسير في الرواق ويُغلق باب الشقة ببطءٍ مُخادِع.

حتى هذه الفكرة لم تمنع سقوطها في النوم. لكنه كان نومًا بلا سلامة، إذ وجدت نفسها خلال ساعة مُحاطة بهيئات اتهاميّة. أم كانوا يطلبون منها المساعدة. وجوه تندمج وتنفصل. التوأمان الرضيعان، ماثيو، برأسه المنتفخة بلا أذنين وقلب لا يضخ، يحدّق ببساطة، كما ظلّت تحدّق طوال ليال أُخَر. الشقيقتان، راشيل ونورا، تناديان عليها بنحيب، تعدّدان عيوبًا قد تكون عيوبها أو عيوبهما. جاك بالقرب

منها، يستند بجبينه المتغضّن حديثًا على كتفها، يشرح لها بصوتٍ باكٍ أن واجبها توسيع خياراته في المستقبل.

حين رن جرس منبهها في السادسة والنصف نهضتْ تجلس فجأة، وللحظة ظلت تحدق بلا فَهْم في الجانب الخالي من الفراش. ثم ذهبت إلى الحمام وبدأت الاستعداد لقضاء اليوم في المحكمة.

اثنان

انطلقت في مسارها المعتاد من ميدان جراي إلى محاكم العدل الملكية، وبذلت قصارى جهدها لئلا تفكّر. تحمل بإحدى يديها حقيبة أوراقها وبالأخرى مظلة ترفعها عاليا. الضوء أخضر غامق وهواء المدينة بارد على خديها. خرجتْ من البوابة الرئيسية، تجنبت المحادثة القصيرة بإيماءة سريعة لجون، حارس البوابة الودود. تأمل ألا يبدو عليها بوضوح أنها امرأة في أزمة. صرفتْ ذهنها عن التفكير في موقفها بدندنة مقطوعة موسيقية تحفظها عن ظهر قلب. كانت تسمع نفسها العليا فوق ضجة ساعة الذروة، عازفة البيانو التي لن

تكونها أبدًا، تعزف مقطوعة باخ الثانية بلا خطأ واحد.

ظل المطر يسقط طوال أيام الصيف، بدت أشجار المدينة واجمة، بجذوعها الضخمة على الأرصفة النظيفة الناعمة، السيارت على طريق هاي هولبورن نظيفة. آخر مرة رأتْ فيها نهر التيمز كان المدّ عاليًا أيضًا ولونه البني أقتم، يلطم دعامات الجسر بغضب وثورة، مستعدًّا لأخذ قضيته إلى الشارع. لكن الجميع يتدافعون، يشْكون، صارمون، مبللون. انكسر التيار المتدفق[7]،

7 أحد تيارات نظام الرياح في الغلاف الجوي للأرض، عبارة عن تدفق سريع وضيق للهواء بشكل أفقي تقريبا من الغرب إلى الشرق.

انعطف جنوبًا لعوامل خارج نطاق السيطرة، فحجب بلسم الصيف عن جزر الأزور، وامتص هواء باردًا من الشمال. عواقب التغيير المناخي من صُنع الإنسان، ذوبان جليد البحر الذي يزعج الهواء العلوي، أو النشاط غير المنتظم لبقعة شمسية، أو تعدد طبيعي، إيقاعات قديمة، حمولة الكوكب كله. أو الثلاثة معا أو أي اثنين. ما جدوى التفسير والتنظير في الصباح الباكر، فيونا وبقية لندن لديهم عمل ليباشروه.

اشتدت غزارة المطر وهي تعبر الشارع إلى جادة دار المحفوظات، بميلٍ قليل بسبب رياح باردة مفاجئة. زادت العتمة الآن، تنهمر قطرات الماء المثلجة عند قدميها، يُسرع المارة بصمت واستغراق في الذات. تدفقت السيارات على طريق هاي هولبورن تمرُّ بها، عالية وجريئة بقوة، أضواء الكشافات الأمامية تلمع على الأسفلت وهي تسمع الافتتاحية الكبرى، التأنّي على الطراز الإيطالي، وعد بعيد بموسيقى الجاز بنغماتها البطيئة المكثفة.. لكن لا مفر، قادتها المقطوعة فورا إلى جاك، كانت قد تعلمت عزفها كهدية عيد ميلاد له في أبريل الماضي.. الغسق في الميدان، كلاهما عاد لتوه من العمل، مصابيح الطاولات مضاءة، كأس شمبانيا في يده، كأسها على البيانو وهي تعزف ما ظلت تحفظه في ذاكرتها خلال الأسابيع الماضية. ثم تعبيراته عن امتنانه وسروره وذهوله المبالغ فيه عطفًا على عملها البطولي في الحفظ، قُبلتهما الطويلة في النهاية، وتمتمتها بعيد ميلاد سعيد، عيناه الرطبتان، صلصلة كأسَي الشمبانيا البلّوْريّين.

ها قد بدأ محرك الرثاء للذات يدور وتذكرت رغما عنها عدة حفلات أقامتها له. كانت القائمة طويلة على نحو يضر بالصحة

– حفلات أوبرا مفاجئة، رحلات إلى باريس ودوبروفنك بفيينا، وتريستي وكيث جاريت في روما (يتلقى التعليمات دون أن يعرف أي شيء بتجهيز حقيبة وجواز سفره ومقابلتها في المطار بعد العمل مباشرة)، حذاء راعي بقر برقبة عالية، بطحة هيبية بنقش ما عليها، وتقديرا لشغفه الحديث بالجيولوجيا أهدته مطرقة مستكشف من القرن التاسع عشر في حقيبة جلدية. ولمباركة بلوغه سن الرشد الثاني في الخمسين أهدته ترومبيت كانت تخص جاي باركر[8]. تُمثّل الهدايا لمحة واحدة فقط من السعادة التي تطالبه بها، وكان الجنس جزءا واحدا فقط من تلك اللمحة، ومنذ عهد قريب فقط خيبة، بالغ في اعتبارها ظلما جسيما.

الأسف والتفاصيل العديدة للتظلم، بينما يرقد غضبها الحقيقي أمامها. امرأة مهجورة تبلغ من العمر تسعًا وخمسين سنة، على أعتاب الشيخوخة، لتوّها تتعلم الحبو. أعادت نفسها إلى مقطوعتها الموسيقية وهي تنعطف في جادة دار المحفوظات إلى الممر الضيق المؤدي إلى ميدان جمعية لينكولن وعَظَمة معماره الغامضة. فوق ضجة سقوط زخات المطر على مظلتها سمعت النغمات البطيئة النّشِطة الطروب، إيقاع سَيْر، ميزة نادرة في مقطوعات باخ الموسيقيّة، هواء هانئ جميل أعلى جَهير طوّاف، خطواتها نفسها تنجرف مع اللحن الفوق أرضي الخفيف وهي تمرّ بالقاعة الكُبرى. ترتبط النغمات بمعنىً إنسانيّ ما واضح، لكنها لا تعني شيئًا البتة. مجرّد التحابب، الصفاء، أو الحب في أضخم صوره وأكثرها غموضا، للبشر جميعًا، بلا تمييز. للأطفال ربما. أنجب يوهان سيباستيان

8 عازف ترومبيت وموسيقى جاز إنجليزي مواليد 1957 وحاصل على وسام الشرف من الإمبراطورية البريطانية.

عشرين طفلا من زواجين. لم يدع عمله يوقفه عن الحب والتدريس، والاهتمام بالناجين، الأطفال، وتأليف الموسيقى لهم. عاد بها التفكير الذي لا مفر منه، من هروبها الشّارد الإرادي الذي برعت فيه، إلى حبها لزوجها، وعزفتْ بكيانها كله بدون تردد، ودون خطأ واحد في فصل الأصوات.

نعم، كان حرمانها من الأطفال هروبًا شاردًا في حد ذاته، رحلة – هذا هو الموضوع المكرر الذي تحاول مقاومته الآن – بعيدا عن المصير المعتاد. فشلها في أن تصبح امرأة، حسب فهم أمها للكلمة. أما كيف وصلت إلى مصيرها الحالي فهذا لحن إضافي بطيء ظلت تعزفه مع جاك على مدار عقدين، قد يتخلله تنافر ثم يختفي، وقد ظلت تعيد عزفه دائمًا في لحظات الحذر، والرعب حتى، فيما كانت سنون الخصوبة تمر ذاهبة إلى غير رجعة، وهي مشغولة جدا عن مُلاحظة ذلك.

قصّة من الأفضل حكيها سريعا، بعد التخرج، امتحانات النقابة، فترة التمرين، دعوات محظوظة إلى قاعات رفيعة المستوى، بعض النجاح المبكر في الدفاع عن حالات ميؤوس منها – بدا لها منطقيا للغاية أن تؤجل إنجاب طفل حتى بداية الثلاثينات. وحين أتت الثلاثين جاءت بقضايا معقدة جديرة بالاهتمام، ومزيد من النجاح. تردد جاك أيضًا، اقترح التأجيل لعام او اثنين آخرين. منتصف الثلاثينات إذن، حين كان يُدرِّس في بيتسبورغ وكانت هي تعمل أربع عشرة ساعة يوميا، تغوص أعمق في قانون الأسرة فيما تتراجع فكرة أسرتها الخاصة، بالرغم من زيارات أبناء وبنات الأخوة. في السنين التالية، بدأت أولى الإشاعات عن احتمال انتخابها مبكرًا

للجلوس على المنصة وترأُّس دائرة. لكن المكالمة لم تأتِها، ليس بعد. وفي أربعيناتها القلق بشأن الحمل في سن كبيرة والتوحُّد. بعد ذلك بوقت قصير ذكّرها شباب الزوار لشقة جراي وضجة إلحاح الحَفَدة الصغار من أبناء الأخوة والأخوات بصعوبة حشر طفل في حياة مثل حياتها. ثم أفكار حزينة حول التبنّي، بعض الاستفسارات المبدئية – وبمرور السنوات التالية سريعًا، مِحَنْ شك عابرة، قرارات حازمة في وقت متأخر من الليل بخصوص الإنجاب بأُمٍّ بديلة، تزول في الصباح الباكر في طريقها إلى العمل. وحين حدث أخيرا، ذات صباح وهي في التاسعة والثلاثين، في محاكم العدل الملكية، أن حلّفها اللورد رئيس القضاة، وأدّت اليمين بالإخلاص وقسمها القضائي أمام مائتين من زملاءها في العمل يرتدون الشعر الأبيض المستعار، ووقفت بفخر أمامهم في روبها، تلقي خطبة لماحة، كانت تعرف أن اللعبة قد بدأت، كانت تنتمي للقانون كما تُعد بعض النساء عرائس للمسيح.

عبرتْ ميدان نيو واقتربت من مكتبة ويلديز. تلاشت الموسيقى من رأسها، جاء الآن موضوع قديم آخر: لوم الذات. إنها أنانية، مدللة، طموحة بشراسة. تسعى نحو غاياتها الشخصية، تدّعي أمام نفسها أن مسارها المهني ليس في حد ذاته سبب رضاها الذاتي، تحرم فردين أو ثلاثة أفراد طيبين وموهوبين من الحق في الوجود. لو كان أطفالها قد عاشوا لصارت فكرة أنهم لم يعيشوا صادمة. وهذه هي عقوبتها، أن تواجه تلك الكارثة وحدها، بدون أطفال كبار عاقلين، يهتمون ويتصلون، يتوقفون عن ما يفعلونه ويهرعون ليلتفوا حول مائدة المطبخ لاجتماع طارئ، ويتحدثون مع أبيهم الأحمق ليعود إلى صوابه، ويعيدونه. لكن هل ستقبل عودته؟ سيكون عليهم التحدث

معها هي الأخرى لإعادتها إلى صوابها. الابنان الموجودان تقريبا، ابنة لها صوت أبح، قيّمة متحف ربما، والابن الموهوب الأكثر قلقا، بارع للغاية في أشياء عديدة لكنه فشل في استكمال تعليمه الجامعي، وعازف بيانو أفضل منها بكثير. كلاهما عطوف دائما، ومبهج في أعياد الميلاد والعطلات الصيفية في القلاع، ومُسَلٍّ لأقاربهم الأصغر.

سارت مُتجاوزة مكتبة وايلديز، لا تغريها الكتب القانونية في نافذة العرض، عبرت شارع كاري ودخلت من المدخل الخلفي لمحاكم العدل. هبطت سلما مقببًا، ثم آخر، صعدت عدة درجات، مرت بقاعات محاكم، هبطت مجددا، عبرت باحة خلفية، وتوقفت أسفل سلم لتنفض مظلتها. دائما ما يذكرها الهواء بالمدرسة، رائحة وملمس الحجر الرطب البارد ورعشة خوف وقلق واهنة. تفضل صعود السلم على ركوب المصعد، خطوات ثقيلة على السجادة الحمراء وتنعطف يمينا نحو المرسى الفسيح الذي تُفضي إليه أبواب الكثير من قضاة المحكمة العليا الآخرين – كرزنامة قيام المسيح كما تفكر أحيانًا. في كل غرفة واسعة ومليئة بالكتب، يفقد زملاءها في العمل أنفسهم يوميا في قضاياهم ومحاكمهم في تيه من التفاصيل والمعارضات لا يحمي منه جزئيًا سوى أسلوب معين جدا في الدعابة والسخرية. طوّر أغلب القضاة الذين تعرفهم حس دعابة فصيح، لكن هذا الصباح لم يوجد أحد ليسليها ويرفّه عنها. ربما كانت أول من وصل. لا شيء كعاصفة منزلية ليلقي بِك بعيدا عن فراشك.

توقفتْ عند عتبة باب غرفتها. نايجل باولينج، صائب ومتردد، يقف منهمكا عند مكتبها، يضع وثائق. يلي ذلك، كالعادة دائمًا أيام الإثنين، طقس تبادل الاستفسارات عن عطلة أحدهما الآخر. عطلتها

كانت "هادئة"، ناولته وهي تردد الكلمة مُسوّدة حُكمها المصححة في قضية بيرنشتاين.

العمل اليومي. قضية المغربي، المقررة في العاشرة صباحا، ثبت أن الفتاة الصغيرة قد انتقلت إلى اختصاص الرباط بواسطة الأب، بالرغم من وعوده للمحكمة، ولا خبر عن محل إقامتها، لا من الأب، ولا محاميه. الأم تتلقى تأهيلًا نفسيا، لكنها ستكون في المحكمة. كانت النية عرض القضية على محكمة العدل الدولية، والمغرب، لحسن الحظ، هي الدولة الإسلامية الوحيدة الطرف فيها. قال باولينج كل هذا بعجلة اعتذارية وهو يمرر يده في شعره بعصبية كما لو كان شقيق المختطِف. تلك المرأة الشاحبة المسكينة، مدرسة الجامعة النحيفة، ترتعش وهي تجلس في المحكمة، متخصصة في ملاحم مملكة بوتان، تكرّس نفسها لطفلتها الوحيدة فقط. والأب كذلك بأسلوبه الملتوي، ينجو بابنته من شرور الغرب الخائن. الأوراق في انتظارها على المكتب.

كان باقي عمل اليوم واضحًا بالفعل في ذهنها. سألت وهي تتجه نحو مكتبها عن قضية شهود يهوه. سيتقدم الأبوان بطلب عاجل لمساعدة قانونية وستصدر لهما الموافقة في الظهيرة. يعاني الولد، كما أخبرها الكاتب، من نوع نادر من سرطان الدم.

"لنمْنحه اسمًا"، قالت بقسوة وأدهشتْها نبرتها.

حين يقع باولينج تحت ضغط منها، يصبح أكثر سلاسة، مع لمحة سخرية حتى. يمنحها الآن معلومات تزيد عن حاجتها.

"بالطبع سيّدتي. آدم، هنري آدم، طفل وحيد. الأبوان كيفن وناعومي. السيّد هنري يدير شركة صغيرة للإنشاءات، صَبُّ أساس،

تجفيفُ أراضٍ، أشياء من هذا القبيل، الواضح أنّه خبير في آلات الحفر".

بعد عشرين دقيقة من الجلوس إلى مكتبها عادت عبر المرسى والرواق إلى تجويف في الجدار يأوي ماكينة القهوة، تعلوه صورة زجاجية مضاءة من الداخل لحبوب بُن ضخمة تنسكب من إناء، باللونين البني والكريمي، تضيء في عتمة الرواق كمخطوطة مسلّط عليها الضوء. كابتشينو بجرعة زائدة، اثنتين ربما. الأفضل أن تبدأ احتساءه هنا، حيث يمكنها أن تتخيل دون أن يقاطعها أحد جاك يستيقظ الآن وينهض من فراش غريب ليستعد للذهاب إلى العمل، الهيئة التي تنام بجانبه نصف ناعسة، هانئة في ساعات الصباح الأولى، تتقلب تحت أغطيتها الدبقة، تغمغم باسمه، تدعوه للعودة إلى الفراش. سحبتْ هاتفها بغضب مفاجئ، عثرت على رقم صانع الأقفال الذي يعرفونه في طريق جراي، أعطته كودها السري المكون من أربعة أرقام، ثم تعليمات بتغيير القفل. بالطبع سيدتي، على الفور. عندهم تفاصيل القفل الحالي. سوف يرسل المفاتيح الجديدة إلى الإستراند فقط وليس إلى أي مكان آخر. ثم، وبسرعة، وكوب بلاستيك ساخن في يدها الأخرى، وخشية أن تُغير رأيها، اتصلت بنائب مدير السكن، زميل أجش وحسن والطبع، لتبلّغه أن ينتظر صانع الأقفال. هكذا، إنها سيئة، وتشعر أفضل لكونها سيئة. لا بد من دفع ثمن تركها وحيدة، وها هو ذا، في المنفى، يتوسل العودة إلى حياته السابقة. لن تترك له رفاهية مكانين للإقامة.

في طريق عودتها في الرواق بكوبها، كانت تتعجب بالفعل من تصرفها السخيف لمنع زوجها من حقه الشرعي في دخول بيت

الزوجية، إحدى العبارات المبتذلة في الانفصالات الزوجية، تصرّف قد ينصح محامٍ ناصِحٌ موكّله بتجنّبه – الزوجة في الغالب – بدون أمر من المحكمة. حياة مهنية قائمة على الشجار، النصح ثم الحكم، التعليق بتعالٍ، وسرًّا، على خبث وسخف الأزواج المطلّقين، والآن تهبط بنفسها إليهم، تسبح معهم في التيار الكئيب.

قوطعت تلك الأفكار فجأة وهي تنعطف إلى المرسى الواسع حين رأتْ القاضي شيروود رونسي عند عتبة بابه، ينتظرها، مبتسما، يفرك يديه محاكيا شرير المسرحية ليعلن أن لديه شيئا لها. كان عليما بأحدث الأقاويل في المحاكم، ودقيقا أغلب الوقت، وكان يستمتع بتسريبها. وكان أحد الزملاء القليلين، أو الوحيد ربما، الذي تفضّل تجنبه، وليس لأنه ثقيل، إذ كان رجل ساحرا حقًا، يمنح كل أوقات فراغه لجمعية خيرية أسسها منذ وقت طويل في إثيوبيا، لكنه بالنسبة لها مرتبط بإحراج ما. كان قد نظر منذ أربعة أعوام مضت في جريمة قتل، ما زالت صالحة للتأمل فيها حتى الآن، ومؤلمة للصمت إزاءها، وهو ما يقتضيه الأمر. حدثت في عالم شجاع صغير، قرية، حيث في العادة يتسامح بعضهم مع أخطاء بعض، وحيث قد يعاني أيهم، من حين لآخر، من حكم يتم إبطاله بوقاحة في محكمة الاستئناف، صفعات على وجه القانون. لكن ها هنا أحد أعظم إخفاقات العدالة في العصر الحديث. وشيروود! ساذج على نحو غير معهود أبدًا أمام شاهد متخصص لكنه جاهل رياضيا، ثم، إمعانا في الإنكار والرعب، يُرسل بأم بريئة، ثكلى، بتهمة قتل أطفالها إلى السجن حيث تعرضت لتنمر واعتداء النزيلات هناك، وصوّرتها الصحف الشعبية كشيطانة، ورُفض استئنافها الأول للحكم. وحين أُطلق سراحها في النهاية، ما كان

طبيعيًا، أدمنت الشرب ماتت بسببه.

ما زال المنطق الغريب الذي يدفع بتلك المأساة يمكنه إبقاء فيونا ساهرة ليلا. إن احتمال أن يتوفى الطفل وفاة طبيعية مفاجئة، متلازمة موت الوليد المفاجئ، كما قيل في المحكمة، واحد لكل تسعة آلاف. لذلك، أعلن وكيل النيابة الخبير، فاحتمال وفاة طفلين هو ضعف هذه النسبة. واحد لكل واحد وثمانين مليون. مستحيل تقريبا، وعليه فلا بد أن للأم يدا في الوفاة. كان العالم خارج المحكمة مذهولا. لو كان سبب المرض وراثيًا، فالطفلان يتشاركانه، ولو كان بيئيًا سيتشاركانه أيضًا، ولو كان الاثنين فهما يتشاركانه كذلك. وما هي، بالمقارنة، احتمالات أن تقتل أم من أسرة مستقرة من الطبقة المتوسطة طفليها؟ لكنّ كل منظري وإحصائيّي الاحتمالات وعلماء الأوبئة الغاضبين لم يسعهم التدخل.

في لحظات كشف الوهم الإلزامية، ليست في حاجة سوى لتقديم الخطأ في قضية مارثا لونجمان ورونسي للتأكيد على شعور عابر بأن القانون، برغم حبها له، في أسوأ حالاته، ليس حمارا، بل ثعبانًا، ثعبانًا سامًّا. على نحو لا مفر منه، لفتت القضية انتباه جاك، وكلما راقه الأمر، حين تكون الأمور بينهما ليست على ما يرام، كان يصيح بقرفه من مهنتها وتورُّطها فيها، كأنها هي من أصدرت الحُكم.

لكن من كان بإمكانه الدفاع عن القضاء حين رُفِض استئناف لونجمان الأول؟ كانت القضية فضيحة منذ بدايتها. تكشّف فيما بعد أن أخصائي الأمراض، حجب لأسباب ما أدلة مهمة عن عدوى بكتيرية شرسة في الطفل الثاني. كانت الشرطة والنيابة متلهّفتين على نحو لا منطقي للإدانة، تلطخت مهنة الطب بعار شهادة ممثلها،

والنظام بأكمله، قادت تلك المهن الرثة اللامبالية، امرأة عطوف، مهندسة معمارية ذات شأن، إلى السجن، واليأس والموت. فضّل القانون حين واجه تناقضا في شهادات عدة خبراء طبيين عن أسباب وفاة الطفلين، بغباء، أن يُدين، على الشك وعدم اليقين. رونسي، كما يتفق الجميع، زميل لطيف للغاية، وكما توضح الملفات، قاض جيد ومجتهد. لكنها حين سمعتْ أن كُلًّا من أخصائي الأمراض والطبيب قد عادا إلى العمل، لم تستطع منع نفسها. القضية تقلب معدتها.

كان رونسي يرفع يده لتحيتها ولم يكن أمامها سوى التوقف أمامه والتلطّف.

"عزيزتي".

"صباح الخير شيروود".

"قرأتُ محاورة صغيرة رائعة في كتاب ستيفن سيدلي الجديد. ذوقك تمامًا. من محكمة بماساشوستس، محامٍ لَحوح نوعًا ما يسأل الطبيب الشرعي إن كان متأكدا من أن المريض قد توفي تمامًا قبل أن يبدأ تشريحه. فيقول الطبيب إنه متأكد تماما. فيقول المحامي: أوه، لكن كيف يمكنك التأكّد تمامًا؟ فيقول الطبيب لأن مخه كان في مرطبان على مكتبي، فيسأله المحامي: لكن هل يُحتمل أن يكون المريض ما زال حيًا مع ذلك؟ فيجيبه الطبيب نعم محتمل أن يكون ما زال حيًا يمارس المحاماة في مكان ما".

حتى وهو ينفجر بالضحك على أقصوصته ما زال يثبّت عينيه في عينيها ليقيس هل تناسب درجة مرحَها درجته. بذلتْ وسعها. النكات عن القانونيين هي المفضلة عند القانونيين.

أخيرًا، صارت خلف مكتبها بقهوتها الدافئة قليلا الآن، تفكر في

الطفلة التي انتُزعت من اختصاصها القضائي. تظاهرتْ أنها لم تلحظ باولينج في الجانب الآخر من الغرفة وهو يتنحنح ليقول شيئا ما لكنه يفكر قليلا ثم يختفي. عند نقطة ما تختفي همومها الشخصية هي أيضًا فيما تركز انتباهها عنوة على الأوراق المقدّمة إليها، وتبدأ القراءة بسرعة.

وقفتْ قاعة المحكمة انتباها لها في تمام الساعة العاشرة. استمعتْ إلى محامي الأم المكلومة، سيتقدم بطلب لاستعادة الطفلة بموجب اتفاقية لاهاي. حين نهض محامي الزوج المغربي واقفا ليقنع فيونا باللبس في تصرف موكله، قاطعته بحزم قائلة "كنت أتوقع رؤيتك تحمر خجلا نيابة عن موكلك السيّد سوميز".

كانت مناقشة تقنية، منهِكة. ظلت قامة الأم النحيلة مختفية جزئيا خلف محاميها، وبدا أنها تنكمش أكثر كلما اتخذ النقاش منحى مجرّدًا. رجّحت فيونا حين رُفعت الجلسة أنها لن تراها ثانية أبدًا. ستذهب القضية الحزينة إلى قاضٍ مغربي.

التالي، مذكرة عاجلة من زوجة تطالب بإعالة في قضية معلّقة للحكم. استمعت القاضية، سألت أسئلة، ووافقتْ. أرادت وقت الغداء أن تكون وحدها. أحضر لها باولينج شطائر وقطعة شوكولاتة لتتناولها على مكتبها. يرقد هاتفها تحت بعض الأوراق، استسلمت أخيرا وألقت نظرة على شاشته لتفقّد الرسائل والمكالمات. لا شيء. أخبرت نفسها أنها لا تشعر بالحزن ولا بالراحة. شربتْ الشاي وسمحت لنفسها بقراءة الجرائد عشر دقائق. الأخبار أغلبها عن سوريا، تقارير وصور رهيبة: الحكومة تقصف المدنيين، اللاجئون في الطرقات، إدانات عاجزة من وزراء خارجية العالم، طفل عمره ثمان

سنوات يرقد في فراش وساقه اليسرى مبتورة، فيما الأسد الشاحب ضعيف الشخصية يصافح مسؤولًا روسيًّا، وتنتشر إشاعات عن استخدام غاز الأعصاب.

ثمة بؤس أكبر بكثير في مكانٍ آخر. لكنها بعد الغداء قابلت المزيد من البؤس المحلّي. رفضتْ مذكّرة مقدمة من طرف زوجة لطرد زوجها من بيت الزوجية. كان عرضُها مطولًا، أحنقها توتر المحامي الشبيه بالبومة وطرْفه بعينيه كثيرا.

"لماذا تفعل ذلك بدون إخطار الطرف الآخر؟ أنا لا أرى شيئا في الأوراق يستدعي ضرورة ذلك. هل تم الاتصال بالطرف الآخر بأي طريقة؟ لا شيء، كما أرى. إن كان الزوج راضيا بالالتزام بموّكلتك، فلا داعي لتزعجني حقًا. وإن لم يكن كذلك أرسل إليه إخطارا إذًا وسأستمع إلى الطرفين".

رُفِعت الجلسة، خرجتْ. ثم عادت مجددا لتستمع إلى جدل مع أو ضد إصدار أمر بعدَم التعرّض لرجل يدّعي أنه يخشى أن يعتدي عليه عشيق زوجته السابقة بالعنف. الكثير من النقاش القانوني حول صحيفة سوابق العشيق، لكنها تتضمن الاحتيال فقط، لا اعتداء، في النهاية رفضتْ. محاولة التعرض له كانت ستجعل إصدار الأمر ضروريًا. كوب شاي في غرفتها، ثم عودة مرة أخرى لسماع طلب عاجل من أم مطلقة تريد تصديق المحكمة على جوازات سفر أطفالها الثلاثة. فكرت فيونا في منحها التصديق، لكنها بعد أن سمعت التعقيدات المتفاقمة التي سيؤدي إليها هذا، رفضتْ.

عودة إلى غرفتها الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقة. جلستْ إلى مكتبها، تحدق في الفراغ تجاه أرفف الكتب. حين دخل

باولينج، عادت لوعيها وظنّت أنّها كانت نائمة. أبلغها أن اهتمام الصحف بقضية شهود يهوه بات قويًّا الآن. أغلب صحف الغد ستنشر القصّة. وعلى مواقع الأخبار ثمة صور للولد مع أسرته. قد يكون المصدر الأبوين نفسيهما، أو قريبًا لهما ممتن لمبلغ مالي. ناولها الموظف أوراق القضية وظرفًا بُنيًّا أصدر أصواتًا غريبة وهي تفتحه. قنبلة في خطاب من متَظلِّم مُحْبَط؟ حدث من قبل حين فشلت أدوات ما ركّبها بحماقة زوج غاضب، ولم تنفجر في وجه كاتبها حينها. لكن نعم، إنها مفاتيحها الجديدة، تفتح الطريق إلى حياتها الجديدة، وجودها المتحوّل.

وهكذا، بعد نصف ساعة من ذلك، انطلقت نحوها، لكن من مسار دائري، إذ كرهتْ أن تدخل شقة خالية. غادرتْ من المدخل الرئيسي وسارت غربا في الإستراند إلى الألدويش، ثم شمالا عبر كينجزواي. كانت السماء بارجة رمادية، المطر بالكاد ملحوظ، زحام ساعة الذروة أيام الإثنين أخفّ قليلا عن المعتاد. المتوقّع أمسية أخرى من أمسيات الصيف الطويلة المعتمة ذات السحب الواطئة تلك. تناسبها الظلمة الكاملة أكثر. حين مرّتْ بمحل لصنع المفاتيح، تركتْ قلبها يدق بقوة أكبر حين تخيلت شجارًا بصوت عال مع جاك حول مفاتيح المنزل، وجها لوجه في الميدان تحت الشجر الذي يتقاطر منه المطر، صوتهما يصل الجيران، الذين هم زملاء عمل أيضا. ستكون هي الجانب المخطئ تمامًا.

انعطفت شرقًا، مرّت بمدرسة لندن للاقتصاد (ESL)، سارت على حافة ميدان جمعية لينكولن، عبرت شارع هاي هولبورن. ثمّ، لتؤخّر وصولها إلى البيت، سارت غربًا مجدّدًا، في الشوارع الضيّقة

بين ورش الحرفيّين من منتصف العصر الفيكتوري التي صارت الآن صالونات لتصفيف الشعر، أو مُغلقة، أو محلات شطائر. عبرتْ ميدان ريد لايون، مرّت بالمقاعد والطاولات الألومنيوم المبللة الشاغرة لكافتيريا المتنزه، وقاعة كونواي حيث كان حشد صغير من الناس يقف في انتظار الدخول، أشخاص محترمون، بشعر أبيض، يرتدون بعناية، كويكرز[9] ربما، مستعدون لأمسية من الاحتجاج على الأوضاع الحاليّة. حسنًا، لديها هي الأخرى أمسيتها الخاصة من النوع نفسه. لكن الانتماء إلى القانون وكل تراكمه التاريخي يوثِق المرء أكثر بالأشياء على وضعها الحالي. حتى إن كان يعارضها أو ينكرها. أكثر من ست بطاقات دعوة أنيقة على طاولة من خشب الجوز المصقول في الردهة بشقة جراي. جمعيات النقابة، الجامعات، جمعيات خيرية، جمعيات ملكية متعددة، معارف من المشاهير، يدعون جاك وفيونا ماي، اللذين صنعا من نفسيهما بمرور السنون مؤسسة مصغّرة، ليخرجا إلى العامة في أفضل ملابسهما، ليمنحا تصديقهما، ويأكلا، ويشربا، ويتحدثا ويعودا إلى البيت قبل منتصف الليل.

سارتْ ببطء في طريق تيوبالد، ما زالت تؤجل لحظة وصولها، تتساءل مجددا إن كان الحب هو ما فقدته كثيرا كوجه حديث للجدارة بالاحترام، وإن لم يكن الاستهانة والنبذ هما ما تخافهما، كما في روايات فلوبير وتولستوي، بل الشفقة. أن تكون محل شفقة عامة هو أحد أوجه الوفاة الاجتماعية أيضًا. كان القرن التاسع عشر أقرب كثيرًا للنساء ممّا ظنّته. أن يُقبَض عليها متلبسة دورها في عرض مبتذل ينمّ عن ذائقة فقيرة أكثر منها انحطاطًا أخلاقيًّا. زوج

9 الصاحبيون أو التسمية الأكثر شيوعا "الكويكرز" طائفة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في انجلترا.

قلِق في مغامرة أخيرة، زوجة شجاعة تتمسك بكرامتها، شابة أصغر بعيدة ولا لوم عليها. وهي من كانت تظن أن أيام التمثيل على العشب الصيفي قد ولّت، قبل أن تسقط في الحب مباشرة.

كما تبيّن، لم تكن العودة إلى البيت صعبة للغاية رغم كل شيء. قلّما كانت تعود من العمل قبل جاك، وقد فاجأها شعورها بالارتياح وهي تدلف إلى العتمة الساكنة للردهة وتشمّ الملمّع برائحة الخزامى، وتتظاهر بنصف وعيها أنّ شيئًا لم يتغير، أو أن الأمور على وشك أن تعود لنصابها. قبل أن تضيء الأنوار، وضعت حقيبتها على الأرض وأصختْ السمع. شغّلت أمطار الصيف جهاز التدفئة المركزية. لكن الآن تصدر المبردات تكتكات غير منتظمة وهي تبرّد. صوت بعيد لموسيقى أوركسترا من شقة بالطابق الأسفل، مالِر[10]، بطيئة وهادئة[11]. صوت آخر أبعد منه، أغنية تتردد بحذلقة وتكرر عبارة زخرفية، واضح صدوره من مدخنة. ثم سارت في الغرف، تضيء أنوارها، حتى وإن لم تكن السابعة والنصف بعد. عادتْ إلى الردهة لتجلب حقيبتها، لاحظت أن صانع الأقفال لم يترك أثرًا لزيارته. ولا نثرة خشب واحدة. لماذا سيوجد أثر وهو لم يفعل سوى تغيير ماسورة القفل، وفيمَ يهمها هذا؟ لأن غياب أثر زيارته كان دليلًا على غياب جاك، هبوط صغير في معنوياتها، ولصدّه أخذتْ أوراقها إلى المطبخ وتصفحّت إحدى قضايا الغد ريثما يغلي الماء في الغلاية.

كان بإمكانها الاتصال بأحد ثلاثة أصدقاء، لكنها لم تستطع سماع نفسها تشرح موقفها فتجعله بذلك حقيقيا على نحو لا رجعة فيه. مبكر جدا على التعاطف أو النصح، مبكر جدا على أن تسمع

10 جوستاف مالر (1860-1911) موسيقار نمساوي شهير ألف العديد من الأغاني والسيمفونيات.

11 بالألمانية في الأصل.

رفاق العمر يلعنون جاك. قضت الأمسية بدلًا من ذلك في حالة فراغ، وضع خدِر. أكلت خبزًا وجبنًا وزيتونًا مع كأس نبيذ أبيض، وقضتْ وقتا مطولًا على البيانو. عزفت أولًا، بروح التحدي، مقطوعة لباخ. أحيانًا، تؤدي هي والمحامي مارك بيرنير أغانٍ معًا، وقد رأت تلك الظهيرة أنّه مُدْرَج غدًا كممثل للمستشفى في قضية شهود يهوه. حفلُهما الموسيقي المُشترك القادم بعد عدة أشهر، قبل أعياد الميلاد مباشرة، في القاعة الكبرى بجمعية جراي، وما زال عليهما الاتفاق على برنامجه. لديهما مقطوعات قليلة يحفظانها عن ظهر قلب، وكانت تلعبها الآن، متخيلة صوت المغني، أطالت في مقطوعة شوبرت[12] الجنائزية "دير ليرمان[13]"، رجل الأرغن، الفقير التعس المهمّش. يمنعها هذا من التفكير، ويُبطل إحساسها بمرور الوقت. حين نهضتْ أخيرا عن كرسي البيانو، كانت ركبتاها وفخذاها متخشّبة. في الحمام تناولتْ نصف حبّة منوم. حدّقتْ في النصف الآخر في باطن راحتها ثم ابتلعته هو الآخر.

بعد ذلك بعشرين دقيقة كانت ترقد في النصف الخاص بها من الفراش، تستمع وعيناها مغمضتان إلى الأخبار في الراديو، النشرة الجوية، النشيد الوطني، ثم أخبار العالم. بينما تنتظر الانطفاء، سمعت الأخبار مجددا، للمرة الثالثة ربما، ثم أصوات هادئة تناقش وحشية اليوم – تفجيرات انتحارية في أماكن عامة مزدحمة في الباكستان والعراق، قصف مبانٍ سكنية في سوريا، حرب الإسلام على نفسه التي تتم بأنقاض وحطام سيارات ملتوية وقطع غيار تغرق الأسواق، وأناس عاديون بجزع وحزن. ثم تطرّق جدل الأصوات إلى

12 شوبرت (1797 1828) مؤلف موسيقي نمساوي.

13 بالألمانية في الأصل.

الطائرات الأمريكية بدون طيارين أعلى وزيرستان، والهجوم الدامي الأسبوع الماضي على حفل زفاف. وفيما تهدأ الأصوات العاقلة وتنطفئ أزرار الليل، تكوّرت على نفسها في نومٍ قلِق.

***

مرّ الصباح كالآلاف غيره، شهادات ومذكرات يتم إيداعها سريعا، سماع جِدالات، إصدار أحكام، وتوزيع أوامر، تتحرك فيونا بين مكتبها وقاعة المحكمة، تلتقي بزملائها في طريقها، ثمة شيء ما احتفالي حتّى في تعاملاتهم السريعة، والصيحة المنهكة لحاجب المحكمة "رفعت الجلسة"، وإيماءتها الدنيا للمحامين، ومزاحها الضعيف القليل مع مستشاريها على كلا الجانبين وتقبُّلهم إياه بتودد وقليل من الجهد لإخفاء نفاقهما، والخصوم، إن كانا زوجين يتطلقان، كما كانوا جميعا صباح ذاك الثلاثاء، يجلس كل منهما خلف محاميه، بلا مزاج للابتسام.

ومزاجها؟ تعتبر نفسها ماهرة إلى حدٍ لا بأس به في مراقبته، تسميته، وقد وضعتْ يدها على تحول مهم. كانت أمس، كما قررت الآن، مصدومة، في حالة قبول غير حقيقية، تخبر نفسها أنها، في أسوأ الظروف، ستتحمل شفقة العائلة والأصدقاء ودرجة ما من القسوة الاجتماعية المزعجة، عليها فقط رفض تلك الدعوات الأنيقة تجنبًا للإحراج. لكنها هذا الصباح، حين استيقظتْ بجوار الجانب البارد من الفراش إلى يسارها – أحد ضروب البتر – شعرتْ بأولى وخزات آلام الهجران التقليدية. فكّرت في جاك وهو في أحسن أحواله وافتقدته. صلابة ساقيه العظميتين المشعرتين حين كانت تزلق باطن قدمها

أسفلهما، وهي نصف ناعسة، مع أول جرس للمنبّه، ثم تضع رأسها على ذراعه الممدودة وتغفو في دفء الألحفة، بوجهها في صدره، إلى أن يرن الجرس الثاني. هذا الاستسلام الطفولي العاري، قبل أن تنهض لترتدي درع الكبار، بدا لها أول شيء هذا الصباح كعنصر أساسي تم حرمانها منه. حين وقفتْ في الحمام، وخلعت منامتها، بدا جسدها أحمق في المرآة الطويلة. انكمش على نحو إعجازي في بعض أجزاءه، وتضخّم في أخرى. مؤخرة ثقيلة. حمولة سخيفة. هشة. من الآن فصاعدًا، لماذا قد لا يتركها أي شخص؟

الاغتسال، ارتداء الملابس، احتساء القهوة، ترك رسالة لعاملة التنظيف وتدبير أمر نسختها من المفاتيح جعل تلك المشاعر الفظّة تحت السيطرة. وهكذا بدأتْ صباحها، بحثت عن زوجها في البريد الإلكتروني، والرسائل النصية والبريد العادي، لم تجد شيئا، جمعت أوراقها، مظلتها وهاتفها، وسارت إلى العمل. صمته يبدو لها بلا رحمة وصادمًا. تعرف فقط أن ميلاني، الإحصائية، تقطن في مكان ما بالقرب من هضبة موسويل. البحث عنها ليس مستحيلا، أو عن جاك في الجامعة. لكن يا له من هوان حينها، رؤيته في أحد أروقة القسم، يسير نحوها، ذراعه مُعلّقة بذراع حبيبته. أو رؤيته وحده، ماذا لديها لعرضه سوى توسُّل لا منطقي ومشين لعودته؟ يمكنها أن تطلب منه التأكيد على تركه زواجهما، حينها قد يخبرها بما تعرفه بالفعل ولا تريد أن تسمعه. لتنتظر إلى أن يُعيده كتاب أو قميص أو مضرب تنس إلى الشقة الموصدة في وجهه. حينها ستكون مهمته هو البحث عنها، وحين يتحدثان، ستكون على أرضها، كرامتها محفوظة، ظاهريًا على الأقل.

ما لم يكن ظاهرا حقًا أنها بدأت قائمة قضايا يوم الثلاثاء بروح مثقلة. طالت آخر قضية في الفترة الصباحية بجدل معقد حول القانون التجاري. يدّعي زوج مطلّق أن الثلاثة ملايين جنيه التي عليه دفعها لزوجته ليست في حوزته بعد ليمنحها، بل هي مِلك شركته. اتضح فيما بعد، إنما ببطء شديد، أنه المدير الوحيد والموظف الوحيد أيضًا في شركة تجارية لم تفعل ولا تفعل شيئا – لم تكن سوى كيان صوري يُفيده في الإجراءات الضريبية. حكمتْ فيونا لصالح الزوجة. صارت الظهيرة الآن خالية لدعوى المستشفى العاجلة في قضية شهود يهوه. في غرفتها مرة أخرى، أكلت شطيرة وتفاحة وهي جالسة إلى مكتبها تقرأ الوثائق. في تلك الأثناء، كان زملاؤها يتناولون غداءً فاخرا في جمعية لينكولن. بعد ذلك بأربعين دقيقة، صاحبتْها فكرة جليّة وهي في طريقها إلى قاعة المحكمة الثامنة. ها هي مسألة حياة أو موت.

دخلتْ، وقف الحضور، جلستْ وراقبتْ الأطراف أسفلها يستقرون. عند مرفقها كومة رفيعة من الأوراق البيضاء الكْريمية وُضِع بجانبها قلمها. حينها فقط، حين رأت تلك الصفحات الخالية، تلاشت آخر آثار "بقعة" موقفها الخاص تمامًا. لم يعد لديها الآن حياة خاصة، كانت مستعدة لتندمج.

اصطفّ أمامها أطراف القضية الثلاثة. يمثّل المستشفى صديقها مارك بيرنير المحامي المَلَكي، ومحاميان تحت التمرين. ويُمثّل آدم هنري ووصيّه القانوني، جون توفي، مُحامٍ عجوز من الكافكاس، لا تعرفه فيونا، ومحاميان تحت التمرين. ويُمثّل الوالدين مُحامٍ مَلَكي آخر، ليزلي جريف ومحاميان تحت التمرين، يجلس بجانبهما

السيد والسيدة هنري. السيد هنري رجل نحيف، لوحته الشمس، يرتدي بذلة جيدة وربطة عنق حتى ليخاله المرء أحد أعضاء الهيئة القضائية الناجحين. السيدة هنري بعِظام كبيرة ونظارات ضخمة بإطارات حمراء تجعل عينيها تبدوان كنقطتين. تجلس بظهر مستقيم وتعقد ذراعيها بصرامة. لم يبد على أحد من الوالدين شيء من الخوف بشكل خاص. بالخارج في الرواق، كما افترضت فيونا، سرعان ما سيتجمّع الصحفيون للانتظار حتى تسمح لهم هي بالدخول وسماع قرارها.

بدأتْ قائلة. "تعرفون جميعًا أننا هنا بشأن مسألة عاجلة للغاية. الوقت إذن له أهمية قصوى. الرجاء من الجميع وضع هذا في الحسبان والحديث بإيجاز ومباشرة. سيّد بيرنر".

مالت برأسها نحو مارك بيرنر فوقف. صلعته ناعمة، ضخم، مكتنز، لكن بقدمين أنيقتين – مقاس خمسة، كما تدور الإشاعات – وكانوا يسخرون منه بسببها من خلف ظهره. كان صوته صدّاحًا ومحترما وغنيًا، وكانت أعظم لحظاتهما معًا العام الماضي حين أدّيا معًا "رجل الأرغن[14]" لشوبرت، أثناء عشاء في شقة جراي على شرف لورد قانون متقاعد وشغوف بغوته[15].

"سأكون موجزًا بالفعل سيدتي، لأن الموقف ضاغط كما قلتِ. إن المدّعي في هذه القضية هو مستشفى إديث كافيل العام، بواندسوُرث، وهو يطلب الخروج من هذه القاعة لعلاج ولد يُدعى آدم. في الأوراق، سيتم الثامنة عشرة خلال أقل من ثلاثة شهور. انتابه ألم معوي حاد في الرابع عشر من مايو حين كان يرتدي سناداته

14 بالألمانية في الأصل.

15 غوته (1749 - 1832) هو أحد أشهر الأدباء الألمان.

ويسدد رمية واسعة لفريق الكريكيت بمدرسته. خلال اليومين التاليين اشتدت تلك الآلام حتى صارت غير محتملة. لم يحدد الطبيب العام، على الرغم من خبرته العملية والزمنية، شيئا وعاد إلى..."

"لقد قرأتُ الأوراق سيّد بيرنر".

واصل المحامي "إذن سيدتي، أعتقد أن جميع الأطراف تتفق على أن آدم يعاني من اللوكيميا. والمستشفى يرجو علاجه تقليديًا بأربعة أدوية، إجراء طبّي معترف به عالميا ويمارسه استشاريو طب دم وأورام الأطفال، كما يمكنني إثبات..."

"لا داعي، سيّد بيرنر".

"شكرا لكِ سيدتي".

تقدّم بيرنر بسرعة ليشرح العلاج التقليدي، وهذه المرة لم تقاطعه فيونا. "اثنان من بين الأدوية الأربعة يستهدفان الخلايا السرطانية مباشرة. في حين يسمم الآخران الكثير في طريقهما، خاصة نخاع العظام، وبذلك يقوّضان النظام المناعي ومن قدرته على تخليق خلايا الدم البيضاء والحمراء وصفائحه. لذلك من المعتاد نقل الدم للمريض أثناء العلاج. في هذه الحالة، مع ذلك، لم تستطع المستشفى إجراء نقل الدم. آدم ووالداه من شهود يهوه، ولا يمكنهم، حسب عقيدتهم، قبول منتجات دم آخر في أجسادهم. فيما عدا هذا، يوافق الولد ووالداه على أي علاج آخر قد تعرضه المستشفى".

"وماذا عرضتْ المستشفى غير هذا؟"

"سيدتي، مع احترامنا لرغبات الأسرة، لم تمنح سوى دوائيّ سرطان الدم فقط. وهما ليسا كافيين. عند هذه النقطة أود أن

استدعي استشاري طب دم وأورام الأطفال".

"حسن جدًا".

صعد السيّد رودني كارتر إلى المنصة وحلف اليمين. طويل، محدودب، حاجبان كثان أبيضان تشتعل نظرته أسفلهما بازدراء مفترس. يبرز من جيب سترة بذلته ذات الثلاث قطع منديل حريري أزرق. يعطي انطباعا أنّه يعتبر إجراء المحكمة مجرد هراء وأن الولد يجب أن يُجَرّ من قفاه ويُنقل إليه الدم فورا.

أعْقَب ذلك أسئلة إجرائية لإثبات حسن قصد كارتر، وطول باعِه وخبرته. حين تنحنحت فيونا بهدوء التقط بيرنر الإشارة وواصل سريعا. طلب من الطبيب أن يلخص للقاضية حالة المريض.

"ليست جيدة على الإطلاق".

طُلب منه التوضيح.

سحب كارتر نفسًا عميقا وجال بنظره حوله، رأى الوالدين فأشاح ببصره بعيدا عنهما. كان مريضه ضعيفا، قال، والمتوقع أن تبدو عليه بوادر انقطاع النفس قريبًا. وأنه لو كان، هو كارتر، له حرية العلاج لكان توقّع نسبة شفاء كامل تصل إلى ثمانين أو تسعين في المائة. لكن مع انقضاء الوقت بما يجري هنا، فالنسبة قد انخفضت أكثر.

سأل بيرنر عن تفاصيل خاصة بدمّ آدم.

حين دخل الولد المستشفى، قال كارتر، كانت نسبة الهيموجلوبين 8.3 جرام لكل ديسيلتر. النسبة الطبيعية حوالي 12.5. ظلت تنخفض بثبات. منذ ثلاثة أيام كانت 6.4. وهذا الصباح كانت 4.5. إن انخفضت أكثر إلى 3، سيكون الموقف خطيرا جدا.

كان بيرنر على وشك أن يسأل سؤالا آخر حين تحدث كارتر بصوت يعلوه قائلا:

"نسبة الخلايا البيضاء في العادة ما بين 5 و9. وهي الآن 1.7، وبخصوص صفيحات الدم..."

قاطعته فيونا قائلة "هل لك أن تذكرني بوظيفتها؟"

"ضرورية لتخثر الدم سيدتي".

نسبتها الطبيعية، كما أخبر المستشار المحكمة، 250. وكانت نسبة الولد 34. تحت 20 يتوقع المرء حدوث نزيف تلقائي. عند هذه النقطة، أدار السيّد كارتر رأسه بعيدا قليلا عن المحامي وبدا أنه يتحدث إلى الوالدين. "توضح آخر التحليلات"، قال بصرامة، "أنه لم يُنتِج دمًا جديدًا. المفترض أن ينتج البالغ السليم خمسمائة مليار خلية دم يوميا".

"وإن أمكنك نقل الدم سيّد كارتر؟"

"لدى الولد فرصة جيدة، رغم إنها ليست جيدة بالقدر نفسه لو نُقِل الدم منذ البداية".

سكت بيرنر قليلًا، وحين تحدث مرة أخرى، أخفض صوته كأنه يصوّر دراميًا احتمالية أن يسمعه آدم هنري. "هل ناقشْتَ مع مريضك ما سيحدث له إن لم يوافق على نقل الدم؟"

"فقط بأعمّ المصطلحات. هو على علم باحتمالية وفاته".

"ليس لديه فكرة عن طريقة موته. هل لك أن تقدم للمحكمة شرحا عامًا؟"

"كما تشاء".

بدا أن بيرنر وكارتر يتآمران بالحقائق الرهيبة على الوالدين.

كانت مقاربة معقولة ولم تتدخل فيونا.

قال كارتر ببطء "سيكون الأمر محزنًا، ليس فقط له، بل لطاقم العمل الطبي المعالج. بعضهم غاضبون. يعلقون الدم بروتينية، كما يقول الأمريكيون، طوال اليوم. ولا يفهمون ببساطة لماذا يجب عليهم المخاطرة بمريضهم. أحد علامات انهياره ستكون كفاحه ليتنفس، وسوف يجده مرعبا وحتما سيخسر فيه. سيكون الأمر كالغرق البطيء. قبل هذا قد يعاني من نزيف داخلي. الفشل الكلوي احتمال وارد. بعض المرضى يفقدون بصرهم. أو قد يعاني سكتة دماغية، بما لذلك من عواقب عصبية لا تحصى. تختلف الحالات. الأمر المؤكد الوحيد هو أنها ستكون وفاة مريعة".

"شكرا لك سيّد كارتر".

نهضَ ليزلي جريف محامي الوالدين ليستجوب الشاهد. تعرف فيونا ليزلي قليلًا بالسُمعة، لكنها في تلك اللحظة لم تتذكر إن كان قد مثَلَ أمامها من قبل أم لا. رأته في قاعات المحاكم. متأنّق بطريقة ما، بشعر فضي، مفروق من المنتصف، عظام وجنة عالية، أنف طويل نحيل يرفعه بإباء. ثمة ليونة أو حرية ما في حركته تتناقض تناقضا محببًا مع الحركات المحكومة داخليًا لزميليه الأكثر صرامة. كان تأثير أناقته ومرحه معقدًا بمشكلة ما لديه في الرؤية، حَوَلٌ من نوع ما، يجعله لا يبدو أنه ينظر إلى ما يراه أبدًا. أضافتْ تلك الإعاقة إلى جاذبيته. أحيانًا يُريك هذا الشهود أثناء الاستجواب وقد يكون هو سبب عصبية الطبيب الآن.

قال جريف، "أنت تقبل، أليس كذلك، سيّد كارتر، بحرية اختيار العلاج الطبي كحق أساسي من حقوق الإنسان للبالغين؟"

"حقًا".

"وأن العلاج بدون موافقة المريض يُعد تعديًا، أو اعتداء حقيقيًّا على شخصه".

"أوافقك".

"وآدم يقترب من سن الرشد، كما يقضي القانون في تلك الحالات".

قال كارتر "لو كان عيد ميلاده الثامن عشر غدًا صباحًا، فلن نعتبره راشدا اليوم".

قيل هذا بغيظ مكتوم. ظل جريف وقورا وهو يقول "آدم راشد تقريبا، أليست حقيقةً أنّه عبّر عن رأيه في العلاج بذكاء وحصافة؟"

عند هذه النقطة، تلاشى الانحناء في ظهر الاستشاري وطالت قامته بوصة تقريبًا. "إن رأيه من رأي أبويه، وليس رأيه الخاص. ورفضه نقل الدم ينبع من مذهب طائفة دينية قد يُضْحِي شهيدا لا قيمة له بالنسبة إليها لو فعل".

"إن كلمة طائفة كلمة قوية، سيّد كارتر"، قال جريف بهدوء. "هل لديك أنت نفسك أية معتقدات دينية؟"

"أنا إنجيلي".

"هل تعتبر كنيسة إنجلترا طائفة؟"

رفعتْ فيونا بصرها عن تسجيلها ملحوظاتها. أقر لها جريف بخطئه بأنّ زم شفتيه وحبس نفسه طويلا، بدا الطبيب كأنه حصل بذلك على الإذن بالنزول عن المنصّة، لكن المحامي لم يكن قد انتهى منه.

"هل تعرف سيّد كارتر أن تقديرات منظمة الصحة العالمية

لنسبة حالات الإيدز الجديدة بسبب نقل الدم تتراوح ما بين خمس عشرة وعشرين في المائة؟"

"لا يوجد مثل هذه الحالات في مستشفانا".

"عانت مجتمعات المصابين بالهيموفيليا في بلدان مختلفة من مأساة العدوى بالإيدز على نطاق شاسع، أليس كذلك؟"

"كان ذلك منذ وقت طويل ولم يعد يحدث الآن".

"وثمة أنواع أخرى من العدوى المحتملة عبر نقل الدم، أليس كذلك؟ التهاب الكبد، مرض اللايم، الملاريا، السفلس، مرض شاغاس، وبالطبع، مرض كروتزفيلد-جاكوب المتغير".

"جميعها حالات نادرة جدا"

"لكنها حدثت من قبل. ثم هناك ردة فعل انحلال الدم في حالات عدم تطابق فصائل الدم".

"نادرة أيضًا".

"حقّا؟ دعني أقتبس لك سيّد كارتر من دليل حفظ الدم الذي يحظى بتقدير عال، يقول: يوجد على الأقل سبع وعشرون مرحلة بين أخذ عينة الدم وبدء عملية نقله إلى المتلقي، وثمة احتمالات للخطأ في كل مرحلة منها".

"إنّ طاقمنا على مستوى عال من التدريب. يعيرون اهتماما عظيما. أنا لا أتذكر حادثة انحلال دم خلال أعوام".

"إنْ أضفنا كل تلك المخاطر معًا سيّد كارتر ألا ترى أن عليك منح شخص عاقل فرصة للتفكير، حتى وإن لم يكن هذا الشخص منتميا لما تسميه طائفة؟"

"هذه الأيام، تخضع منتجات الدم لاختبارات على أعلى مستوى".

"مع ذلك ليس من غير المعقول تمامًا أن تتردد قبل قبول نقل الدم".

فكّر كارتر للحظة. "أن تتردد، ربما، كحد أقصى. لكن الرفض في حالة مثل حالة آدم عمل غير عاقل".

"أنت تقبل بالتردد. لكنه ليس من غير معقول بالتأكيد، مع اعتبار كل احتمالات العدوى والخطأ، أن يصر المريض على الأخذ بموافقته".

ندّت عن الاستشاري حركة كمن يحاول السيطرة على نفسه. "أنتَ تتلاعب بالألفاظ. إن لم يُسمح لي بنقل الدم إلى هذا المريض، قد لا يتعافى، وفي أفضل الظروف قد يفقد بصره".

قال جريف "ألا يعتبر نقل الدم في مهنتكم إجراء غير مدروس، مع اعتبار المخاطر؟ إنه ليس على أساس أدلة، أليس كذلك سيّد كارتر؟ بل بالأحرى يشبه الحجامة في الأزمنة القديمة، إنما بالعكس. المرضى الذين يفقدون سدس لتر من الدم أثناء الجراحات، يتم نقل الدم إليهم بشكل روتيني أليس كذلك؟ ومع ذلك قد يتبرع المرء بنصف لتر دم كامل ويعود إلى عمله مباشرة بعدها، دون أي ضرر".

"لا يمكنني التعليق على الحكم الطبي للآخرين. لكن النظرة العامة، على ما أظن، أن المريض الذي يخضع لجراحة ينبغي أن يحظى بكل الدم الذي قد يمنحه الرب له".

"ألا يُعالج المرضى من شهود يهوه عادةً الآن بما يسمى الجراحة بلا دم؟ لا ضرورة لنقل الدم. دعني اقتبس لك من المجلة الأمريكية لطب الأذن والحنجرة: "أصبحت الجراحة بلا دم الآن من الممارسات الجيدة، وقد تغدو في المستقبل المعيار المقبول للرعاية".".

قال الاستشاري بحسم "نحن لا نتحدث عن الجراحة الآن. المريض في حاجة إلى دم لأن علاجه يمنعه من صنع دمه الخاص. الأمر بهذه البساطة".

"شكرا لك سيّد كارتر".

جلس جريف ونهض جون توفي، بدا أنه يستند على عصا برأس فضية، يمثل آدم هنري. نهض على قدميه لاهثًا ليستجوب الاستشاري.

"من الواضح أنك قضيت وقتا في الحديث مع آدم على انفراد"

"حدث بالفعل".

"هل كوّنت انطباعًا بخصوص ذكاءه؟"

"إنه ذكي للغاية".

"وهل هو فصيح؟"

"نعم".

"هل حُكمه، أو معرفته، جاءت تحت تأثير حالته الطبية؟"

"ليس تمامًا".

"هل أخبرته بضرورة نقل الدم إليه؟"

"حدث بالفعل".

"وماذا كان رده؟"

"رفض الأمر تمامًا على أساس عقائده الدينية".

"هل تعرف سنه بالتحديد بالأعوام والأشهر؟"

"سبعة عشر عاما وتسعة أشهر".

"شكرا لك سيّد كارتر".

نهض بيرنر ليعيد الكرّة.

" سيّد كارتر، هل تخبرني مرة أخرى كم مرّ على تخصصك في أمراض الدم؟"

"سبعة وعشرون عاما".

"ما هي مخاطر حدوث رد فعل عكسي لنقل الدم؟"

"منخفضة جدا. لا شيء بالمقارنة بالضرر المحدّد الذي سيقع في هذه الحالة إن لم يتم نقل الدم".

أشار بيرنر أنه ليس لديه أسئلة أخرى.

قالتْ فيونا، "من وجهة نظرك، سيّد كارتر، كم لدينا من الوقت لتسوية هذه المسألة؟"

"إن لم يتم نقل الدم للولد غدا صباحا سنكون في منطقة خطرة جدا".

جلس بيرنر. شكرتْ فيونا الطبيب، الذي تحرك بإيماءة فظة، وبامتعاض ربما، نحو مقعده.

نهض جريف وقال إنه يطلب حضور الأب فورًا. حين اعتلى السيّد هنري المنصة. طلب حلف اليمين على الترجمة العالمية الجديد[16]، فأخبره الحاجب إنه لا يوجد سوى نسخة الملك جيمس، فأومأ السيّد هنري برأسه وحلف عليه، ثم ثبّت نظرته بصبر على جريف.

كيفن هنري طوله حوالي خمسة أو ستة أقدام، ويبدو رشيقا وقويا كلاعب سِرْك. قد يكون ميكانيكيا خبيرا، لكنه يبدو مرتاحا تماما في بذلته الرمادية وربطة عنق حريرية بلونها الأخضر الباهت. كان المغزى من أسئلة جريف له رسم صورة لكفاحه المبكر، ثم

16 الإنجيل المعتمد.

ازدهار أسرة محبة ومستقرة وسعيدة. من يشك في هذا؟ تزوج الزوجان هنري صغيرين، وهما في التاسعة عشرة، منذ سبعة عشر عاما. كانت الأيام الأولى، حين كان الزوج مجرد عامل، صعبة. كان همجيا قليلًا، يشرب كثيرا جدا، يؤذي زوجته، ناعومي، مع ذلك لم يضربها قط. في النهاية تم فصله من عمله لتأخره كثيرا عن مواعيد الحضور. تأخرا في دفع الإيجار، كان الطفل يبكي طوال الليل، الزوجان يتشاجران، الجيران يشتكون. هُدّدا بالطرد من شقتهما ذات غرفة النوم الواحدة بستريتهام.

جاء الخلاص في هيئة شابين مؤدبين من أمريكا طرقا باب ناعومي ذات ظهيرة. ثم عادا مرة أخرى في اليوم التالي وتحدثا مع كيفن، الذي عاملهما بعدائية في البداية. أخيرًا، زيارة إلى أقرب قاعة ملكوت[17]، ترحاب ودود، ثم، وببطء، من خلال لقاء بعض الأشخاص الودودين الذين سرعان ما صاروا أصدقاء، وأحاديث معينة مع كبار السن الحكماء في الجماعة، ثم دراسة الإنجيل، التي وجدوها صعبة في البداية– ببطء، حلّ النظام والسلام في حياتهما. بدأ كيفن وناعومي يعيشان في الحقيقة. تعلما عن المستقبل الذي يدّخره الرّب للبشر وأدّيا واجبهما بأن عملا على نشر كلمته. اكتشفا أن بوسعهما العثور على الفردوس في الأرض وأن بوسعهما أن يصيرا جزءً منها بالانتماء إلى تلك الجماعة المباركة المعروفة لدى الشهود باسم "الشاه الأخرى".

بدآ يفهمان القيمة الثمينة للحياة. حين أصبحا أبوين أفضل صار ابنهما أهدأ. التحق كيفن بتدريب ممول حكوميا ليتعلم تشغيل الماكينات الثقيلة، وبعد فترة قصيرة من تأهُّله، حصل على عمل. في

17 قاعة الملكوت هي مكان عبادة شهود يهوه.

طريقهما إلى قاعة الملكوت بآدم ابنهما لتقديم الشكر، أخبر الزوجان أحدهما الآخر إنهما سقطا في الحب معًا مجددًا. تشابكت يداهما في الشارع، شيء ما لم يفعلاه من قبل قط. منذ ذاك الحين، منذ سنوات مضت، ظلا يعيشا في الحقيقة وربّيا آدم في نطاق دائرة أصدقاء مقرّبة وداعمة من الشهود. منذ خمس سنوات، أسس كيفن شركته الخاصة. امتلكَ بعض الحفارات وعربات النقل والرافعات ووظّف تسعة رجال. الآن أرسل الرب اللوكيميا إلى ابنهما ويواجه كيفن وناعومي اختبار إيمانِهما المطلق.

يجيب السيّد كيفن على أسئلة المحامي السريعة بطريقة هادئة، وباحترام، لا يهاب المحكمة كالكثير من الناس. تحدث بفتور عن إخفاقاته الماضية، لم يبد متحرجًا لذكر لحظة الأخذ باليد والنجاة، لم يتردد في استخدام كلمة حب في هذا السياق. كان من حين لآخر يدير رأسه بعد سؤال المحامي إلى فيونا ليخاطبها مباشرة ويلتقط نظرتها. حاولتْ، رغمًا عنها، تحديد لكنته. لمحة من كوكني، أثر أقل من الإقليم الغربي – الصوت الواثق لرجل يعتبر كفاءته أمرا مفروغا منه، اعتاد إصدار الأوامر. عازفو جاز بريطانيون معينون يتحدثون هكذا، ومدرب تنس تعرفه، وعدة ضباط صف، ورجال شرطة قدامى، ومساعدون طبيون، وعامل حفّار نفط مَثُلَ أمامها ذات مرة. ليس الرجال الذين يحكمون العالم، بل من يديرونه.

سكتَ جريف ليؤكد خاتمة تلك الخمس دقائق التاريخية ثم سأل بهدوء، "سيّد هنري، هل لك أن تخبر المحكمة لماذا يرفض آدم نقل الدم".

تردد السيّد هنري كأنه يفكر في السؤال للمرة الأولى. أدار بصره

عن جريف ليوجه إجابته إلى فيونا. "عليكم أن تفهموا،" بدأ بالقول، "أن الدم هو أساس كل ما هو إنساني. إنه الروح، الحياة نفسها. وكما أن الحياة مقدسة كذلك الدم". بدا أنه انتهى لكنه أردف سريعا، "الدم رمز لهبة الحياة الذي ينبغي على كل كائن حي الامتنان لها". ردد تلك الجمل ليس كعقائد يؤمن بها، بل كحقائق مؤكدة، كما قد يصف مهندس بناء جسر.

انتظر جريف، يقصد بصمته أن سؤاله لم يحظ بإجابة بعد. لكن كيفن هنري كان قد انتهى وينظر أمامه مباشرة.

بادره جريف، "فإن كان الدم هبةً إذن، لماذا يرفضها ابنك من الأطباء؟"

"إن مزج دمك بدم حيوان أو إنسان آخر يعتبر تلوث، دنس.. يعتبر رفضا لهدية الخالق الرائعة. لهذا تحديدا يحرّمها الرب في سفر التكوين والأحبار والأعمال".

كان جريف يومئ. أضاف السيّد هنري ببساطة "إن الإنجيل هو كلام الرب. وآدم يعرف أنه لا بد من طاعته".

"هل تحبّان ابنكما أنت وزوجتك سيّد هنري؟"

"نعم نحبه". قال بهدوء ونظر إلى فيونا بتحدٍّ.

"وإن كان رفض نقل الدم سوف يسبب وفاته؟"

مجددا، حدّق كيفن هنري أمامه في الجدار المكسو بالخشب. حين تحدث كان متشنجًا. "سوف يأخذ مكانه في ملكوت الفردوس القادم على الأرض".

"وأنت وزوجتك، كيف سيكون شعوركما؟"

ما زالت ناعومي هنري تجلس مستقيمة الظهر بحزم، يستحيل

قراءة تعبيرها خلف نظارتها. تنظر إلى المحامي بدلًا من زوجها على المنصة. لم يتضح من حيث تجلس فيونا إن كانت عيناها المختفيتان خلف نظارتها مفتوحتين أم لا.

قال كيفن هنري، "سيكون قد فعل الصواب والحق، ما يأمر به الرب".

مرة أخرى، انتظر جريف، ثم قال بنبرة منخفضة، "سيحطمكما الحزن أليس كذلك سيّد هنري؟"

عند هذه النقطة جعل العطف المفتعل في نبرة المحامي صوت الأب يخفق. فأومأ برأسه فقط. رأت فيونا اختلاج عضلة ما عند حلقه وهو يستعيد نفسه.

قال المحامي "هل هذا الرفض هو قرار آدم أم قراركما أنتما؟"

"لا نستطيع إقناعه بالعدول عنه، حتى إن أردنا".

تتبّع جريف هذا الخط في استجوابه لعدة دقائق، بدا أن هدفه إثبات أن الولد ليس تحت تأثير مبالغ فيه. زاره شيخان كبيران للتحدث معه. لم يكن السيّد هنري حاضرا. لكن بعد هذا، في رواق المستشفى، أخبر الشيخان السيّد هنري أنهما منبهران ومتأثران بتمسُّك الولد بموقفه وبمعرفته الواسعة بالنصوص المقدسة.. لقد سلّما أنه يعرف كيف يفكر وأنه يعيش، بينما هو يستعد للموت، في الحقيقة.

أحسّتْ فيونا أن بيرنر يهمّ بالاعتراض. لكنه يعرف أنها لن تضيع الوقت في حذف شهادات.

مجموعة أخيرة من أسئلة ليزلي جريف القصد منها السماح للسيّد هنري بإظهار النضج العاطفي لدى ابنه. ما فعله بفخر، لا شيء في نبرته الآن ينم عن قُرب فقده إياه.

لم ينهض مارك بيرنر لاستجواب الأب إلا في الثالثة والنصف. بدأ بالإعراب عن تعاطفه مع السيّد والسيّدة هنري لمرض ابنهما وتمنياته له بالشفاء التام – دلالة مؤكدة، لفيونا على الأقل، على أنه سينقض بشراسة. أومأ كيفن هنري برأسه.

قال بيرنر "فقط للبدء بتوضيح مسألة بسيطة سيّد هنري. أسفار الإنجيل التي ذكرتها، التكوين والأحبار والأعمال تُحرّم أكل الدم، أو في إحدى الحالات، تحض على الامتناع عنه. في سفر الأحبار في الترجمة العالمية الجديدة على سبيل المثال، يقول "فقط لحم كل ذي روح – دم – لا تأكلوه".

"هذا صحيح".

"لا شيء عن نقل الدم إذن".

قال السيّد هنري بصبر "أعتقد إنك ستجد في النسخة اليونانية والعبرية أن الأصل له معنى "الدخول في الجسد".

"حسنا جدا، لكن في نصوص العصور الحديدية تلك، لم يكن يوجد نقل دم، كيف يمكن تحريمه؟"

هز كيفن هنري رأسه. صوته يزخر بتسامح كريم أو شفقة. "بالتأكيد كان يوجد في ذهن الرب. يجب أن تفهم أن تلك الكتب كلمته. أوحى إلى أنبياءِه المختارين كتابتها بمشيئته. لا يهم في أيّ عصر كان، الحجري أو البرونزي أو أيٍّ كان".

"وهو كذلك سيّد هنري. لكن الكثير من شهود يهوه يتساءلون عن تلك الفكرة بخصوص نقل الدم في ظروف مشابهة تمامًا. وهم مستعدون لقبول منتجات دم، أو منتجات دم معينة دون التخلّي عن إيمانهم. أليس الوضع أن ثمة اختيارات أخرى أمام الصغير آدم وأن

بإمكانك لعب دورك كأب في إقناعه باختيارها وإنقاذ حياته؟"

عاد هنري بوجهه إلى فيونا "ثمة القليل جدا ممن يخالفون تعاليم الهيئة الحاكمة، وأنا لا أعرف أحدًا منهم في جماعتنا، وكبارنا واضحون جدا في هذا الشأن".

انعكست أضواء القاعة بلمعة على صلعة بيرنر الملساء، ابتذال كامن للمحامي المنَقضّ. أمسك طية سترته بيده اليمنى. "هؤلاء الكبار الصارمون كانوا يزورون ابنك يوميا، أليس كذلك؟ إنهم حريصون على ألا يغير رأيه".

بدت على كيفن هنري أُوْلى أمَارات الاستفزاز. استجمع قواه لمواجهة بيرنر، قبض على حافة منصة الشاهد، مال قليلا للأمام، كأنه مربوط إلى طوق لا مرئي. ظلت نبرته رصينة مع ذلك وهو يقول "هؤلاء رجال عطوفون ومحترمون، للكنائس الأخرى قساوسة يجولون في الأحياء أيضًا. ابني يلتمس النصح والراحة عند كبار السن. إن لم يكن مُرحِّبا بهم لكان قد أخبرني".

"أليس صحيحًا أنه لو وافق على نقل الدم إليه سيُعتبر مُرتَدًّا عن الجماعة؟ بمعنى آخر منبوذا منها؟"

"أنت تقصد مفصولًا. لكن هذا لن يحدث. فهو لن يغير رأيه".

"إنه ما زال طفلًا، تقنيًّا، سيّد هنري، في رعايتك. لذلك فهو رأيك ما أريد أن أغيره. إنه يخشى الفصل، أليس هذا المصطلح الذي تستخدمونه؟ أن يُفصل لأنه لم يفعل ما تريده وما يريده الكبار، سيدير له العالم الوحيد الذي يعرفه ظهره لتفضيله الحياة على ميتة شنيعة. أهذا يعد في رأيك اختيارا حرا أمام ابنك الغر؟"

صمتَ كيفن هنري يفكّر. نظر إلى زوجته لأول مرة ثم قال "إن

قضيت معه خمس دقائق ستدرك أنه يعرف ما هو مقبل عليه وقادر على اتخاذ قراره طبقا لإيمانه".

"أعتقد أننا سنجد ولدًا مذعورًا ومريضًا بشدة يتوق بيأس إلى إرضاء أبويه. سيّد هنري، هل أخبرت آدم أنه حر في تلقي نقل الدم إن شاء ذلك؟ وأنك ستظل تحبه؟"

"أخبرته أنني أحبه".

"هذا فقط؟"

"هذا يكفي".

"أتعرف متى أمر شهود يهوه برفض نقل الدم؟"

"إنه مذكور في سفر التكوين، وهذا يعود إلى بدء الخليقة".

"هذا يعود إلى عام 1945، سيّد هنري. قبل ذلك كان مقبولا تمامًا. هل أنت راض في موقف يمكن فيه لِلَجْنَة حديثة التشكيل تاريخيًا في بروكلين تحديد مصير ابنك؟"

أخفض كيفن هنري صوته، احتراما لموضوع الحديث ربما، أو في مواجهة مسألة صعبة. شمل فيونا في إجابته مجددا، وكان ثمة دفء في صوته. "إن الروح القدس تهدي مرشدي الرعيّة – نحن ندعوهم العِبَاد حضرة القاضية – لتوجههم إلى الحقائق العميقة التي لم تكن مفهومة من قبل". عاد بنظره إلى بيرنر وقال بيقين "إن الروح القدس هي قناة يهوه للاتصال بنا. إنها صوته. وإن كان ثمة تغييرات في التعاليم فذلك لأن الرب يعلن عن غرضه تدريجيا فقط".

"هذا الصوت لا يسمح بالكثير من المعارضة. مكتوب هنا في هذه النسخة من برج المراقبة[18] إن التفكير المستقل كان أول ما شجع

18 برج المراقبة هي إحدى الدوريات الشهيرة التي تصدرها جماعة شهود يهوه.

.عليه أبليس في بداية ثورته في أكتوبر 1914 وأن على المؤمنين تجنُّب هذا التفكير. أهذا ما تخبر به آدم سيّد هنري؟ أن عليه تجنُّب تأثير إبليس؟"

"نحن نفضّل تجنُّب الاعتراض والشجار وأن نبقى على اتحاد". تنمو ثقة السيّد هنري. بدا أنه يخاطب المحامي على انفراد. "قد لا يكون لديك فكرة عن كيف هو الخضوع لسلطة عليا. يجب أن تفهم أننا نفعل هذا بإرادتنا الحرة".

كان ثمّة أثر ابتسامة منحرفة على وجه مارك بيرنر. إعجابا بخصمه ربما. "لقد أخبرت لتوك زميلي في العمل أن حياتك وأنت في العشرينات كانت فوضى. قلتَ إنّك كنتَ همجيا قليلا. أتظن سيّد هنري أنك في تلك السنوات، حين كنت في مثل سن آدم، كنت تعرف ما تريد؟"

"لقد عاش حياته كلها في الحقيقة. أنا لم أحظ بهذه الميزة".

"كذلك، كما أتذكر، قلت إنك اكتشفت أن الحياة ثمينة. أكنت تقصد حياة الآخرين أم حياتك أنت فقط؟"

"الحياة كلها هبة من الرب. ومن حقه استعادتها".

"القول سهل سيّد هنري، حين لا تكون حياتك".

"والأصعب قوله حين يكون ابنك".

"إن آدم يكتب الشعر. أترضى عن ذلك؟"

"لا أظنه صوابا لحياته".

"لقد تشاجرت معه في هذا الشأن أليس كذلك؟"

"خُضنا نقاشات جادّة".

"هل الاستمناء خطيئة سيّد هنري؟"

"نعم".

"والإجهاض، والمثلية؟"

"نعم".

"وهذا ما يتعلمه آدم من معتقدات؟"

"هذا ما يُعرف أنه حقيقي".

"شكرا لك سيّد هنري".

نهض جون توفي، وأخبر فيونا، لاهثا على نحو ما، أنه اعتبارا للوقت ليس لديه أسئلة للسيّد هنري، لكنه يطلب مثول موظفة الكافكاس. مارينا جرين، امرأة رشيقة بشعر بلون الرمال وتتحدث بعبارات قصيرة وموجزة. ما يساعد قليلا في هذه المرحلة من الظهيرة. قالت إن آدم ذكي للغاية. مطلع على الإنجيل، ويعرف حججه، وقد قال إنه مستعد للموت في سبيل إيمانه.

قال ما يلي – وهنا أخذت مارينا جرين، بعد إذن القاضية، تقرأ من دفترها. "أنا سيد قراري. أنا منفصل عن والدي. أيًّا كانت أفكار والديّ، أنا أقرر لنفسي".

سألتها فيونا عن رأيها فيما يمكن للمحكمة فعله في هذا الشأن. فقالت رأيها ببساطة، مع اعتذارها عن جهلها بكل التفاصيل القانونية، إن الولد ذكي ولبق، لكنه ما زال صغيرا جدا. "ولا يجوز أن

نترك طفلا يقتل نفسه باسم الدين".

تخلّى كلٌ من جريف وبيرنر عن استجوابها.

***

قبل سماع المرافعات النهائية سمحت فيونا باستراحة قصيرة. رُفعت الجلسة وعادت إلى غرفتها سريعا، شربت كأس ماء وهي تجلس إلى مكتبها وتفقدت بريدها الإلكتروني ورسائلها على الهاتف. الكثير من الاثنين لكن لا شيء من جاك. بحثتْ مرة أخرى. لم يكن حزنًا أو غضبا ما تشعر به الآن بل خواءً مظلما، فراغًا يسقط من أعلى خلفها، يهدد بابتلاع ماضيها. مرحلة أخرى. لم يبد لها ممكنًا أن الشخص الذي عرفته لأقصى درجة من الحميمية قد يصبح قاسيا هكذا.

بعد انقضاء وقت الاستراحة بعدة دقائق، عادتْ إلى المحكمة. حين نهضَ بيرنر كان لا مناص من تحويل الجدل إلى "أهلية جيليك"– النقطة المرجعية في كل من قانون الأسرة وطب الأطفال. لورد سكارمان هو من أعدّ صياغتها، والمحامي يقتبس منه الآن. للطفل، أي الشخص دون السادسة عشرة، أن يوافق على علاجه الطبي "فقط في حال تحقق لديه فهما وافيا وإدراكا للغرض منه بشكل كامل". إن كان بيرنر، في دفاعه عن دعوى المستشفى لعلاج آدم بالإكراه، يثير مسألة جيليك الآن، فذلك للفت انتباه جريف إلى إمكانية فعل هذا أيضًا. أُدخل أوّلًا وحّدد الظروف بنفسك. فعل ذلك بعبارات سريعة قصيرة، صوته الصّادح الناعم نقي وواضح كما كان حين غنى قصيدة جوته المأساوية.

غنيٌّ عن القول، قال بيرنر، إن نقل الدم ليس أحد أشكال العلاج في حد ذاته. لا أحد من طاقم العمل الذي يدور حول آدم يشك في ذكاءه، وفصاحته الشديدة، وفضوله وشغفه بالقراءة. كان قد فاز في مسابقة شعرية أقامتها جريدة وطنية جادة. وبإمكانه إلقاء

أجزاء مطولة من القصائد الغنائية لهوراس.. فتى استثنائي بحق. سمعتْ المحكمة الاستشاري يؤكد على كونه ذكيًا وفصيحًا. وبنفس القدر من الأهمية، مع ذلك، أكد الطبيب أن آدم ليس لديه سوى أكثر الرؤى إبهاما عن ما سيحدث له إن لم يوافق على نقل الدم. لديه فكرة عامة، رومانسية نوعا ما، عن الموت الذي ينتظره. لذلك فلا يمكن اعتباره مطابقا للشروط التي حددها لورد سكارمان. آدم بالتأكيد لا يفهم الغرض من علاجه بشكل كامل. وبطبيعة الحال، لا يرغب أحد من الطاقم الطبي شرح الأمر له. كان الطبيب أفضل من يمكنه البت في هذا الأمر وقد كان ما قاله واضحًا. آدم لا تنطبق عليه أهلية جيليك. ثانيًا، حتى إن انطبقت عليه ومن ثم له حق الموافقة على العلاج، فهذا مختلف تماما عن حقه في رفض علاج ينقذه من الموت. القانون واضح في هذا. ليس لديه استقلالية للحكم في الأمر حتى يبلغ الثامنة عشرة.

ثالثا، الأمر بسيط، واصل بيرنر، إن مخاطر العدوى عبر الدم المنقول في حدّها الأدنى. في حين عواقب عدم نقل الدم مؤكدة ومرعبة، ومميتة ربما. ورابعًا، ليس من باب المصادفة أن آدم يؤمن بما يؤمن به أبواه. فقد كان ولدًا مُحبًا ومُطيعًا نشأ على تمسُّكهما بعقيدتهما بإخلاص وقوة. وأن آراءه غير التقليدية تمامًا بخصوص نقل الدم، كما رجّح الطبيب بقوة، ليست آراءه الخاصة. نحن جميعًا كان لدينا معتقدات في السابعة عشرة قد نتحرّج لذكرها الآن.

ثم أوجز بسرعة. إن آدم ليس في الثامنة عشرة، ولا يفهم المحنة التي يوشك على الدخول فيها إن لم يوافق على نقل الدم، وأنه تحت تأثير مبالغ فيه من الطائفة المعينة التي نشأ في كنفها ويعي بالعواقب

السلبية لمخالفتها. وأن آراء شهود يهوه بعيدة تمام البعد عن تفكير أبوين متحضرين وعاقلين.

فيما يستدير مارك بيرنر ليجلس كان ليزلي جريف قد نهض بالفعل على قدميه. في افتتاحيته التي ألقاها على مبعدة أقدام قليلة يسار فيونا، أراد هو الآخر لفت انتباهها إلى حكم أصدره لورد سكارمان "يعتبر حق المريض في اتخاذ قراره الخاص حقًّا أساسيًّا من حقوق الإنسان، يحميه القانون العام". لذلك يجب على هذه المحكمة أن تمتنع تماما عن التدخل في قرار بخصوص علاج طبي من شأن شخص مثبت ذكاءه وبصيرته. من الواضح أنّه لا جدوى من اللجوء إلى الشهرين أو الثلاثة أشهر التي تفصل آدم عن عيد ميلاده الثامن عشر. في مسألة تؤثر بشكل جسيم على أحد حقوق الإنسان الأساسية لأحد الأفراد، ليس من اللائق اللجوء إلى سحر الأعداد. هذا المريض، الذي أوضحَ وأصرّ مِرارا وتكرارا، كان أقرب كثيرا إلى الثامنة عشرة منه إلى السابعة عشرة.

أغمض جريف عينيه، يحاول التذكر، ليقتبس من البند 8 من قانون الأسرة المعدّل لعام 1969. "إن موافقة القاصر الذي أتم السادسة عشرة على أي علاج جراحي أو طبي أو خاص بالأسنان، مما يعتبر، في غياب تلك الموافقة تعديا على شخصه، واجبة كما لو كان قد أتم سن الرشد تماما".

لقد اندهش جميع من قابلوه، قال جريف، لبكورته ونضجه. "قد تهتمين حضرة القاضية بسماع أنه قرأ بعض أشعاره لطاقم التمريض. نالت استحسانا كبيرا". إنه مفكر أكثر بكثير من أغلب الصبية في سن السابعة عشرة. لم تكن المحكمة لتنظر في الموقف

لو كان قد ولد قبل موعده بثلاثة أشهر، حينها كان حقه الأساسي سيغدو آمنا. لقد أوضح، بالدعم الكامل من أبويه المحبين، رفضه للعلاج كما أوضح بالتفصيل المبادئ الدينية التي يقوم عليها رفضه.

سكتَ جريف، كأنه يفكر، ثم أشار إلى الباب الذي غادر منه الطبيب قاعة المحكمة. من المفهوم تمامًا أن يكره الطبيب فكرة التراجع عن العلاج. هذا لا ينم سوى عن التفاني المهني الذي يتوقعه المرء من قامة بارزة. لكن مهنيته تؤثر على حكمه بخصوص أهلية آدم. هذا الأمر ليس طبيا فقط في النهاية، بل قانوني وأخلاقي كذلك. يخص أحد الحقوق غير القابلة للتصرف فيها لشاب يفهم جيدا جدا إلى أين سيودي به قراره. إلى وفاة مبكرة. كما عبر بوضوح غير ذات مرة. إن عدم علمه بطريقة موته بالتحديد أمر جانبي. لا أحد يتمتع بالأهلية قد يملك هذا النوع من المعرفة. حقًا، لم يمتلكها أحد.. نحن جميعا نعرف إننا سنموت يوما ما. ولا أحد منا يعرف كيف. وقد أكد السيّد كارتر بالفعل أن الفريق المعالج لآدم لا يرغب في إخباره بهذا النوع من المعلومات. مسألة "أهلية جيليك" الشاب ترقد في مكان آخر، في تشبّثه الواضح على حقيقة رفض العلاج التي قد تؤدي إلى موته. وجيليك، بالطبع، جعلت من قضية سنه أمرًا عقيمًا.

حتى الآن، ملأت القاضية ثلاث صفحات بالملحوظات. إحداها، في سطر وحدها كانت "الشعر؟" صعدت من تيار الجدل صورة رقيقة – فتى يافع، مستندا على وسادات، يقرأ أشعاره لممرضة مرهقة، تعرف أنّ المشفى في حاجة إليها في مكان آخر لكنها تمتنع عطفًا على الفتى من قول ذلك.

نظَمتْ فيونا الشعر حين كانت في مثل سن آدم هنري، مع أنها لم

تجرؤ قط على قراءته بصوت عال، ولا حتى لنفسها. تتذكر رباعيات لم تجرُؤ على نظمها دون قافية. كانت إحداها عن الموت غرقًا، عن الاستلقاء والغرق باستمتاع بين أعشاب النهر، حلم بعيد المنال من وحي لوحة أوفيليا لميليه[19]، التي وقفتْ أمامها مبتهجة، أثناء زيارة مدرسية إلى التايت[20]. تلك القصيدة الجريئة في مفكرة مجعدة، على غلافها رسومات بحبر بنفسجي لقصّات شعر متمناة، توجد، على حد علمها، في قاع صندوق كرتونيّ، في مكان ما من غرفة المخزن التي بلا نوافذ في بيتها، إن ظل يجوز تسميته بيتًا.

ختمَ جريف بأن آدم قريب جدا من الثامنة عشرة إلى حد لا يوجد معه فارق. وتنطبق عليه الشروط التي حددها سكارمان، ويتمتع بأهلية جيليك. ثم اقتبس من **بالكومب إل جى** "فيما يقترب الأطفال من سن الرشد تزداد قدرتهم على اتخاذ قراراهم بخصوص العلاج الطبي. وبطبيعة الحال فإن المصلحة الفضلى للطفل الذي بلغ سنا معقولة وفهما وافيا أن يتخذ قراره بناءً على معلومات وأن تحترم المحكمة هذا القرار". على المحكمة ألا تأخذ في اعتبارها دينا معينا، مع احترام حرية العقيدة. كذلك لا يجوز لها الانجراف إلى المنطقة الخطرة حيث قد تحط من شأن الحق الأساسي للفرد في رفض العلاج الطبي.

أخيرًا جاء دور توفي وكان موجزًا. دفع نفسه بمساعدة عصاه إلى الوقوف. كان يُمثّل كُلًّا من الولد ومارينا جرين، الوصية على الولد، وكان صوته محايدا بمثابرة.. وضع زميلاه الحجج من كلا الطرفين

19 سير جون إيفيرت ميليه، رسام إنجليزي واقعي من القرن التاسع عشر من أشهر أعماله لوحة "المسيح في بيت أبويه" .

20 مجمع أكبر متاحف الفن في بريطانيا.

جيّدًا وغطّيا كل النقاط القانونية ذات الصلة. مسألة ذكاء آدم ليست محل نقاش. إطّلاعه واسع على النصوص المقدّسة كما تفهمها وتروّج لها طائفته.. من الأهمية بمكان التفكير في أنه سيتم ثمانية عشر عاما قريبا، مع ذلك تظل الحقيقة هي أنه قاصر. لذلك فالأمر كله يعود إلى تقدير حضرة القاضية لما تمنحه من وزن لآراء الفتى.

ساد الصمت حين جلس المحامي، وفيونا تركز نظرها على ملاحظاتها، تأمر أفكارها. أعانها توفي على تضييقها إلى قرار. قالت تخاطبه "مع الوضع في الاعتبار الظروف الفريدة للقضية، قرّرت أن أستمع لآدم هنري نفسه. ليست معرفته بالنصوص المقدسة هي ما تعنيني بقدر فهمه لموقفه وفيما سيواجهه إن حكمتُ برفض دعوى المستشفى. كذلك يجب أن يعرف أنه ليس بين يدي بيروقراطية لا شخصية. وأن أشرح له أنني مَن سيتخذ القرار بناءً على مصلحته الفضلى".

واصلتْ تُعلن أنها ذاهبة الآن مع السيّدة جرين إلى المستشفى في واندسورث، لتجلس بجوار فراش مرضه. لذلك سيتم تأجيل الجلسة لحين عودة فيونا بعد ساعات، حيث ستصدر حكمها اليوم في المحكمة علنًا.

ثلاثة

إنّ كل هذا، قررت فيونا في سيارة الأجرة التي استقلتها والعالقة الآن في زحام المرور على جسر واترلو، إما بشأن امرأة على حافة الهاوية ترتكب خطًا عاطفيًا في هيئة قرار مهني، أو بشأن ولد مُحرّر مِن عقائد طائفته، أو موجَّه إليها، بالتدخل الحميمي لمحكمة علمانية.. لم تعتقد أنه قد يكون كليهما. علق السؤال في ذهنها وهي تنظر إلى يسارها، مجرى النهر نحو كنيسة سان بول. المدّ يجري سريعا. ووردسوُرث[21]، على جسر قريب، كان على حق، في كلا الاتجاهين، الوعد الحضري الأفضل في العالم. حتى تحت المطر المتواصل. كانت مارينا جرين إلى جانبها، لم تتحدثا ما يزيد عن أحاديث مفككة وهما تغادران محكمة العدل. هكذا أفضل، لحفظ المسافة. وجرين، غافلة أو معتادة على منظر جريان النهر إلى يمينها، تركز في هاتفها، تقرأ، تنقر، عاقدة حاجبيها بالطريقة العصرية.

على الضفة الجنوبية أخيرًا، انعطفت السيارة وسارت بسرعة السير بحذاء النهر واستغرق الأمر حوالي خمسين دقيقة للوصول إلى قصر لامبيث. كان هاتف فيونا مغلقا، دفاعها الوحيد ضد كثرة تفقدها الرسائل والبريد الإلكتروني كل خمس دقائق. كتبتْ رسالة

21 ويليام ووردسوُرث شاعر إنجليزي رومانسي من القرن الثامن عشر.

لكنها لم ترسلها. لا يمكنك فعل هذا! لكنه يفعله، وعلامة التعجب توضح هذا جيّدًا – إنها حمقاء. نبرتها العاطفية، كما تسميها أحيانًا والتي تحب أن تراقبها، كانت جديدة تمامًا. مزيجًا من الوحدة والغضب، أو الشوق والغيظ. تريده أن يعود، ولا تريد أن تراه مرة أخرى أبدًا. العار عنصر أيضًا. لكن ماذا فعلتْ؟ فقدتْ نفسها في العمل، أهملتْ زوجها، تركت قضية طويلة واحدة تشتتها؟ لكنه هو أيضًا لديه عمله الخاص به، وأمزجته المتنوعة. لقد شعرتْ بمهانة ولا تريد أن يعرف أحد عن هذا شيئًا وسوف تتظاهر بأن كل شيء بخير. شعرتْ بوصمة السرية. أهذا هو، أهذا هو العار؟ ما أن يُعرَف الأمر سيكون على أحد أصدقاءها العاقلين إقناعها بالاتصال به وطلب تفسير مستحيل للأمر. ما زالت مرعوبة من سماع الأسوأ. تمعّنت الآن في كلّ فكرة عن الموقف عدّة مرّات، وما زالت تدور مجددا. تفكير الطاحونة، الذي لن ينقذها منه سوى النوم المُحفَّز دوائيًا. النّوم، أو تلك النزهة غير التقليديّة.

أخيرا صاروا على طريق واندسوُرث بسرعة عشرين ميلا في الساعة، السرعة القصوى لعَدْو فرس. مرّوا إلى يمينهم بسينما قديمة تحوّلت إلى ملاعب سكواش حيث لعب جاك ذات مرة، منذ سنوات كثيرة مضت، بأقصى جهده ليحظى بالترتيب الحادي عشر في بطولة لندن. وكانت هي، الزوجة الشابة المخلصة، ضجرة إلى حد ما، في موقعها خلف الجدران الزجاجية للملعب، تختلس النظر من حين لآخر إلى ملاحظاتها على قضية اغتصاب كانت تدافع عن المتهم فيها، وسوف تخسرها. ثمانية أعوام لموكّلها الغاضب. بالتأكيد لا لوم عليه تقريبًا. ومن حقه ألا يسامحها أبدًا.

لديها جهل اللندنيين الشماليين وازدرائهم للفوضى غير المحدودة الرثة للندن جنوب النهر. ولا حتى محطة مترو واحدة لتمنح معنى وصلة لبريّة من القرى تتمدّد منذ زمن طويل، لمحلات حزينة، لمآرب متوارية مبعثرة بين بيوت إدواردية متربة، وأبراج سكنية غاشمة وأوكار عصابات المخدرات. زحام الرصيف، عابرون باهتمامات غريبة، أبناء مدينة أخرى بعيدة، ليست مدينتها. كيف كانت ستعرف إنها في كلافام جانكشن بدون اللافتة الساخرة البالية أعلى يافطة متجر أدوات كهربية؟ لماذا قد يعيش المرء هنا. ميّزتْ في دخيلتها بُغضا مغلفا للبشر وذكّرتْ نفسها بمهمتها. كانت تزور فتى على فراش الموت.

تُحبُ المستشفيات. حين كانت في الثالثة عشرة من عمرها، كانت تحب أن تقود دراجتها بسرعة شديدة إلى المدرسة، فتسبّب شقًّا في غطاء بالوعة في طيرانها من أعلى مقبضَي الدرّاجة. ارتجاج طفيف وبعض آثار دم في بولها جعلاها تلزم المستشفى تحت الملاحظة.. لم يكن من مكان في قسم الأطفال – إذ كان فريق من الطلبة قد عاد من إسبانيا بفيروس معوي غير معروف. فأُودِعت قسم النساء وقضت معهن أسبوعًا حتى صدور نتيجة التحاليل. كان ذلك في منتصف الستينات، حين لم تكن روح العصر قد بدأت بعد في التشكيك في الهرمية الطبية المنشّاة والتخلي عنها. كان العنبر الفيكتوري الطراز ذو السقف العالي نظيفًا ومرتبًا، ممرضة العنبر الصارمة تحمي أصغر مرضاها، والسيدات الكبيرات، اللائي كان بعضهن، كما اتضح لها فيما بعد، في ثلاثينياتهن، عشقن فيونا واعتنين بها. لم تفكر قط في أمراضهن. كانت حيوانهن الأليف ففقدت نفسها في وجودها الجديد. سقط تمامًا روتينها اليومي القديم في البيت والمدرسة. حين اختفت

سيدة أو اثنتان من فراشهما ليلا لم تفكر في الأمر كثيرا. كانت في أمان تام من استئصال الرحم، والسرطان والموت، وقضت أسبوعا مجيدا بدون قلق أو ألم.

في الظهيرة، بعد المدرسة، صديقاتها كُنّ يزُرنها، في البدء خِفنَ قليلًا من فكرة زيارة المريض بشكل مستقل مثل البالغات، لكنهن حين تلاشت الرهبة، ثلاث أو أربع منهنّ كُنّ يتحلّقن حول فراش فيونا، يهزِزْنه ويقهقهن بضحكات مكتومة على لا شيء تقريبًا: الخطوات السريعة التي تأتي بها الممرضة عاقدة حاجبيها، التحية الودودة المبالغ فيها لسيدة عجوز بلا أسنان، أحد ما في الطرف البعيد من العنبر يتألم بشدة خلف ستارة.

قبل وبعد الغداء، كانت فيونا تجلس وحيدة في الغرفة النهاريّة بكتاب تمرينات في حِجرها، تخطط احتمالات مستقبلها- عازفة بيانو، طبيبة بيطرية، صحفية، مغنية. كانت تضع مخططات حيوات ممكنة. تتفرع خطوطها الأساسية إلى الجامعة، زوج بطل مكتنز، أطفال حالمين، مزرعة خراف، الحياة المقبلة. حينذاك لم تكن قد فكرت في القانون بعد.

يوم خروجها من المستشفى، جالت بزيها المدرسي في العنبر، حقيبتها تتدلى من على كتفها، ووالدتها تراقبها وهي تودّع المريضات والممرضات بالدموع وتعدهن بالبقاء على اتصال. في العقود التي تلت ذلك حالفها الحظ بأن ظلت بصحة جيدة، لم تدخل مستشفى سوى للزيارة. لكنها تعرف جيدا. أيًّا كان قَدْر المعاناة والخوف اللذين رأتهما في أفراد العائلة والأصدقاء المرضى، لا يمكنه إسقاط رابطة بعيدة بين المستشفيات والعَطف، أن تُعَامل كشخص ذي مكانة خاصة، أن

تكون في مأمن من الأسوأ. الآن إذًا، على نحو غير ملائم، فيما يلوح مبنى مستشفى إديث كافيل واندسوُرث العام ذو الستة والعشرين طابقًا، أعلى أشجار البلوط المبللة، على الجانب البعيد من الشارع، شعرت بلحظة من الحماسة السّارّة.

نظرتْ هي والأخصائية الاجتماعية أمامهما، تتجاهلان ماسحي الزجاج المتلعثمين، فيما تقترب السيارة من يافطة نيون زرقاء تعلن أن المساحة المتبقية في ساحة الانتظار تكفي ستمائة وخمس عشرة سيارة. ينتصب البرج الزجاجي الدائري على الطراز الياباني على مرتفع معشوشب كأنه قلعة عالية من العصر الحجري، مكسو باللون الأخضر لبذلة العمليات، ومشيّد بأموال باهظة مقتَرَضة، في الأيام الرخية الماضية لحزب العمال الجديد. اختفت الطوابق العليا في سحب الصيف المنخفضة.

فيما تسيران نحو المدخل، ركضَ أمامهما قِطٌّ من تحت سيارة متوقفة وبدأت مارينا جرين المحادثة مجدّدا لتعطي تقريرا كاملا عن قطّها هي، قط بريطاني جريء بشعر قصير تخافه كل كلاب المنطقة. لانت فيونا لتلك الشابة الوقورة بشعرها الرملي الخفيف التي تعيش في بيت تملكه البلدية المحلية مع أطفالها الثلاثة دون الخامسة وزوجها الشرطي. قطّها أمر جانبي. لم تكن لتسمح بمرور أيّ تحامل بينهما، بل كانت تعي حساسية قضيتهما المشتركة التي سرعان ما ستواجهانها.

منحت فيونا نفسها المزيد من الحرية وقالت "قِطٌّ ملأ مركزه. ليتك أخبرتِ الصغير آدم بهذه القصة".

قالت مارينا بسرعة، "لقد أخبرته بالفعل"، وصمتَتا مجددا. دلفتا إلى صحن جدرانه من الزجاج بارتفاع المبنى كله. تندفع أشجار

محلية ناضجة، مجوّعة على الأرجح، إلى أعلى بأمل بين الجموع، بين المقاعد والطاولات المبهجة لاستراحات القهوة والشطائر. في الأعلى ارتفعت أشجار أخرى من منصّات إسمنتيّة ناتئة في الجدران المقوسة. كانت أبعد النباتات شجيرات يبدو ظلها من خلف السطح الزجاجي على ارتفاع ثلاثمائة قدم. سارت المرأتان على ألواح الأرضية الخشبية الباهتة، مرّتا بمركز معلومات ومعرض أعمال فنية للمرضى الأطفال. انتهى بهما طريق طويل مستقيم من أحد المصاعد إلى طابق فيه مكتبة، ومحل زهور، وحامل جرائد، ومحل هدايا ومركز خدمة رجال أعمال تصطف جميعًا حول نافورة. تمتزج موسيقى العصر الجديد، هوائية ولا ضمنية، بصوت خرير مياه النافورة. النموذج، بالطبع، هو المطار الحديث. بوجهات مختلفة. عند هذا المستوى توجد دلالة صغيرة على المرض، ولا شيء عن التجهيزات الطبية. كان المرضى منتشرين على نحو لا بأس به بين الزوار وطاقم العمل. هنا وهناك يوجد أشخاص بأردية النوم، يبدون خليعين.

تتبعت فيونا ومارينا اللافتات بسرعة. أورام الأطفال، الطب النووي، الفصد. انعطفتا في رواق واسع مصقول أفضى بهما إلى مجموعة من المصاعد، استقلتا أحدها بصمت حتى الطابق التاسع، حيث أخذتا رواقًا مطابقًا بعد ثلاثة انعطافات إلى العناية المركزة. مرّتا بجدارية مرحة لقرود تتدلى في الغابة. الآن، أخيرًا، للهواء غير المتجدّد نكهة المستشفى، الطعام المسلوق المرفوع منذ وقت طويل، المطهرات، وشيء ما حُلْو أخف قليلا، ليس فاكهة ولا زهورا.

يقع منضد الممرضات مثل كشك حراسة في مواجهة مجموعة أبواب مغلقة مصطفة في شبه دائرة، لكل باب منهم نافذة للملاحظة.

جعل الصمت، الذي لا يكسره سوى همهمة الأجهزة الكهربية، وغياب الضوء الطبيعي الأمرَ يبدو كأنهم في ساعات الصباح الأولى. اندهشت الممرضتان الشابتان الجالستان إلى المكتب، إحداهما فلبينية، كما عرفت فيونا لاحقًا، والأخرى كاريبية، وحّيتا مارينا بضربتي كفٍ عاليتين. تحولت الأخصائية الاجتماعية فجأة إلى شخص آخر، امرأة زنجية نشطة في بشرة بيضاء.. استدارتْ لتُعرّفهما على القاضية "حضرة القاضية بنفسها". رفعتْ فيونا يدها عاليًا، لم تكن لتضرب بكفٍّ عالية دون أن تفقد وعيها بذاتها، وبدا هذا مفهوما. قوبلت تحيتها بود. اتفقن بمحادثة سريعة عند مكتب الممرضتين أن تبقى فيونا بالخارج وتدخل الأخصائية الاجتماعية لتشرح لآدم الأمر أوّلًا.

حين اختفتْ مارينا عبر الباب إلى أقصى اليمين، التفتتْ فيونا إلى الممرضتين وسألتْ عن مريضهما الصغير.

"إنه يتعلم العزف على القيثارة"، قالت الشابة الفلبينية، "ويقودنا إلى الجنون".

ضربتها زميلتها على فخذها بمسرحية قائلة "بل هو يخنق ديكًا روميا بالداخل".

نظرت الممرضتان إحداهما إلى الأخرى وضحكتا، لكن بهدوء، اعتبارًا لمرضاهما. كان من الواضح أنها مزحة قديمة مشفرة. انتظرت فيونا. كانت تشعر براحة كأنها في بيتها، لكنها عرفت أن هذا لن يستمر.

أخيرا قالت "ماذا عن مسألة نقل الدم تلك؟"

تلاشى المزاح كله، قالت الممرضة الكاريبية "أنا أصلي له كل يوم، وأقول له: إنّ الرّب لا يريدك أن تفعل هذا حبيبي، إنه يحبك في

جميع الأحوال. ويريدك أن تعيش."

قالت صديقتها بحزن "لقد قرّر بنفسه، يجب أن تُعْجبي به. أن يعيش من أجل مبادئه، هذا هو".

"يموت تقصدين! إنه لا يعرف شيئا، إنه دمية صغيرة مرتبكة".

قالت فيونا، "ماذا يقول حين تخبرينه بأن الرب يريده أن يعيش ؟"

"لا شيء. يبدو عليه كمن يقول لنفسه لماذا أستمع إليها؟"

حينها، فتحت مارينا الباب، رفعت يدا وعادت إلى الداخل مجددا.

قالت فيونا "حسنا، شكرا لكما".

استجابةً لجرس نداء، هرعت الممرضة الفلبينية نحو باب آخر، فيما تقول صديقتها "اذهبي إليه بالداخل سيدتي، أتمنى أن تثنيه عن رأيه، إنه ولد رائع".

إن كانت ذكرى فيونا عن دخول حجرة آدم هنري مشوشة فذلك بسبب التناقضات المُربكة. كان ثمة الكثير لملاحظته. المكان في شبه ظلمة ما عدا الضوء الساطع المركّز حول الفراش. مارينا تستقر على مقعد، في ركن من الغرفة، بمجلة لم تستطع تبيُّن عنوانها بسبب الظلمة. لأجهزة الإنعاش والقياس حول الفراش، بحواملها العالية، وأسلاكها وشاشاتها المضيئة حضور رقابي، صامت تقريبًا. لكن لم يكن ثمة صمت، لأن الولد كان قد بدأ بالفعل يتحدث إليها ما أن دخلتْ. كأن اللحظة تتبدّى وتنطلق بدونها، تتركها خلفها مشدوهة. كان يجلس على الفراش بظهره مستقيما، يستند على وسادات وضِعت على مسند ظهر معدني، كأنه في ضوء مصباح وحيد في عرض

مسرحيّ.. تنتشر فوضاه حوله على الأغطية وتمتد إلى الظلال، كتب ومطويات وقوس قيثارة، وحاسوب محمول، وسماعات أذن، وقشر برتقال، وأغلفة حلوى، وكيس مناديل، وجورب، ومفكرة وصفحات مسطّرة كثيرة مغطاة بالكتابة. فوضى المراهقين المعتادة، المألوفة لديها من الزيارات العائلية.

وجهه طويل ونحيل، باهت على نحو شبحي، لكنه جميل، بأهِلّة أرجوانية ناتئة، تذوي قليلا إلى الأبيض أسفل العينين، وشفتين ممتلئتين تبدوان أرجوانيتين أيضًا في الضوء المركز.. العينان ذاتهما بنفسجيتان وضخمتان. يوجد ثؤلول داكن أعلى إحدى الوجنتين، يبدو مصطنعًا كشامة حُسن مرسومة. بنْيته هشة، تبرز ذراعاه من رداء المستشفى كعصاتين. يتحدث بأنفاس لاهثة، بجدية، وفي تلك الثواني القليلة الأولى لم تفهم منه شيئا. ثم، حين انغلق الباب خلفها بتنهيدة روحانية، استوعبت أنه كان يخبرها باستغراب عن شعوره طوال الوقت بأنها ستزوره، يعتقد أن لديه تلك المَلَكة، هذا الشعور بالمستقبل، وقد قرأوا في المدرسة قصيدة في مادة الدراسات الدينية تقول إن المستقبل والحاضر والماضي جميعًا شيء واحد، وهذا ما يقوله الكتاب المقدس أيضًا. ويقول مدرس الكيمياء إن النسبية قد أثبتت أن الزمن وَهْم. وإن كان الرب والشعر والعلم يقولون الشيء نفسه، فلا بد أنه حقيقي. ألا تظنّ هي ذلك؟

أسند ظهره على الوسادات ليلتقط أنفاسه. كانت تقف عند قدم فراشه. اقتربت الآن من جانب الفراش حيث يوجد كرسيّ وقالت اسمها ومدّت يدها.. كانت يده باردة ورطبة. جلستْ وانتظرت أن يخبرها بالمزيد.. لكنه كان يميل برأسه إلى الخلف ويحدق في

السقف، ما زال يلتقط أنفاسه، وكما أدركتْ، ينتظر ردّها. لاحظتْ هسيس أحد الأجهزة خلفها، وكذلك صفيرًا سريعًا مكتومًا، على عتبة السمع، أو على الأقل سمعها هي. جهاز مراقبة القلب، المطفأ لإراحة المريض، كان يفضح استثارته.

مالَتْ إلى الأمام وقالت إنها تظن أنه مُحِقّ. من خلال خبرتها في المحكمة، إذا قال شهود مختلفون لم يقابل أحدهم الآخر الشيء نفسه عن حادثة ما، ففي الغالب يكون حقيقة.

ثم اضافتْ، "لكن الأمر ليس كذلك دائمًا. قد توجد أوهام جماعية. قد تتملك نفس الفكرة الزائفة أناسا لا يعرف بعضهم بعضًا. وقد يحدث في محاكم القانون كذلك."

"مثل ماذا؟"

كان ما زال يلتقط أنفاسه، وحتى هاتين الكلمتين كانتا جهدا. ظلّ نظره مصوبًا لأعلى، بعيدا عنها، بينما تفكر في مثال.

قالتْ "منذ عدة سنوات، في هذه البلاد، أخذت السلطات أطفالا من أبويهم، وحوكم الأبوان بتهمة تُدعى الإساءة الشيطانية، لقيامهم بأفعال رهيبة ضد أطفالهم في طقوس سرية لعبادة الشيطان. احتشد الجميع ضد الأبوين. الشرطة، والأخصائيون الاجتماعيون، ووكلاء النيابة، والصحف، وحتى القضاة. مع ذلك تبين فيما بعد أن كل هذا لا شيء. لا طقوس سرية، لا شيطان، لا إساءة. لا شيء من كل هذا حدث. كان خيالا. كل هؤلاء الخبراء والشخصيات المهمة كانوا يتشاركون وهمًا، حلمًا. في النهاية، عاد الجميع إلى صوابهم وشعروا بعار شديد، أو كان حَرِيًّا بهم ذلك. وببطء شديد، عاد الأطفال إلى بيتهم".

تحدثتْ فيونا كأنها هي الأخرى في حلم. شعرت بسكينة محببة، حتى حين فكرت أن مارينا، التي تراقب محادثتهما، ستُذهَل من ملاحظاتها. ماذا كانت القاضية تفعل، تتحدث مع الولد عن الإساءة ضد الأطفال خلال دقائق قليلة من مقابلته؟ أتريد أن تشير ضمنًا إلى أن الدين، دينه، وهم جماعي؟ كانت مارينا لتتوقع الافتتاحية المهمة، بعد حديث قصير مهذّب، شيئًا ما من قبيل "أنا متأكدة أنك تعرف لماذا أنا هنا"، لكنها، فيونا، بدلًا من ذلك، كانت تتجاذب أطراف الحديث بحرية، كأنها تتحدث مع زميل لها عن فضيحة مؤسسية منسية من الثمانينات. لم يكن ما تظنه مارينا يعنيها حقًّا. ستقوم بهذا بطريقتها الخاصة.

ما زال آدم راقدا ساكنا، يفكر فيما قالته. أخيرا أدار رأسه على الوسادة وقابلتْ عيناه عينيها. كانت قد بددت ما يكفي من وقارها بالفعل فأصرّت على ألا تشيح ببصرها بعيدًا. تنفّسه تحت السيطرة إلى حد ما، نظرته قاتمة ورصينة، يستحيل قراءتها. لا يهم هذا، لأنها كانت تشعر بهدوء أكثر من أيّ وقتٍ مضى طوال هذا اليوم. إن لم يكن هدوء، فهو تأنٍّ. ضغط محكمة تنتظر، ضرورة اتخاذ قرار سريع، تشخيص الاستشاري الطارئ، عَلقَ كل هذا مؤقتًا في هواء الغرفة الراكد فيما تراقب الولد وتنتظر أن يتحدث. كانت على صواب أن جاءت لتراه.

لم يكن من اللائق أن تظل تقابل نظرته لأكثر من نصف دقيقة أو نحو هذا، لكنها أخذت وقتها في تخيل، بتفكير مزدوج، ما يراه هو على الكرسي إلى جانب فراشه. شخص بالغ آخر له رأي، شخص بالغ

آخر تملّكته الرغبة في التدخل فيما لا يعنيه، هذه المرّة سيدة عجوز".

نظر بعيدا قبل أن يقول "مسألة الشيطان جدليّة بشكل مذهل. يضع فكرة غبية مثل أيٍّ كان اسمه، إساءة، شيطانية، في ذهن الناس، ثم يدعها تكتسب رفضا حتى يظن الجميع أنها غير موجودة رغم كل شيء، ثم يصير حرا لفعل ما يريد".

نتاج آخر لافتتاحيتها غير الموجّهة – لقد ضلّت في أراضيه. الشيطان شخصية حيوية في رؤية الشهود للعالم. هكذا قرأت أثناء تصفحها للمواد المرجعية، أنه هبط إلى الأرض في أكتوبر 1914، للاستعداد للنهاية، ليُعمل شروره من خلال الحكومات، والكنيسة الكاثوليكية، وعصبة المتحدة على وجه الخصوص، التي يشجعها على زرع الوفاق بين الأمم وفي الوقت نفسه يُعدّها لمعركة نهاية العالم: آرمجدون.

"هل هو حُرّ للشروع في قتلك باللوكيميا؟"

تساءلتْ إن كانت قد تحدثت بمباشرة شديدة لكنه أبدى ثباتًا مثل الكبار، جَلَدًا، وهو يقول "نعم، هذا النوع من الأشياء".

"وهل ستتركه؟"

دفع بنفسه بعيدا عن مسند الظهر ليجلس، ثم حك ذقنه بتفكُّر، في محاكاة ساخرة لبروفيسور متعجرف أو ممثل تليفزيوني كوميدي. كان يسخر منها.

"حسنا، بما أنّك سألتِ، أنا أنوي سحقه بطاعة أوامر الرب".

"أهذه إجابة بنعم؟"

تجاهل هذا، انتظر دقيقة، ثم قال "هل جئتِ لإقناعي بتغيير رأيي، لتُثنيني عن رأيي؟"

"كلا، إطلاقًا".

"أوه، نعم! ظني هذا!" تحول فجأة إلى الطفل الشقيّ المستفِز، يحتضن ركبتيه من تحت الأغطية، بوهن مع ذلك، اضْطَرب مجددا، جاهد ليُخرج صوته ساخرا وهو يقول "أرجوكِ سيدتي أعيديني إلى طريق الصواب".

"سأخبرك لماذا أنا هنا آدم. أنا أريد أن أتأكد من أنك تعرف ماذا تفعل. بعض الناس يعتقدون أنك صغير جدا لتتخذ قرارا مثل هذا وأنك تحت تأثير والديك والشيوخ. وآخرون يرونك ذكيًّا جدا وقادرًا على ذلك، وأن علينا أن ندعك تتخذ قرارك بنفسك".

تحت الضوء القوي، نهض بحيوية شديدة أمامها. تنسدل الخصلات المجعدة لشعره الأسود غير المصفّف على ياقة رداءه. عيناه الضخمتان الداكنتان تفحصانها بحركات متواصلة، تترصّدان أي أمارة خداع أو ملحوظات زائفة. شمّت من ملاءات الفراش رائحة بودرة التّلك أو الحساء، وفي رائحة نفَسه شيء ما رفيع ومعدني. أدويته.

"حسنا"، قال بلهفة. "وما رأيك حتى الآن؟ كيف حالي؟"

كان يتلاعب بها كما يشاء، يعيدها إلى أراض أخرى، إلى فضاء أكثر برية حيث يمكنه الرقص حولها، وإغواءها بقول شيء ما غير لائق ومثير مجددا. خطر لها أن هذا الزميل الصغير ذا الذهن الحاد يشعر بالضجر فقط، مُثبّطٌ، وأنه بالخطر الذي يهدد حياته، قد أعدّ لنفسه تمثيلية خيالية هو نجم كل مشاهدها، جلبت إلى فراشه موكبًا من الكبار المهمين والبارزين. إن كان الأمر كذلك، فقد أحبته أكثر. إذ لم يفتك المرض بحيويته.

"إذن، كيف حاله؟" قالتْ.

"جيّد جدا، حتى الآن"

واعية بالمخاطرة قالت: "أنت تعطي انطباعًا بأنّك شخص يعرف كيف يقرّر".

"شكرا لكِ" قال بصوت حلو على نحو ساخر.

"لكن ربما يكون مجرد انطباع".

"أحب أن أترك انطباعا جيدا".

لسلوكه ومزاحه وجه السخف المصاحِب للذكاء الحاد. مجرد دفاع ذاتي. كان مرعوبا بالطبع. حان وقت هزيمته في الكلام.

"وإن كنت تعرف كيف تقرر، فلن تعترض على مناقشة التفاصيل العملية".

"أخبريني بما لديكِ".

"يقول الاستشاري إنه لو استطاع نقل الدم إليك ورفع نِسَب التحاليل يمكنه إضافة دواءَين آخرين فعالين لعلاجك وسيكون لديك فرصة جيدة للشفاء التام وبسرعة معقولة".

"نعم".

"وبدون نقل دم قد تموت. أنت تفهم هذا".

"نعم".

"وتوجد احتمالية أخرى. أريد أن أتأكد أنك فكرت فيها جيدًا. ليست الموت آدم، بل الشفاء الجزئي. قد تفقد بصرك، وقد تتعرض لأضرار دماغية، أو فشل كلوي. هل سيسر الرب أن تُضحي أعمىً أو أبله وعلى جهاز غسيل الكلى لبقية حياتك؟"

تجاوز سؤالها الخط، الخط القانوني. نظرت خطفًا إلى حيث

تجلس مارينا في ركنِها المظلم. كانت تستخدم المجلة كمسند لمفكرة وتكتب بانهماك. فلم ترفع بصرها.

كان آدم يحدق في الفراغ أعلى رأس فيونا. بلل شفتيه بلسان أبيض وصوت نقر. نبرته حزينة الآن.

"إن كنتِ لا تؤمنين بالرب فلا تتحدثي عن ما يسره وما لا يسره".

"أنا لم أقل إنني لا أؤمن بالرب. أنا أريد أن أعرف إن كنت قد فكرت في هذا جيدا، أن تُضحي مريضا ومعاقا، ذهنيا أو بدنيا أو كلاهما، لبقية حياتك".

"سأكره هذا، سأكره هذا". أشاح بوجهه عنها سريعًا لإخفاء دموعه التي تكوّنت فجأة. "لكن إن كان هذا هو المقدّر فعليّ قبوله".

كان حزينًا، يثبت نظرته بعيدا عنها جيدا، خجلًا من رؤيتها كيف كان سهلًا تبديد عنجهيته. بدا مرفقه، معقوفا قليلًا، مستدقًّا وهشًا. على نحو لا علاقة له بالأمر، فكّرت في وصفات طعام، دجاج مُحمّر بالزبدة، والطرخون والليمون، وباذنجان مشوي بالطماطم والثوم، وبطاطس محمّرة قليلا في زيت الزيتون. أعيدوا هذا الولد إلى بيته وأطعِموه.

كانا قد تقدما قليلا على نحو مُجدٍ، وصلا إلى مرحلة جديدة وكانت على وشك أن تعقبها بسؤال آخر حين دخلت الممرضة الكاريبية وفتحت الباب على وسعه. يقف خلفها، وكأن مطبخ ذهنها هو ما استدعاه، شاب في سترة قطنية بنية، أكبر سنًا قليلًا من آدم، يقف بعربة يد تحمل أواني معدنية مصقولة.

"يمكنني تأجيل عشاءك"، قالت الممرضة. "لكن لنصف ساعة فقط".

"إن كان بإمكانك أن تتحمل". قالت فيونا لآدم.

"يمكنني أن أتحمل".

نهضتْ عن كرسيها لتسمح للممرضة بإجراء الفحوصات الروتينية وتسجيل مؤشرات مريضها. لا بد أنها لاحظت حالته العاطفية ورأت دلالتها حول عينيه، إذ مسحت خدّه بيدها قبل أن تغادر مباشرة وهمست له بصوت مسموع "استمع بانتباه لما تقوله هذه السيدة".

غيّرتْ تلك المقاطعة مزاج الغرفة. حين عادت فيونا إلى كرسيها لم تعد إلى سؤالها الذي كانت تنوي طرحه. بل بدلا من ذلك أشارت برأسها إلى الصفحات بين الفوضى على الفراش. "سمعتُ أنك تكتب شعرا".

توقعتْ أن يرفض إشارتها كتدخل أو تطفل، لكنه بدا مرتاحًا لصرفه عن الموضوع ورأت هي أن سلوكه مخلص وخالٍ تمامًا من الدفاعية. ولاحظتْ أيضًا سرعة تغير مزاجه.

"لقد أنهيت لتوي شيئا ما. يمكنني قراءتها لك إن أردتِ. إنها قصيرة حقًا. لكن انتظري دقيقة". انقلب على جنبه ليواجهها مباشرة. بلل شفتيه الجافتين قبل أن يتحدث، اللسان الأبيض الكريمي. في سياق آخر قد يُعد جميلًا، تحفة فنية.

قال بثقة "ماذا يدعونكِ في المحكمة؟ حضرة القاضية؟"

"سيدتي عادةً".

"سيدتي؟ هذا ساحرا هل لي أن أدعوكِ بهذا أنا أيضًا؟"

"فيونا تكفي".

"لكنني أريد أن أدعوكِ سيدتي، أرجوكِ".

"لا بأس، ماذا عن القصيدة؟"

عاد يستند بظهره على الوسادات ليلتقط أنفاسه، وانتظرته. أخيرا مد يده إلى ورقة بجانب ركبته، داهمته نوبة سعال واهن. حين انتهت كان صوته رفيعا ومحشرجًا. لا أثر لسخرية في أسلوب مخاطبته لها الآن.

"الغريب سيّدتي أنني لم أبدأ كتابة أفضل أشعاري إلا حين مَرِضت. لماذا هذا في رأيك؟"

"أخبرني أنتْ".

رفع كتفيه. "أحب الكتابة في منتصف الليل، حين يغلق المبنى بكامله أبوابه ولا يسمع سوى تلك الهمهمة العميقة الغريبة. لا يمكنك سماعها بالنهار. اسمعي".

أصاخا السمع. بالخارج، كان ما زال المتبقي من النهار أربع ساعات وساعة الذروة تقترب. بالداخل هنا كان ليلًا حالكًا، لكنها لم تسمع أية همهمة. كانت تدرك شيئا فشيئا أن سمته المميِّزة هي البراءة، براءة نقية ومثيرة، انفتاح طفولي قد يكون له صلة ما بالطبيعة المنغلقة للطائفة. التي كانت، كما قرأتْ، تحضُّ على إبعاد الأطفال بقدر الإمكان عن الأشخاص خارجها. أشبه كثيرا باليهود الأصوليين. أقاربها المراهقون أنفسهم، البنات والصبيان، سرعان ما حموا أنفسهم ببريق صرامة معروفة. كلمة "تمام" التي يُسرفون في قولها ساحرة بطريقتها الخاصة، ضرورية لعبورهم إلى الرشد. كان غياب التعامل مع العالم عن آدم يجعله عزيزا، لكنه يُضعفه. تأثّرت برقته، بطريقته في التحديق بضراوة في ورقته، ربما يحاول أن يسمع قصيدته مقدّمًا قبل أن يلقيها على مسامعها.. قررتْ أنه على الأرجح

محبوب جدا في بيته.

نظرَ إليها بسرعة، سحب نفسا وبدأ:

سقط حظي في أعمق حفرة
حين دق الشيطان بمطرقته في روحي
طرقات الحدّادين طويلة وبطيئة
وكنت مهزومًا.
لكن الشيطان حاك ثوبا من ذهب مطروق
يبرق بحب الرب بين طياته
الطريق مضاءة بنور ذهبي
وها قد نجوت.

انتظرتْ في حال كان ثمة المزيد، لكنه وضع ورقته، ومال بظهره إلى الخلف ونظر إلى السقف وهو يتحدث.

"كتبتُها بعد أن أخبرني أحد الشيوخ، السيّد كروسبي، أنه في حال حدوث الأسوأ، فسوف يكون لذلك أثرًا خياليًا على الجميع".

غمغمت فيونا متسائلة "هل قال لك هذا؟"

"سيملأ ذلك كنيستَنا بالحب".

لخّصت له الأمر قائلة "يأتي إليك الشيطان إذن لضربك بمطرقته، وبدون أن يقصد، يسوي روحك إلى صفحة ذهبية تعكس حب الرب على الجميع وفي هذا تكون نجاتك ولا يهم كثيرا أن تموت".

"سيدتي، لقد فهمتِها بدقة"، قال يكاد يصيح من الفرح. ثم توقّف ليلتقط أنفاسه مجددا. "لا أظن أن الممرضات فهمنها، ما عدا دونا، تلك التي كانت هنا منذ قليل. سيحاول السيّد كروسبي نشرها في برج المراقبة".

"سيكون ذلك رائعا. قد يكون لك مستقبل كشاعر".

تَفَكّر في هذا وابتسم.

"ما رأي والديك في أشعارك؟"

"أمي تحبها، وأبي يراها جيدة لكنها تستهلك قوتي اللازمة لشفائي". رقد على جانبه ليواجهها مجددًا، "لكن ماذا تظن سيدتي؟ إنها بعنوان: المطرقة".

كان لديه تلك اللهفة في نظرته، ذاك التوق إلى استحسانها، لحد جعلها تتردد. ثم قالت "رأيي أن بها لمحة، لمحة ضئيلة جدا بعد إذنك، من عبقرية شاعرية".

ظل يحدق فيها، تعبير وجهه لم يتبدل، يريد المزيد. كانت قد ظنت إنها تعرف ماذا تفعل، لكنها حينها فَرَغ ذهنها. لم تكن ترغب في تخييب أمله، ولم تكن معتادة على التحدث عن الشعر.

قال "ما الذي يجعلك تقولين هذا؟"

لم تكن تعرف، ليس على الفور، ستكون ممتنة لو عادت دونا لتتحرك حول الأجهزة وحول مريضها، فيما تذهب هي إلى النافذة غير القابلة للفتح وتنظر إلى حي واندسوُرث وتقرر ماذا تقول. لكن الممرضة لن تأتِ لخمس عشرة دقيقة أخرى. أملت فيونا أن تكتشف أفكارها حين تبدأ في قول شيء ما. مثلما كان الأمر في المدرسة، حينذاك، كان ذلك غالبا ما يفلح.

"التكوين، بنية القصيدة، وهذان البيتان القصيران اللذان يزنان الأشياء ككفتي ميزان، كنت مهزوما ثم نجوت، البيت الأخير يهزم البيت الأول، أعجبني هذا، وأعجبتني طرقات الحدادين...."

"طويلة وبطيئة".

"مم، طويلة وبطيئة جيدة. ومكثفة للغاية، على طريقة أفضل القصائد القصيرة". شعرتْ ببعض الثقة تعادوها. "ظني أن مغزاها أن البلاء، أو الأوقات العصيبة، قد يمكننا من الوصول إلى شيء ما. أليس ذلك صحيحًا؟"

"بلى".

"ولا أظن أن عليك أن تؤمن بالرب لتفهم قصيدة أو تحبها".

فكّر هنيهة ثم قال "ظني أن عليك ذلك"

قالت "أتظن أن عليك أن تعاني لتكون شاعرا جيدا؟"

"أعتقد أن كل الشعراء العظام لا بد أن يعانوا".

"فهمت".

تظاهرتْ أنها تعدّل كُمّها ونظرت في ساعة يدها دون أن يلاحظها. عليها أن تعود إلى المحكمة التي تنتظرها وتصدر حكمها.

لكنه رآها. "لا تذهبي بعد،" قال بهمس. "انتظري حتى يأتي عشاءي".

"وهو كذلك آدم، أخبرني، ما رأي والديك؟"

"أمّي أفضل في التعامل مع الأمر. إنها تتقبل الأمور، أتعرفين؟ التسليم بقضاء الرب. وهي عملية للغاية، تقوم بكل الترتيبات، تتحدث مع الأطباء، حظيت لي بتلك الغرفة الأكبر من الأخريات، وعثرت لي على قيثارة. لكن أبي مَن يبدو أنه يتمزق داخليا. إنه معتاد على إصدار الأوامر لتحريك الأرض والأشياء وعلى تسيير الأمور".

"ورفض نقل الدم؟"

"ماذا بشأنه؟"

"ماذا يقول لك والداك عن هذا؟"

"لا يوجد الكثير لقوله. نحن نعلم ما هو الصواب".

صدّقته تمامًا وهو يقول هذا وينظر إليها مباشرة بلا أثر لتحدٍّ في وجهه، كان لديه والداه والجماعة والشيوخ يعرفون ما هو الصواب. شعرتْ برأسها خفيفا على نحو غير سار، فارغًا تماما، ذهب عنه كل المعنى. أتتها الرؤية العدمية بأنّه لا يهم كثيرا في كلا الحالتين سواء عاش الولد أو مات. سيظل كل شيء على ما هو عليه. حزن عميق، ندم مر ربما، ذكريات محببة، ثم ستعود الحياة لدورانها وسيقل معنى ثلاثتهم شيئا فشيئا فيما يتقدم من يحبونهم في العمر ويموتون، حتى لا يعود أحد يعني شيئا أبدًا. كانت الأديان، أو النظم الأخلاقية، بما في ذلك نظامها هي، مثل قمم سلسلة جبلية عملاقة تُرى من مسافة بعيدة، لا يتضح منها القمة الأعلى أو الأكثر أهمية أو الأكثر حقيقية عن القمم الأخرى. على ماذا عليها أن تحكم؟

هزّتْ رأسها لتطرد الفكرة. فظهر بدلًا منها السؤال الذي كانت تهمّ بطرحه قبل دخول دونا. شعرت ما أن بدأت تطرحه، بتحسُّن.

"لقد شرح والدك بعض الجدالات الدينية، لكنني أريد أن أسمعها منك بكلماتك أنت. لماذا ترفض نقل الدم تحديدًا؟"

"لأنه خطأ".

"استمر".

"وقد أخبرنا الرب أنه خطأ".

"ولماذا هو خطأ؟"

"ما عِلّة أن يكون أمرًا ما خاطئًا؟ لأننا نعرف ذلك وحسب. التعذيب، القتل، الكذب، السرقة. حتى لو حصلنا على معلومات مفيدة من أشخاص سيئين بتعذيبهم، نظل نعرف أنه خطأ. نعرف

هذا لأن الرب علّمنا. حتى لو..."

"هل نقل الدم مثل التعذيب؟"

تململت مارينا في ركنها. اندفع آدم بعبارات لاهثة يوضّح رأيه. نقل الدم مثل التعذيب في كونهما خطأ. نحن نعرف هذا بقلوبنا. اقتبَس من سفري الأحبار والأعمال، تحدث عن كون الدم أساس الحياة، عن كلام الرب حرفيًا، عن الدنس. واصل التحدث كطالب ذكي يتخرج في المدرسة العليا، الطالب النجم في المناظرات المدرسية. تلمع عيناه الأرجوانيتان الداكنتان فيما تتحركان مع كلماته. ميزت فيونا عبارات معينة من كلام الأب. لكن آدم يرددها كمن يكتشف الحقائق الأساسية، كمن يؤسس للمذهب وليس أحد معتنقيه. كانت تستمع إلى عِظَة، عظة أُعيد إنتاجها بإخلاص وشغف. قال إنه يتحدث رسميا باسم طائفته حين يقول إنه هو وجماعته لا يريدون سوى أن يُتركوا لشأنهم ليعيشوا بما يعرفون أنّها الحقائق الدامغة.

استمعتْ فيونا بانتباه، نظرتها تقابل نظرته، تومئ من حين لآخر، وحين جاءت فترة صمت تلقائية أخيرا وقفتْ وقالت "فقط لأكون واضحة معك آدم. أنت تدرك أنني أنا وحدي من يقرر مصلحتك الفضلى. إن حكمت أن للمستشفى الحق في علاجك بالإكراه، ماذا سيكون رأيك؟"

كان يجلس في فراشه، يتنفس بصعوبة، وبدا واجما قليلا للسؤال، لكنه ابتسم وقال "سأظن أن سيدتي فضولية متطفلة".

كان تغيّرًا غير متوقّع في مسار الحوار، افتراءً سخيفًا جدًا، لاحظ اندهاشها، فضحكا هما الاثنان. حينها أخذت مارينا تجمع حقيبة يدها ومفكرتها وبدت ذاهلة.

نظرتْ فيونا في ساعة يدها، دون مواراة هذه المرة، وقالتْ "أعتقد أنك أوضحت حقًا أنك صاحب قرارك، كما قد يكون أيٌ منّا".

قال بجدية لائقة، "شكرا لكِ. سأخبر والديّ بذلك الليلة. لكن لا تذهبي. لم يأتِ عشائي بعد. ماذا عن قصيدة أخرى؟"

"آدم، يجب أن أعود إلى المحكمة". لكنها كانت حريصة طوال الوقت أن تسوق محادثتهما بعيدًا عن حالته الصحية. رأت القوس يرقد على الفراش، في الظل تقريبا، فقالت: "بسرعة، قبل أن أذهب، أرِني قيثارتك".

كانت حقيبة القيثارة على الأرض بجوار خزانة، تحت الفراش. رفعتْها ووضعتْها في حِجره.

قال "إنها قيثارة مدرسية للمبتدئين"، لكنه كان يُخرجها بحرص بالغ. عرضها عليها، فأبْدَيا معًا إعجابهما بخشب الجوز البني المنحني والمؤطر بالأسود والزخارف الرقيقة.

أراحتْ يدها على السطح الخمري ووضع هو يده قريبا من يدها. قالتْ "إنها آلات جميلة. لطالما وجدت شيئا ما إنسانيًّا في تكوينها".

كان يأخذ كتاب تمرينات المبتدئين من الحقيبة. لم تكن تنوي أن تجعله يعزف، لكنها لم تستطع منعه. مرضه وحماسته البريئة يجعلانه مُحصّنًا ضد الرفض.

"بقيتُ أتعلّم أربعة أسابيع بالضبط، وبإمكاني عزف عشرة ألحان". تفاخره أيضًا جعل من المستحيل إحباطه. كان يقلب الصفحات بصبر نافد، نظرت فيونا إلى مارينا ورفعتْ كتفيها.

"لكن هذا اللحن أصعبها، نغمتان حادتان، دي رئيسية". كانت تنظر إلى النوتة من أعلى بالمقلوب، فقالت "قد تكون بي ثانوية أيضا".

لم يسمعها. كان بالفعل يعتدل في جلسته، بالقيثارة أسفل ذقنه، ودون أن يدوزن الأوتار، بدأ العزف. تعرفه جيدا ذلك اللحن الحزين الرائع، المزاج الأيرلندي التقليدي، لحن بنجامين بريتن[22] الذي عزفته بمصاحبة غناء مارك لقصيدة ييتس[23] "عند أشجار الصفصاف"، كان أحد فواصلهما الخاصة. عزفه آدم كشطًا بدون تطويل بالطبع لكن درجة علو النغمات حقيقية حتى وإن كان اثنان أو ثلاثة منها خطأ.. كان اللحن الحزين والطريقة التي يُعزَف بها، المليئة بالأمل، والبدائية للغاية، يعبران عن كل شيء بدأت لتوها تفهمه عن الفتى. تحفظ كلمات ندم الشاعر عن ظهر قلب. لكنني كنت صغيرا وأحمق... حرّكها عزفه، وأذهلها أيضًا. لأن تعلُّم القيثارة أو أي آلة موسيقية تصرُّف يحمل أملًا، يتضمن المستقبل.

حين أنهى العزف، حيّته هي ومارينا فانحنى لهما وهو على فراشه بطريقة مضحكة.

"هائل!"

"مذهل!"

"وأربعة أسابيع فقط!"

أضافت فيونا تعليقا تقنيًا لتتحكم في العاطفة التي شعرت بها. "تذكّر أن في هذا المفتاح السي حادة".

"أوه نعم. أشياء كثيرة جدا للتفكير فيها في وقت واحد".

عرَضتْ حينها عرضًا بعيدًا تماما عن أي شيء قد تتوقعه من نفسها، عرضًا يهدّد بالحطّ من شأن سلطتها. ربما كان ما شجعها

22 بنجامين بريتن (1913-1976) موسيقار إنجليزي له العديد من الأوبرات والأغاني الشعبية ومن أعماله سيمفونية الربيع.

23 ويليام باتلر ييتس (1865-1939) شاعر إنجليزي وكاتب مسرحي حائز على جائزة نوبل في الأدب عام 1923.

عليه السياق نفسه، الغرفة المعزولة عن العالم في غسق سرمدي، المزاج الاسترسالي، لكنه كان أداء آدم قبل كل شيء، التفاني في نظرته المشدودة، الأصوات المخدوشة غير الخبيرة التي يصدرها، تعبر بوضوح عن حنين ساذج، ما أثّر فيها بعمق وحفّزّ عرضها العفوي.

"اعزفها إذًا مرة أخرى، وسأغني معك".

نهضتْ مارينا على قدميها، عاقدة حاجبيها، ربما تتساءل إن كان عليها التدخل.

قال آدم "لم أكن أعرف أنّ لها كلمات"

"أوه نعم، عدة بيوت شعر رائعة".

بجدية مؤثِرة، رفع القيثارة إلى ذقنه ونظر إليها. حين بدأ العزف سرّها أن سمعت صوتها يعثر على النغمات العالية بسرعة. لطالما ظلت فخورة بصوتها سرًا، ولم يتسن لها فُرصًا كثيرة لاستخدامه خارج كورال جمعية جراي. حين كانت ما زالت عضوة. هذه المرة تذكر عازف القيثارة نغمة السي الحادة. كانا في المقطع الأول يبدآن، باعتذارية تقريبًا، لكنهما في المقطع الثاني تقابلت أعينهما، ونسيا كل شيء عن مارينا، التي كانت تقف عند الباب الآن، مذهولة، وغنت فيونا بصوت أعلى وصارت حركات قوس آدم الخرقاء أكثر جرأة، وغمرتهما معًا الروح الحزينة للندم على ما فات.

في حقل عند النهر، وقفتُ أنا وحبيبتي
على كتفي المنحني أراحت كفّها البيضاء الثلجية
قالت لي خذ الحياة بسهولة كما ينمو العشب في القناطر
لكنني كنت صغيرا وأحمقًا وأنا الآن غارق في الدموع

حين أنهيا كان الفتى ذو السترة البنية يدفع عربة اليد إلى الغرفة

وأغطية الأطباق المعدنية اللامعة تصدر صلصلة مبهجة. كانت مارينا قد خرجت إلى مخفر الممرضات.

قال آدم " أُغنية على كتفي المنحني جيّدة أليست كذلك؟ دعينا نؤديها مرة أخرى".

هزّتْ فيونا رأسها وهي تأخذ منه القيثارة وتضعها في حقيبتها. ثم اقتبست له "قالت خذ الحياة بسهولة".

"ابقي لوقت أطول قليلا فقط أرجوكِ".

"علىّ أن أذهب الآن حقًّا يا آدم".

"دعيني أسجّل بريدك الإلكتروني إذن".

"القاضية ماي، مجمع محاكم العدل الملكية، إستراند. ستجدني هناك".

مسّت بيدها سريعًا معصمه النحيل البارد، ثم، لئلّا تسمح له باعتراض أو توسل آخر، سارت نحو الباب دون أن تنظر إلى الخلف وتجاهلتْ السؤال الذي ردده بضعف خلفها.

"هل ستعودين مرة أخرى؟"

***

كانت رحلة العودة إلى وسط لندن أسرع ولم تتحدث المرأتان خلالها. أجْرَت مارينا عبر الهاتف مكالمة طويلة مع زوجها وأطفالها، فيما كانت فيونا تسجل ملاحظات خاصة بحكمها. دخلت محكمة العدل من المدخل الرئيسي، وتوجهت مباشرة إلى غرفتها، حيث كان نايجل باولينج في انتظارها. أكّد على إنجاز كافة الترتيبات لانعقاد محكمة الاستئناف غدًا، إن اقتضى الأمر، على أساس الإشعار بذلك

خلال ساعة. كذلك، تم نقل الجلسة لقاعة محكمة أكبر، هذا المساء فقط، لتسع جميع الصحفيين.

حين دخلتُ ونهض الجميع كانت الساعة التاسعة والربع. أحست فيما يجلس الحضور بنفاد صبر الصحفيين. هذا ليس توقيتا جيدًا بالنسبة للصحف. في أحسن الأحوال، إن أوجز القاضي، قد تظهر الأخبار في النسخة المسائية. أمامها مباشرة الممثلون القانونيون للأطراف ومارينا جرين بترتيبهم السابق، في مساحة أوسع، لكن السيّد هنري كان وحده، بدون زوجته.

بدأتْ فيونا فور جلوسها:

"إن هيئة مستشفى تطلب من المحكمة إذنًا عاجلًا بعلاج الفتى المراهق، آدم، بالإكراه، بإجراءات طبية معتادة ولائقة، تشمل في تلك الحالة نقل الدم. والمستشفى يريد هذا الإذن بأمر خاص ومحدد. وقد كانت الدعوى المقدمة إليّ منذ ثمانية وأربعين ساعة غيابية. وكقاضية نائبة، أمنح المستشفى الإذن للقيام بما يقتضي عليهم. لقد عدت لتوي من زيارة لآدم. في المستشفى، بمعيّة السيّدة مارينا جرين من الكافكاس. جلست معه لمدة ساعة. مرضه الشديد أمر واضح، ومع ذلك يظل ذكاءه بمنأى تام عن أي ضعف، وقد استطاع أن يعبر عن رأيه لي بوضوح شديد. كذلك أخبر الاستشاري المعالج بهذه المحكمة أن غدًا ستصبح حالة آدم مسألة حياة أو موت، لذلك أصدر حكمي في هذا الوقت المتأخر من مساء الثلاثاء".

ثم أسمتْ وشكرت المحامين ومساعديهم ومارينا جرين والمستشفى على مساعدتها في اتخاذ قرار في قضية صعبة وعاجلة كهذه.

"إن الأبوَين يعترضان على دعوى المستشفى بناءً على عقيدتهما الدينية، التي يعتنقانها بهدوء وبعمق. وابنهما أيضًا يعترض ولديه فهم جيّد للمبادئ الدينية مع تمتعه بقدر من الرشد والفصاحة يفوق أقرانه".

ثم انطلقت في التاريخ الطبي، اللوكيميا، العلاج المشار إليه المعروف بنتائجه الجيدة على مستوى عام. لكن دواءين اثنين من الأدوية المستخدمة عادةً ما يسببان الأنيميا، التي يجب مواجهتها بنقل الدم. لخصت شهادة الاستشاري، وأكدت بالخصوص على انخفاض نسبة الهيموجلوبين والتشخيص المريع في حال عدم إعادة رفعها. يمكنها هي شخصيا التأكيد على أن صعوبة تنفّس آدم صارت الآن واضحة.

يعتمد رفض الدعوى على ثلاث حجج قانونية. إن آدم لا يفصله عن عيد ميلاده الثامن عشر سوى ثلاثة أشهر، وأنه ذكي للغاية، ويفهم عواقب قراره ويجب أن يتمتع بأهلية جيليك. بعبارة أخرى، اعتبار قراره مثل قرار الفرد البالغ. وإن رفض العلاج الطبي حق أساسي من حقوق الإنسان ولذلك ينبغي على المحكمة الامتناع عن التدخل. وثالثًا أن عقيدة آدم الدينية أصلية ويجب احترامها.

تناولتْ فيونا كل حجة على حدة. شكرت محامي الأبوين على لفت نظرها إلى المادة 8 من قانون الأسرة المعدل لسنة 1969: إن موافقة قاصر يبلغ من العمر 16 سنة على علاجه "ينبغي اعتبارها واجبة كما لو كان قد أتم سن الرشد". حددت شروط أهلية جيليك، مقتبسة من سكارمان طوال الوقت. حددت الفارق بين موافقة طفل دون السادسة عشرة على العلاج، ضد إرادة أبويه ربما، ورفض

طفل دون الثامنة عشرة علاجا سينقذ حياته. من بين ما توصلت إليه هذا المساء، هل كان آدم على دراية جيدة بعواقب التسليم لإرادته وإرادة أبويه؟

"إنه بلا شك طفل استثنائي. وقد أقول أيضًا، كما قالت إحدى الممرضات اليوم، إنه ولد رائع، أنا متأكدة أن والديه يتفقان معي. لديه بصيرة حادة بالنسبة لفتى في السابعة عشرة. لكنني وجدت لديه فهما قليلا للمِحنة التي سيواجهها، للخوف الذي سيجتاحه بازدياد معاناته وضعفه. بل إنه لديه في الحقيقة تصورا رومانسيا عن المعاناة. مع ذلك..."

تركتْ الكلمة عالقة. واحتد الصمت في القاعة وهي تنظر في ملاحظاتها.

"مع ذلك، لا يعنيني هنا إن كان لديه إدراك كامل لموقفه أم لا. لأنني أسترشد بدلا من ذلك بقرار رئيس قضاة العدل، في قضية الطفل آدم، حكمٌ يخصّ قاصرًا من شهود يهوه أيضًا، قال فيه "إن رفاه الطفل هو ما يهيمن على قراري. ويجب أن أقرر ما يُمليه رفاهه". يتبلور هذا القرار جيدا في الديباجة الواضحة لقانون الطفل لعام 1989 التي تنص في سطورها الأولى على أن الاعتبار الأول لرفاه الطفل. وأنا أعتبر أن الرفاه يشمل "السعادة" و"المصلحة". كما ينبغي عليّ أيضًا الوضع في الاعتبار رغبة آدم التي عبر لي عنها بوضوح كما ذكرت من قبل، والتي أخبر بها والده هذه المحكمة، أن آدم بناءً على مذهبه الديني المساق من تفسيرات خاصة لثلاث فقرات من الكتاب المقدس، يرفض نقل الدم الذي في الغالب سينقذ حياته".

"إنه حق أساسي للبالغين أن يرفضوا العلاج. وأن علاج

شخص بالغ بالإكراه يعتبر جرما وتعديًا. وأن آدم يقترب من السن التي يمكنه فيها اتخاذ قراره بنفسه. وأن حقيقة استعداده للموت في سبيل عقيدته الدينية تثبت عمق تلك العقيدة. كما ينُمّ استعداد أبويه للتضحية بولدهما الغالي الرائع من أجل إيمانهما عن قوة اعتصام شهود يهوه بدينهم".

توقفتْ مجددا وانتظرها الجمهور.

"إنها تحديدا تلك القوة التي تستوقفني، لأن آدم في السابعة عشرة تعيّن عليه الخوض قليلًا في حقل الأفكار الدينية والفلسفية الشائك. ليس من أساليب تلك الطائفة المسيحية التشجيع على الجدل المفتوح والاعتراض على الجماعة بصفة عامة، ما يشيرون إليه بعبارة "الشاة الأخرى". ولا أعتقد أن تفكير آدم وآراءه من صنعه وحده تمامًا. ظلّت طفولته عرضا مستمرا أحادي اللون لوجهة نظر إلزامية عن العالم ولا يمكنه سوى أن يكون متأثرا بها. لن يعزز رفاهه أن يعاني ميتة مؤلمة وغير ضرورية، ليصبح بذلك شهيدا لإيمانه. لدى شهود يهوه، مثل الديانات الأخرى، رؤية واضحة لما ينتظرنا بعد الموت، وتنبؤاتها عن نهاية العالم والآخرة، صارمة أيضًا وتفصيلية للغاية. هذه المحكمة لا تعتد بالآراء عن الحياة الأخرى، التي سيكتشفها آدم في جميع الأحوال، أو قد يفشل في اكتشافها. في هذه الأثناء، بفرض تعافيه جيدا، سيعزز رفاهَه جيدا حبه للشعر، وشغفه الجديد بتعلم العزف على القيثارة، وممارسته ذكاءه الحيوي والتعبير عن طبيعته الظريفة الحنون، وكل الحب والحياة اللذان ينتظرانه. باختصار، أجد أن آدم ووالديه وشيوخ كنيستهم قد اتخذوا قرارا معاديًا لرفاه آدم، الذي توليه هذه المحكمة اعتبارها الأول. وينبغي حمايته من

هذا القرار. ينبغي حمايته من دينه ومن نفسه.

"لم تكن تلك مسألة يسهل تسويتها. لقد وليت اعتبارا كبير لسن آدم، ولاحترام عقيدته، ولكرامة الفرد المتضمنة في الحق في رفض العلاج. وفي تقديري أن حياته أغلى من كرامته.

"لذلك، أرفض ما يريده آدم ووالداه. وتوجيهاتي وقراري كما يلي: إن موافقة المدّعي عليه الأول والثاني، أي الوالدين، وموافقة المدّعي عليه الثالث الذي هو آدم على نقل الدم، لا يعوّل عليهما، لذلك فمن حق المستشفى المدّعي استئناف علاج آدم الطبي كما تقتضي الضرورة، بما في ذلك إمكانية نقل الدم ومنتجاته إليه.

***

كانت حوالي الحادية عشرة حين بدأت فيونا رحلة العودة إلى بيتها من مجمع محاكم العدل. كانت البوابات في هذه الساعة مغلقة، ولم يمكنها أخذ طريق مختصر عبر جمعية لينكولن. قبل الانعطاف إلى جادة دار المحفوظات، أخذت طريقا مختصرا من فليت ستريت إلى متجر يفتح طوال الليل لشراء وجبة سريعة التجهيز. كان ذلك ليبدو، ليلة أمس، مهمّة كئيبة، لكنها الآن تشعر إنها خالية البال تقريبا، ربما لأنها لم تأكل جيدا خلال اليومين الماضيين. في المتجر المكدّس والمضاء بقوة شديدة، كانت السلع المغلفة المبهرجة بالأحمر والأزرق والبنفسجي الفاقع، وانفجارات الأصفر، تنبض على الأرفف مع إيقاع نبضها هي. اشترت فطيرة سمك مجمدة، وجمعت بعض الفاكهة في يدها قبل أن تُقرّر ما تريد منها. عند ماكينة الدفع ارتبكت في الإمساك بنقودها وسقطت منها بعض عملات على الأرض، جمعها الشاب الآسيوي

الرشيق بقدمه بهدوء، وابتسم لها برعاية وهو يضع العملات في راحتها. تخيلت نفسها في عينيه وهو يلتقط نظرتها المتعبة، يتجاهل أو يجهل معنى تصميم سترتها المصمّمة خصّيصًا، يرى بوضوح إحدى تلك الدجاجات غير المؤذيات اللائي يأكلن ويعشن وحدهن، ولم يعدن قادرات تمامًا على التعامل مع العالم في وقت متأخر جدًا من الليل.

كانت تدندن "عند أشجار الصفصاف" وهي تسير في هاي هلبورن. يبعث كيس الفاكهة وعلبة عشائها الثقيل الذي يتأرجح عند ساقها على الراحة. ستجهز الفطيرة في المايكروويف ريثما تجهز هي للفراش، ستأكل وهي ترتدي روبها أمام قناة إخبارية، وبعدها لن يحول شيء بينها وبين النوم. لا محفز كيميائي. غدًا طلاق بالغ التعقيد، عازف جيتار شهير، وزوجة شهيرة تقريبا، مغنية عاطفية، بمحامٍ ممتاز يريد نسبة أكبر من ملايين الزوج السبعة والعشرين، حلوى غزل البنات مقارنة بقضية اليوم، لكن اهتمام الصحافة سيكون بنفس الكثافة، وسيكون القانون بنفس الصرامة.

انعطفتْ إلى جمعية جراي، ملاذها المألوف. يسرها دائما موات ضجة المدينة ببطء فيما تتوغل بين مبانيها. مجتمع ذو بوابات من نوع تاريخي، قلعة للمحامين والقضاة الذين هم أيضًا موسيقيون، ومتذوّقو نبيذ، وكُتّاب محتملون، وصيادو سمك بالذباب، وحكّاؤون. عُش للنميمة والمواهب، وحديقة مبهجة ما زالت تسكنها الروح العاقلة لفرانسيس بيكون[24]. لطالما أحبت المكان هنا ولا ترغب في مغادرته قط.

دخلتْ بنايتها، لاحظت زر ضوء الدّرَج على وضع التشغيل

24 فرانسيس بيكون، فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي من القرن السابع عشر معروف بقيادته للثورة العلمية بفلسفته الجديدة القائمة على الملاحظة والتجريب، وكان يعيش في جمعية جراي.

المستمر، لئلا ينطفئ تلقائيا حسب توقيته، صعدتْ إلى الطابق الثاني، سمعت الصرير الحاد المألوف على الدّرجات الرابعة والسابعة، وفي نهاية بسُطة طابقها رأت كلّ شيء وفهمت فورًا. كان زوجها هناك، ينهض على قدميه، كتاب في يديه، وخلفه بجوار الحائط، حقيبة سفره يستخدمها كمقعد، وسترته على الأرض بجوار حقيبة أوراقه، التي كانت مفتوحة، وتبرز منها أوراق. عالق بالخارج، يعمل فيما ينتظر. ولماذا لا؟ بدا مبعْثَرًا وعصبيًا. ظل عالقا بالخارج ومنتظرا لوقت طويل للغاية. من الواضح أنه لم يعد لجلب قمصان نظيفة وكتب، ليس وحقيبة ملابسه معه. فكرتها الأولى التي خطرت لها، فكرة قاتمة وأنانية، أن عليها الآن اقتسام عشاءها المفرد مع شخص آخر. ثم فكرت أنها لن تفعل ذلك. تفضّل ألا تأكل.

صعدتْ الدرجات القليلة الأخيرة إلى البسطة، لم تقل شيئا وهي تأخذ مفاتيحها، المفاتيح الجديدة، من حقيبتها، وتتجاوزه نحو الباب. الأمر له أن يتحدّث أوّلًا.

قال بنبرته الخاصة بالمشاكسة. "ظللت أتصل بك طوال المساء".

فتحتْ الباب ودخلتْ دون أن تنظر خلفها وسارتْ إلى المطبخ. تخلّصتْ من حِملها على الطاولة وتوقفتْ هناك. قلبها يدق بقوة شديدة. سمعتْ تأفّفه حين يكون في مزاجه العصبي وهو يُدخل أمتعته. إن كان ثمة ضرورة للمواجهة، التي لا تريدها، فليس الآن، والمطبخ مساحة محدودة للغاية لذلك. أخذتْ حقيبة أوراقها وذهبتْ بسرعة إلى غرفة الجلوس، إلى مكانها المعتاد على كرسيّ الشيزلونج، نشرتْ أوراقًا قليلة حولها كنوع من الحماية. بدونها لن تعرف ماذا تفعل بنفسها.

بدتْ لها جلبته في جرّ حقيبته بطول الردهة إلى غرفة نومهما حركة افتتاحية. وإهانة. من باب العادة، خلعتْ حذاءها، وأمسكتْ بورقة عشوائيًا. يملُك عازف الجيتار فيلّا مجهزة جيدا في ماربيلا. في الغالب تتمّناها المغنية العاطفية لنفسها. لكنه يملكها قبل زواجهما، من زوجته السابقة مقابل إخلاء منزل الزوجية بوسط لندن. وتلك الزوجة السابقة كانت تملكها بتسوية طلاق مع زوجها الأول. لا صلة له بالأمر. لم تستطع منع نفسها من الحُكم.

سمعتْ صرير ألواح الأرضية فرفعتْ بصرها. توقّف جاك عند الباب قبل أن يتوجه نحو بوفيه المشروبات. يرتدي سروال جينز وقميصًا أبيض مفتوحة أزراره حتى الصدر. هل تخيّل أنه مرغوب فيه؟ لاحظتْ أنه لم يحلق ذقنه. حتى من على بُعد طول الغرفة تبدو شعيرات ذقنه بيضاء ورمادية. مثير للشفقة، كان كلاهما مثيرا للشفقة. صبّ لنفسه ويسكي ورفع الزجاجة نحوها. هزتْ رأسها. رفع كتفيه وسار نحو مقعده. كانت هادمة ملذات، بلا حِس للمناسبات. جلس بتنهيدة راحة بَيْتيّة. مقعده، مقعده، الحياة الزوجية مجددا. نظرتْ إلى الورقة في يدها، شهادة الزوجة عن عالم زوجها المفضّل، الذي يستحيل عليها المشاركة فيه. ساد الصمت وهو يشرب وهي تحدّق في الغرفة في لا شيء على وجه الخصوص.

ثم قال "انظري، فيونا، أنا أحبك".

بعد عدة ثوان قالت "أنا أُفضِّل أن تنام في غرفة الضيوف".

أطرق برأسه بتسليم. "سأنقل حقيبتي".

لم ينهضْ. كلاهما يعرف حيوية المسكوت عنه، الذي كانت روحه غير المرئية ترقص حولهما الآن. لم تطرده خارج الشقة، وافقت

ضمنًا على نومه هنا. لم يخبرها بعد هل طردته إحصائيته أم كان هو من غيَّر رأيه، أم أنه انغمس في خبرات من النشوة تكفيه حتى يُقبَر. لم يأت أحد على ذكر مسألة تغيير القفل. الأرجح أنه يفكر في بقاءِها بالخارج لوقت متأخر هكذا. لا يمكنها تحمُّل رؤيته. ما يقتضيه الأمر الآن هو الشجار، شجار بفصول متعددة تمتد عبر الزمن. قد يتضمن الأمر بعض الإعلانات الحاقدة، قد يأتي ندمه مغلّفا بالشكوى، قد تنقضي شهور قبل أن تسمح له بالعودة إلى فراشها، قد يظل شبح المرأة الأخرى بينهما إلى الأبد. لكنهما في الغالب سيجدان، بطريقة أو أخرى، طريقا للعودة إلى ما كان بينهما ذات مرة.

أجهدها التفكير في الجهد الخارق اللازم لهذا، وقابلية العملية كلها للتوقّع، لكنها مع ذلك إلزامية، كعقد عليها الوفاء به بكتابة دليل قانوني ممل وضروري. رأتْ أنها قد ترغب في كأس رغم كل شيء، لكن قد يبدو هذا أقرب إلى الاحتفال. كانت بعيدة كل البعد عن التصالح. وقبل هذا وذاك، لم تعد تحتمل سماعه يقول إنه يحبها. أرادتْ أن تكون في الفراش وحدها، على ظهرها في الظلام، تقضم بعض الفاكهة، وتترك بقاياها تسقط على الأرض، ثم تغطّ في النوم. ماذا يمنعها؟ وقفتْ وبدأتْ تجمع أوراقها، وحينها بدأ يتحدث.

كان فيضاً، جزء منه اعتذار، وجزء تبرير للذات، سمعتْ بعضه من قبل. فَنَاءُه، سنوات إخلاصه التام، فضوله الطاغي عن كيف قد يكون الأمر، لقد أدرك خطأه ما أن غادر تلك الليلة تقريبًا، ما أن وصل شقة ميلاني. أدرك أنها غريبة عنه، لا يفهمها، وحين دخلا غرفتها...

رفعتْ يدها تحذره. لا تريد أن تسمع شيئا عن غرفة النوم.

سكَتَ، فكّر، ثم واصل. إنه أبله، أدرك هذا، ليسوقه احتياجه الجنسي، كان عليه أن يعود أدراجه تلك الليلة، حين فتحت له بابها، لكنه أُحرِجَ وشعرَ أن عليه أن يواصل.

قبضتْ فيونا على حقيبة أوراقها عند بطنها، تقف في وسط الغرفة، تراقبه، تتساءل كيف توقفه. أذهلها أنه حتى الآن، والمسرحية الزوجية الراقية في مشهدها الافتتاحي، ما زالت الأغنية الأيرلندية تتردد في ذهنها، تتسارع مع إيقاع خطاب جاك، فتبدو ميكانيكية واحتفالية في آن، كأنها تصدر عن بيانولا. كانت مشاعرها مرتبكة، مغبشة بالإنهاك ويصعب تحديدها طالما ظلت كلمات زوجها الأسيانة تُغرقها. شعرت بشيء ما أقل من الحنق أو الاحتقار الآسف، لكنه أكثر من الاستسلام التام.

"نعم،" قال، ما أن وصل إلى شقة ميلاني شعر أن عليه بخيبته أن يواصل ما بدأه. "وكلما ضاق الفخ، كنت أتأكد من بلاهتي في المخاطرة بكل ما لدينا، وكل ما صنعناه معًا، هذا الحب الذي..."

"كان يومي طويلا". قالت وعبرتْ الغرفة. "سأضع حقيبتك في الردهة".

توقفتْ في المطبخ لتأخذ تفاحة وموزة من مشترياتها على الطاولة، تذكرتْ وهي تسير نحو غرفة النوم، والفاكهة في يدها، نُزهتها السعيدة نسبيًا من العمل إلى البيت. استشعرتْ بوادر راحة ما. يصعُب استردادها الآن. فتحتْ الباب ورأت حقيبته تقف بجهامة على عجلاتها بجوار الفراش. حينها وضح شعورها إزاء عودة جاك. بسيط جدا. لقد خيّب أملها لأنه لم يبق بعيدا. لوقت أطول قليلا. لا شيء أكثر من هذا، خيبة أمل.

أربعة

كان انطباعها الخاص، الذي لا تدعمه الحقائق، أنه في أواخر صيف 2012، ارتفعتْ معدلات الطلاق والانفصال في بريطانيا العظمى كموجة ربيع عملاقة، تكنس معها الأسر والممتلكات والأحلام القريبة، وتغرق من ليس لديهم غريزة بقاء قوية. وعود الحب منكرة أو يعاد صياغتها، حين يسهل على الرفاق الاختصام أمام القانون من خلف محاميين، ناهيك عن التكلفة، ليتنازعوا بشراسة على أشياء منزلية مهملة، يسهل استبدال الثقة بكلمة "ترتيبات" الدقيقة. في أذهان الحكماء، تُعاد صياغة تاريخ الزواج ليظل دوما ملعونًا، الحب انعكاس للوهم. والأطفال؟ بطاقات في اللعبة، بطاقات رابحة في أيدي الأمهات، ومحل إهمال مالي أو عاطفي من الآباء؛ الذريعة لتوجيه اتهامات حقيقية أو متخيلة أو كيدية بالإساءة، من قِبل الأمهات عادةً، والآباء أحياناً؛ أطفال دائخون يتنقّلون أسبوعيا بين المنازل باتفاقيات المشاركة الأبوية، معاطف مفقودة أو علب أقلام رصاص يعرضها بشكل فظّ محامٍ ما على الآخر؛ أطفال قُدِّر لهم أن يروا آباءهم مرة أو مرتين في الشهر؛ أو لا يرونهم أبدًا، فيما يختفي أقوى الرجال إرادة في غمار زواج ساخن جديد لسحق ذرية جديدة. والنقود؟ إن المال الجديد هو نصف الحقيقة ومحل مرافعة

خاصة. أزواج طماعون ضد زوجات طماعات، يناورون مثل الأمم عقب انتهاء الحرب، ليلْتقطوا من بين الحطام ما يستطيعون جمعه من غنائم قبل الانسحاب الأخير. يضع الرجال ثرواتهم في حسابات أجنبية، تطالب النساء بحياة مريحة، إلى الأبد. أمهات يمنعن أطفالهن من رؤية آبائهم، برغم أوامر المحكمة؛ آباء يُهملون دعم أولادهم، برغم أوامر المحكمة. أزواج يضربون زوجاتهم وأطفالهم، زوجات كاذبات وحقودات، أحد الطرفين أو كلاهما مدمن خمر، أو مدمن مخدرات، أو مريض نفسي؛ والأطفال مجددا يضطرون إلى رعاية أب أو أم غير كُفْء، أو يتعرضون لإساءة حقيقية، جنسية، أو ذهنية، أو كلاهما، يُعرض دليلها على الشاشة أمام المحكمة. وبعيدا عن اختصاص فيونا، في القضايا التي يتم تحويلها إلى المحكمة الجنائية بدلا من محكمة الأسرة، أطفال تم تعذيبهم، أو تجويعهم أو ضربهم أو قتلهم. تندفع من الأرواح الشريرة على طريقة الرسوم المتحركة، أزواج أمهات شباب بشعون يكسرون عظام الرضع الصغار تحت أبصار الأمهات الكئيبات الشاكيات، ومخدرات، وخمور، وقذارة منزلية مبالغ فيها، جيران لا مبالون يُعطون للصراخ آذانًا من طين، وأخصائيون اجتماعيون مُهمِلون أو مجَهدون يفشلون في التدخل.

هكذا يسير عمل محكمة الأسرة. كانت صدفة في الجداول أن جاء هذا القدر الكبير من النزاعات الزوجية في طريق فيونا، ومحض صدفة أن كانت هي نفسها في نزاع زوجي. لم يكن من المعتاد في هذا السلك من العمل الإرسال بأشخاص إلى السجن، لكنها مع ذلك، كانت في لحظات الضجر تود لو أمكنها الإرسال بكل هؤلاء الأطراف الذين يريدون، على حساب أطفالهم، زوجة أصغر، أو زوجًا أثرى

أو أقلّ ملَلًا، أو ضاحية مختلفة، أو جنسًا جديدًا، أو حُبًّا جديدًا، أو وجهة نظر جديدة للعالم، أو بداية جديدة لطيفة قبل فوات الأوان. محض سعي وراء السرور، انحدار أخلاقي. حرمانها هي نفسها من الأطفال، وموقفها مع جاك، هما ما كوّنا أحلام اليقظة تلك، وبالطبع، لم تكن جادة. مع ذلك، ظلت تدفن نفسها في أعماق مجال ذهني خاص، لم تدعه قط يؤثر على قراراتها، ازدراء متعنّت للرجال والنساء الذين يدمرون أسرهم ويقنعون أنفسهم بأنهم يتصرفون بإيثارية من أجل مصلحة الجميع.. في تلك التجربة الفكرية لم تكن لتتصالح مع حرمانها من الأطفال، أو على الأقل مع جاك. تعويذة تطهير في بذلة عمليات لتلويث زواجهما باسم التجديد؟ ولمَ لا؟

الحياة في شقة جراي منذ عودته هادئة ومتكلّفة. حدثت بعض المشاجرات التي أطلقت فيها بعض مشاعر الحقد المريرة. بعد اثنتي عشرة ساعة كانت تلك المشاعر تتجدد باتقاد مثل وعود الزفاف، ولا شيء تغير، لم "يصفُ" الجو. ظلت بجرح الخيانة. كان يموّن اعتذاراته بشكاوى قديمة عن كونها قد أبعدته عنها، وكونها باردة. حتى إنه قال ذات مرة في وقت متأخر من الليل، إنها "ليست مرحة"، و"فقدت فن اللهو". من بين جميع اتهاماته يزعجها هذان أكثر من أي شيء آخر، لأنها استشعرت حقيقتهما، لكن هذا لم يقلل من غضبها.

على الأقل لم يعد يقول إنه يحبها. كانا قد كرّرا في حوارهما الأخير، منذ عشرة أيام، كل ما قالاه من قبل، كل اتهام، وكل رد عليه، كل عبارة طال التفكير فيها ولَيّها بمبالغة، وفي وقت قصير، كانا قد تراجعا، منهكين من أنفسهما ومن أحدهما الآخر. منذ ذاك الحين،

لا شيء. قَضَيا أيامهما في عملَيهما المنفصلين في جزأين مختلفين من المدينة، وحين يكونان وحدهما معًا في الشقة، يتحركان برشاقة أحدهما حول الآخر، كراقصين في حفلة رقص كلاسيكية. كانا مقتضبين ومؤدبين بتنافسية حين يضطران إلى مناقشة أمور منزلية معًا، تحاشَيا تناول الوجبات معا، عملا في غرفتين منفصلتين، يُشتت كل منهما الوعي الخشن بذبذبات حضور الآخر العابرة للجدران. تفاديا جميع الدعوات المشتركة دون مناقشة. كانت حركتُها الوحيدة المهادنة أن أعطته مفتاحا جديدا.

استنتجتْ من ملحوظاته المواربة المتجهمة أنه في غرفة نوم الإحصائية، لم يعبر بوابات الفردوس. أمر ليس مطمئنا تمامًا، الأرجح أنه سوف يُجرِّب حظه في مكان آخر، ربما كان يحاول ذلك بالفعل، مُتحرّرًا هذه المرّة من قيود الصراحة الكئيبة. قد تكون "محاضرات الجيولوجيا" التي يحضرها غطاءً مفيدًا. تذكرت وعدها بتركه إن واصل علاقته بميلاني. لكنها ليس لديها الوقت للبدء في هذا الانفصال الجسيم. وكانت ما زالت مترددة، لا تثق في مزاجها الحالي. لو كان قد منحها مزيدا من الوقت بعد أن غادر، لكانت قد وصلت إلى قرار واضح وعملت بمنطقية إما على إنهاء الزواج أو على إعادة بناءه. لذلك تركت نفسها للعمل كعادتها ورتّبت أمرها على قضاء اليوم بيومه في تلك الدراما الخافتة لنصف حياتها مع جاك.

حين تركتْ إحدى بنات إخوته طفلتيها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع عندهما، توأمتين متطابقتين في الثامنة من عُمرَيهما، صارت الأمور أسهل قليلًا. اتسعت الشقة حين تحول الانتباه إلى ما هو خارجها. نام جاك ليلتين على الأريكة في غرفة المعيشة، ما لم

تسأل عنه الطفلتان أبدًا. كانتا فتاتين من النوع المؤدّب بصرامة على الطراز القديم، سلوكهما جاد وحميمي، مع ذلك ليستا فوق مستوى انفجار الشجار بينهما من حين لآخر. كانت واحدة أو أخرى– من السهل التمييز بينهما – تأتي إلى فيونا وهي جالسة تقرأ، وتقف أمامها، تضع يدا واثقة على ركبتها، وتطلق تيارا فضيًّا لحكاية ما، أو فكرة، أو خيال. فتنضمّ إليها فيونا بقصصِها الخاصة. حدث مرتين في تلك الزيارة، فيما كانت تتكلم، أن غصّ حلقها وضاقت عينيها بموجة حب للأطفال. شعرتْ أنها عجوز وحمقاء. أزعجها أن تتذكر مهارته مع الأطفال. كان يخاطر بكسر ظهره، كما فعل ذات مرة مع أبناء أخيها الثلاثة، وهو مندمج في لعب دور الحصان بضراوة، ما كانت تطالب به الفتاتان بنوبات من الصياح غير الإنساني. في البيت، لا ترفعهما أمهما، المطلّقة كرهًا، في الهواء وتمسك بهما من قدميهما. أخذهما إلى الحديقة ليعلّمهما نسخة غريبة من الكريكِت اخترعها هو، وقرأ لهما قبل النوم حكاية طويلة بأسلوب هزلي حيوي وموهبة في الأصوات.

لكن بحلول مساء الأحد، بعد أن غادرت التوأمتان، عادت الحجرات تنكمش، كان الهواء ساكنا، وخرج جاك دون أن يقول شيئًا – حركة عدائية بالطبع. ربما تم استدعاءه، تساءلتْ وهي تشغل نفسها بترتيب غرفة الضيوف لئلا تهبط معنوياتها أكثر. أعادت الدُمى الناعمة إلى سلة الخيزران حيث تعيش، واستعادت الكريات الزجاجية والرسومات الملقاة من تحت الفراشين، شعرت بحزن رقيق شفاف، أحد ألوان الحنين المؤقت الذي يجلبه الغياب المفاجئ للأطفال. صاحبَها هذا الشعور حتى صباح يوم الإثنين، تضخّم حتى صار حزنًا عامًا يتبعها في سيرها إلى العمل. لم يبدأ زواله عنها إلا حين جلستْ إلى

مكتبها لتحضِّر قضيتها الأولى هذا الأسبوع.

لا بدّ أن نايجل باولينج قد جلب البريد في وقت ما، لأن كومة الأوراق كانت أمامها فجأة عند مرفقها. حين رأت الظرف الأزرق الباهت الصغير أعلى الكومة، كادت أن تنادي على كاتبها ليفتحْه هو. لم تكن في مزاج لقراءة إساءة جاهلة أخرى أو تهديد بالعنف. عادتْ إلى عملها، لكنها لم تستطع التركيز. الظرف غير العملي، خط اليد الغريب، غياب الرمز البريدي، طابع البريد المائل قليلا – أشياء رأت مثلها كثيرًا. لكنها حين نظرت مجددا ولاحظت شعار البريد، انتابها شك مفاجئ، وزنت الرسالة بيدها لحظة، ثم فتحتها. عرفتْ، على الفور، من عبارة التحية أنها كانت محقّة. لقد ظلّت تتوقعه بغموض لأسابيع. كانت قد تحدثت مع مارينا جرين وعلِمت أنه يتقدم بشكل جيد، خرج من المستشفى، استأنف دراسته في البيت، ويتوقع عودته إلى مدرسته خلال أسابيع.

ثلاث ورقات زرقاء باهتة، بكتابة على خمسة جوانب منها. في منتصف أعلى الصفحة الأولى رقم 7 محاطا بدائرة أعلى التاريخ.

سيّدتي!

هذه رسالتي السابعة وظنّي أنني سأرسلها عبر البريد.

الكلمات الأولى من الفقرة التالية مشطوبة:

سيكون الأبسط والأقصَر. أريد فقط أن أصف لكِ حدثًا واحدا. أدرك الآن أهميته. إنه يغير كل شيء. يسعدني أنني انتظرت، لأنني لم أكن لأريدك أن تقرئي الرسائل الأخرى. إحراج شديد! مع ذلك فهي ليست بفظاعة كل

ما دعوتُك به حين جاءت إليّ دونا لتخبرني قرارك. كنت متأكدا من أنك سترين الأشياء بعيني. في الحقيقة كنت أعرف ما أخبرتني به جيدًا، أنه من الواضح أنني مسئول عن قراري وأذكر حتى إنني شكرتك. كنت ما زلت أصرخ حانقًا حين جاء ذاك الاستشاري السيّد "أدعوني رودني" كارتر مع مجموعة من الآخرين والأجهزة. ظنوا أنهم سيكون عليهم تقييدي، لكنني كنت أضعف من ذلك كثيرًا، ومع أنني كنت ثائرا، لكنني كنت أعرف ماذا تريدينني أن أفعل. لذلك مددتُ لهم ذراعي وتركتهم يباشرون عملهم. كانت فكرة امتزاج دم إنسان آخر بدمي مقززة لحد جعلني أتقيأ على الفراش فورًا.

لكن هذا ليس الحدث الوحيد الذي أردتُ إخبارك به. بل هو ما يلي، لم تتحمل أمي مشاهدة ما يحدث، لذلك كانت تجلس بالخارج وكنت أسمعها تبكي وشعرت بحزن حقيقي. لا أعرف متى ظهر أبي. أعتقد أنني غِبتُ عن الوعي لفترة وحين عُدتّ كان كلاهما عند فراشي – يبكيان.. وشعرت بحزن أكبر علينا جميعًا لأننا خالفنا أوامر الرب. لكنّ الأمر المهم، الذي استغرقت وقتا لأدركه، أنهما كانا يبكيان **فرحًا!** كانا سعيدين للغاية، يعانقاني، ويعانق أحدهما الآخر ويشكران الرب ويبكيان. ذُهِلتُ ولم أفهم شيئا ليوم أو اثنين تقريبا. لم أفكر في الأمر حتى. ثم فكّرت فيه. أن تخبز كعكتك وتتناولها[25]! لم أفهم تلك المقولة

25 يقول المثل الإنجليزي "لا يمكنك خبز كعكة وتناولها في الوقت نفسه".

من قبل قط، الآن أفهمها. لقد تناولت كعكتكُ لتوّك ومع ذلك ما زالت في يدك. إن والديّ يتّبعان التعاليم ويطيعان الشيوخ ويفعلان كلّ ما هو صواب ويتوقّعان بذلك دخول الفردوس الأرضي – وفي الوقت نفسه – يبقيان مُحتفظَين بي حيًّا دون أن نفترق. نقل دم لكنه ليس خطأنا! اللوم على القاضية، على النظام غير الديني، على ما ندعوه أحيانا "العالم". يا لها من راحة! ما زال لدينا ابننا مع إننا قلنا إنه يجب أن يموت. ابننا كعكتنا!

لا أعرف معنى هذا. هل كان احتيالًا؟ لقد كان نقطة تغيُّر لي. سوف أختصر لكِ الأمر. حين أعادني والداي إلى المنزل، أخرجتُ الإنجيلَ من غرفتي، وكفيته على وجهه برمزية على كرسي في الردهة، وأخبرتُهما أنني لن أقترب من قاعة الملكوت مرة أخرى، وأن بإمكانهما طردي من البيت إن شاءا. خضنا مشاجرات فظيعة. جاء السيّد كروسبي ليتحدث معي، دون جدوى. ظللت أنتظرك لأنني في حاجة للحديث معكِ حقًا، في حاجة لسماع صوتك الهادئ، وذهنك الصافي لمناقشة هذا معي. أشعر أنكِ قرّبتِني من شيء آخر– شيء ما جميل وعميق لكنني لا أعرف ما هو بالتحديد. لم تخبريني قط بما تؤمنين به، لكنني أحببت الأمر حين جئتِ وجلستِ معي، وغنينا معًا "عند أشجار الصفصاف". ما زلتُ أنظر في تلك القصيدة يوميًّا. أحبّ كوني "صغيرًا وأحمق"، ولولاكِ أنتِ ما كنت لأُضحي أيًّا منهما، لولاكِ لكنتُ الآن ميتًا! كتبتُ لك كثيرًا من الرسائل

الحمقاء، وأفكّر فيكِ طوال الوقت، وأريد حقًا أن أراكِ، وأن أتحدث معكِ ثانية. تنتابني أحلام يقظة عنّا، خيالات مستحيلة رائعة، كأن نذهب معًا في رحلة بَحْريّة حول العالم ونقيم في كابينتين متجاورتين، ونظلّ نروح ونأتي على سطح السفينة ونحن نتحدث طوال اليوم.

سيّدتي، رجاءً اكتبي لي. كلمات قليلة فقط لتخبريني أنك قرأتِ هذه الرسالة، وأنك لا تكرهينني بسببها.

المُخلص

آدم هنري

ملحوظة: نسيتُ أن أقول إنني أتحسّن وأن قوتي تزداد يومًا عن آخر.

***

لم تُجِبه، أو بالأحرى، لم ترسل الرسالة التي استغرقتْ في كتابتها ساعة تقريبًا من ذاك المساء. في مسودتها الرابعة والأخيرة ظنت أنها ودودة بما يكفي، تُسعدها عودته إلى البيت وتحسُّنه ويسعدها أن لديه ذكرى طيبة عن زيارتها له. نصحته أن يعامل والديه بود، إذ من الطبيعي في سن المراهقة أن يتساءل المرء عن المعتقدات التي نشأ عليها، لكن على المرء فعل هذا بسلوك مهذب. ختمت بقولها، غير الحقيقي مع ذلك، إنها "ابتهجتْ" لفكرة الرحلة البحرية حول العالم. أضافت أنها حين كانت صغيرة كان لديها أحلام هروب مثل أحلامه. لم يكن هذا حقيقيًا أيضًا، إذ كانت طموحة للغاية، حتى

وهي في السادسة عشرة من عمرها كانت تتوق بشدة للدرجات العالية على مقالاتها المدرسيّة لتفكّر في الهروب.. كانت زياراتها لبنات عمّها في نيوكاسل هي مغامراتها الوحيدة في سن المراهقة. حين نظرتْ إلى رسالتها القصيرة في اليوم التالي، لم يكن التودّد هو ما صدمها، بل البرود، النصح المتواري، الاستخدام غير الشخصيّ لكلمة "المرء" مكررة، التذكُّر المصطنَع. أعادت قراءة رسالته وتأثرت مجدّدا ببراءته ودفئه. الأفضل ألّا ترسل إليه شيئًا على أن تُحبطه. إن غيّرت رأيها، يمكنها الكتابة لاحقًا.

كان الوقت يقترب من جولتها المحلية لزيارة مدن وبلدات إنجليزية، دورات انعقاد محاكم محلية قديمة بصحبة قاض آخر في القانون الجنائي والمدني للنظر في قضايا لم يستطع أصحابها السفر إلى المحكمة في لندن. ستقيم في دور ضيافة خاصة، منازل محلية رائعة بملامح تاريخية ومعمارية حيث، في حالات خاصة، قد توجد أقبية أسطورية، وفي الغالب ما تكون مدبرة المنزل طباخة جيدة. كان من المعتاد دعوتها أولًا إلى حفل عشاء يقيمه المأمور. ثم ترد هي وزميلُها القاضي الدعوة إليه في دار ضيافتهما ويدعوان معه شخصيات أخرى من أبناء البلدة، بارزة أو مهمة بوجهٍ ما (ثمة فارق). كانت غرفات النوم أفسح كثيرا من غرفتها، الأسرّة أوسع، والأغطية من نسيج أرق. في الأيام الأسعد كانت تشعر، كزوجة مستقرة، بالذنب واللذة المحرمة لعدم مشاركتها تلك المنازل مع زوجها. الآن، تتوق إلى مغادرة رقصتِهما الثنائية الصامتة الكئيبة في المنزل.. والمحطة الأولى مدينتها الإنجليزية المفضلة. نيوكاسِل

ذات صباح في بدايات سبتمبر، قبل أسبوع من بداية رحلتها،

تلقت رسالة ثانية. كان اهتمامها أكبر هذه المرة، حتى قبل أن تفتحها، إذ كان الظرف الأزرق مُلقى على العتبة في الرواق في البيت مع عدد من الإعلانات وفاتورة الكهرباء. لا عنوان، اسمها فقط. يسهل جدا على آدم هنري أن ينتظرها بالخارج في الإستراند أو في شارع كيري ويتبعها من بعيد.

كان جاك قد غادر إلى عمله. أخذتْ الرسالة إلى المطبخ وجلستْ مع بقايا فطورها:

سيدتي،

أنا لا أعرف ما كتبته لكِ من قبل لأنني لم أحتفظ بنسخة، لكن لا بأس بعدم ردك. ما زلتُ أحتاج إلى التحدث معكِ. هاكِ أخباري، شجارات كبيرة مع والديّ، عودة رائعة إلى المدرسة، أتحسّن، أشعر بسعادة ثم بحزن ثم بسعادة مجددا. أحيانا تصيبني فكرة وجود دم غريب بداخلي بالغثيان، كأنني شربتُ لعابَ أحدهم. أو أسوأ. لا يمكنني التخلص من فكرة أن نقل الدم خطيئة، لكن هذا لم يعد يعني لي شيئًا. لديّ أسئلة كثيرة جدا لكِ، لكنني لست متأكدا حتى من أنك تذكرينني. لا بد أنك نظرتِ في عشرات القضايا من بعدي، وحمولات القرارات التي اضطررتِ لاتّخاذها بخصوص أشخاص آخرين. أشعر بالغيرة! أردتُ أن أتحدث معكِ في الشارع، أن أظهر وأربّت على كتفك. لم يمكنني فعل هذا لأنني جبان. فكّرتُ أنكِ قد لا تتذكّريني. ليس عليكِ الرد على هذه الرسالة أيضًا –

ما يعني أنني أتمنى أن تردّي. أرجوكِ لا تقلقي، أنا لا أريد مضايقتك أو أيّ شيء من هذا القبيل. أشعر فقط أن قمة رأسي تنفجر. ويخرج منها جميع أنواع الأشياء!

صديقك المخلص

آدم هنري

أرسلتْ فورًا بريدا إلكترونيا لمارينا جرين تسألها إن كان لديها الوقت، كإجراء متابعة روتيني، لزيارة الفتى وتقديم تقرير لها. بنهاية اليوم تلقّت ردًا. قابلتْ مارينا آدمَ تلك الظهيرة في المدرسة، حيث يبدأ فصلًا دراسيًا إضافيًا للاستعداد للامتحانات قبل أعياد الميلاد. قضت معه نصف ساعة. اكتسب وزنًا، ثمة لون في وجنتيه. كان حيويا، "ومضحكًا وعابثًا" حتى. ثمة بعض المشاكل في البيت، أغلبها خلافات دينية مع أبويه، لكنها تظن أنه لا شيء غير طبيعي في هذا. أخبرها ناظر المدرسة على انفراد أن آدم قد قام بجهد رائع منذ عاد من المستشفى في اللحاق بما فاته، وأن مدرّسيه يرون أن مستواه قد صار ممتازًا، ويشارك جيدًا في الفصل، ولا مشاكل سلوكية. تكشّف إجمالًا أن كلّ شيء بخير. فقررت فيونا مطمئنة أنها لن تكتب له.

بعد ذلك بأسبوع، صباح يوم الإثنين، حين كانت على وشك التوجّه شمال شرق إنجلترا، حدث تحوّل صغير في الصدع الزوجي، حركة غير ملحوظة مثل الانجراف القاري تقريبا، لحظة مسكوت عنها، غير معترف بها. فيما بعد، حين جلستْ في القطار، تُقلّب فيها الفكر، بدا أن اللحظة تعبر الحدود قفزًا بين الحقيقي والمُتَخيَّل. هل يمكنها الوثوق في ذاكرتها؟ كانت السابعة والنصف حين دخلتْ

المطبخ، ووجدتْ جاك يقف عند المنضد بظهره لها، يصب حبوب القهوة في المطحنة. حقيبة سفرها في الردهة وهي مشغولة بجمع وثائق أخيرة قليلة. كالعادة كانت تكره التواجد معه في مساحة ضيقة.. فالتقطتْ وشاحًا عن ظهر كرسي وغادرتْ تواصل بحثها في غرفة الجلوس.

بعد ذلك بعدة دقائق عادتْ إلى المطبخ. كان يُخرج كوب حليب من المايكروويف. لهما ذوق محدد جدا في قهوة الصباح التقيا عنده بمرور الوقت. يحبّانها قوية، في أكواب بيضاء طويلة بحواف رفيعة، حبوب كولومبية عالية الجودة، بحليب دافئ، وليس ساخنًا. ما زال بظهره لها، يصبُّ الحليب في قهوته، استدار إليها بميلٍ قليل جدا وهو يُمسك الكوب، لم يكن من شيء في وقفته يُرجِّح أنه يعرضه عليها، ولم تهُز هي رأسها ولم تومئ. تلاقت أعينهما بسرعة. فوضع الكوب على الطاولة، ودفعه نحوها بوصة تقريبًا. هذا في حد ذاته لا يعني الكثير، لأنهما، في طوافهما المتوتر أحدهما حول الآخر، ظلا مهذبين إلى أقصى حد، كأن كُلًّا منهما يحاول التفوق على الآخر في الظهور بمظهر العاقل الذي لا لوم عليه.

بالطبع لن يصنع أحد إناء قهوة يكفيه هو فقط، لكن ثمة طرق لوضع كوب قهوة على الطاولة، من المشهد القاطع لالتقاء الخزف بالخشب إلى الاستقرار بطريقة حسّاسة وصامتة. وثمة طرق في قبول كوب قهوة، ما فعلته بهدوء، بحركة بطيئة، أخذت رشفة واحدة ولم تبدِ إعجابها، أو ليس فورًا، كما كانت لتفعل في أي صباح آخر. مرّت ثوان قليلة من الصمت، ثم بدا أن هذا هو أقصى ما كانا على استعداد له، أن اللحظة تحمل لهما الكثير جدا، وأن المحاولة لأكثر من هذا

قد تعود بهما إلى الوراء. استدار بيتعد عنها ليأتي لنفسه بكوب آخر، واستدارت تبتعد عنه وذهبت لجلب شيء ما من غرفة النوم. فعلا ذلك ببطء أكثر قليلا عن المعتاد، وربما على مضض حتى.

عند بداية الظهيرة كانت في نيوكاسل، وجدت سائقًا في انتظارها عند شباك التذاكر ليقلّها إلى مجمّع المحاكم على الجانب الآخر من الرصيف. كان نايجل باولينج في انتظارها عند مدخل القضاة وقادها إلى غرفتها. كان قد قاد السيارة من لندن في الصباح بوثائق المحكمة وأردِيتها، الحمولة بكاملها، كما يدعوها – لأنها قد تجلس على منصة الملكة كما تجلس في محكمة الأسرة. جاء إليها كاتب المحكمة ليرحب بها رسميًا، ثم ضابط الجداول ليراجعا معا القضايا المدرجة للنظر فيها خلال الأيام المقبلة.

كان ثمة شؤون أخرى ثانوية فلم تكن حرة لتغادر حتى الرابعة مساءً. قالتْ النشرة الجوية إن ثمة عاصفة أمطار قادمة من الجنوب الغربي عند بداية المساء. أخبرتْ سائقها أن ينتظرها لتأخذ جولة على الرصيف الواسع بحذاء النهر، أسفل جسر تاين، وبطول ساندهيل، مرّت بمقاهي رصيف جديدة، وحوامل عرض زهور ومبان تجارية بواجِهات كلاسيكية. صعدتْ درجًا إلى قلعة جارث وتوقفتْ أعلاه لتعاود النظر ناحية النهر. تحب هذا النوع من المزج الفيّاض لقوة الحديد الصلب، والفولاذ والزجاج، والمستودعات القديمة التي استفزتها الشيخوخة فعادت إلى شباب خيالي كمقاهٍ وحانات. كان جزءًا من ماضيها في نيوكاسيل وتشعر فيها بالراحة. جاءت في فترة مراهقتها عدة مرات أثناء فترات مرض أمها المتعاقبة للبقاء مع ابنتَي عمّها المفضّلتَين. كان العم فريد، طبيب الأسنان، أغنى رجل رأته في

حياتها. زوجته العمة سيمون تدرس الفرنسية في مدرسة إعدادية. منزلهما فوضوي على نحو سار، تحررٌ من جوّ أمها المصقول غير المميز بفينشلي. كانت بنتا عمها، من سنها تقريبا، مرحتين وجامحتين، أجبَرتاها غير ذات مرة على الخروج ليلًا في مغامرات مرعبة تضمنت الشُرب وأربعة موسيقيين مخلصين، بشعور تصل إلى خصورهم وشوارب مُرسَلة، بدوا ظاهريا فاسقين لكن تكشّف أنهم عطوفون. كان أبواها ليتجمدا ثم يهيجا لو كانا قد عرفا أن ابنتهما المُجِدّة في دراستها ذات الستة عشر عامًا باتت وجهًا مألوفًا في ملاهٍ ليلية معينة، وتشرب براندي الكرز والرَّم والكولا، وأنها اتخذت أوّل حبيب لها. وكُنّ ثلاثتهن، هي وابنتَي عمّها، من معجبات الفرقة المخلصات، انضممن، كرفيقات طريق مبتدئات، لفرقة بلوز متواضعة الأجر والتجهيزات، لحَمل مضخمات الصوت وعدّة الطبول، من وإلى خلفية حافلة صدئة كانت معطلة دائمًا. كانت هي غالبًا من تدوزن الجيتارات. كان لتحررها ذاك صلة قوية بحقيقة أن زياراتها نادرة ولن تتجاوز أكثر من ثلاثة أسابيع. لو كانت قد مكثتْ لأطول من هذا – ما لم يكن احتمالًا واردا أبدًا – لكان سُمِح لها بغناء بلوز حتى، كان من الممكن أن تتزوج كيث، المغنّي الرئيسي وعازف الهارمونيكا ذا الساعد الضعيف الذي كانت تعشقه بخجل.

نقل عمّها فريد عمله إلى الجنوب حين كانت في الثامنة عشرة وانتهت علاقتها بكيث بدموع وبعض قصائد حب لم تُرسلها. كان هذا هو لقاءها بالمخاطرة والمرح الثوري الذي لن تخبره مجددا أبدًا، وظل جزء لا يتجزأ من فكرتها عن نيوكاسل. لم يكن واردا تكراره في لندن، مقرّ طموحاتها المهنية. عادت على مدار السنوات إلى الشمال الشرقي

بحجج متنوعة، وفي أربعة مناسبات في الجولات المحلية. لطالما أبهجها وهي تقترب من المدينة مشهد جسر ستيفنسون العالي يلوح أعلى نهر التاين، فتصل بالروح المتحمّسة لفتاة مراهقة، وتترجّل من القطار إلى محطة نيوكاسل المركزية أسفل الأقواس الثلاثة العظمى تصميم جون دوبسون[26] إلى البهو الرئيسي المُسرف في الكلاسيكية الحديثة لتوماس بروسير[27]. كان عمها طبيب الأسنان، يُقبل نحوها محيّيًا في سيارته الجاغوار الخضراء، ومعه ابنتاه المتحمستان، وكان هو من علّمها تقدير الكنوز المعمارية في المحطة والبلدة. لم تفقد قط انطباعها بأنها غادرت البلاد إلى بلدة أجنبية وأنها في مدينة بلطيقية تتمتع بقدر كبير من التفاؤل الفضولي والكبرياء. كان الهواء أكثر حِدّة، والضوء رماديًّا مُشعًّا وفسيحًا، المحليون ودودون، على قدر من الحِدّة، الوعي الذاتي، أو السخرية الذاتية كممثلين في مسرحية كوميدية، تبدو لكنتها الجنوبية بينهم متقيّدة ومنمقة. إن كانت الجيولوجيا، كما يصر جاك، تشكل تنوع الشخصية البريطانية ومصائرها، والمحليون من حجر الجرانيت، فهي حصب الحجر الجيري الهشّ. لكنها في افتتانها بالمدينة كفتاة صغيرة، وبابنتَي عمّها والفرقة الموسيقية وأول حبيب، كانت تؤمن بقدرتها على التغيُّر، أن تصبح أكثر حقيقية، أكثر واقعية، أن تصبح **جيوردي**[28]. بعد كل تلك السنين، ما زالت ذكرى هذا الأمل تجعلها تبتسم. لكنها ما انفكّت تراودها كلما عادت، رؤية مغبّشة للتجديد، لإمكانات كامنة لحياة أخرى، حتى وعيد ميلادها الستين يقترب.

---

26 جون دوبسون: معماري إنجليزي من القرن التاسع عشر صمم مع آخرين محطة نيوكاسل بالأسلوب الكلاسيكي الحديث .

27 توماس بروسير: معماري إنجليزي من القرن التاسع عشر وصاحب شركة بريطانية لتصميم محطات السكة الحديد .

28 لفظة محلية تعني من أبناء نيوكاسل.

* * *

تجلس الآن في المقعد الخلفي لسيارة بنتلي موديل 1960، وجهتها مضيفة الليدمان، منزل في منتصف حديقة بمساحة ميل، كانت السيارة تعبر بواباتها الآن. سرعان ما مرت بملعب كريكت، ثم ممر بين أشجار الزان التي بدأ يحركها بالفعل نسيم قويّ، ثم بحيرة تُحيطها الخضرة. المبنى نفسه، على طراز هندسة بالاديو[29]، مطلي حديثًا بأبيض ناصع للغاية، به تسع غرف نوم، وتسعة أفراد لاستضافة وخدمة قاضيين بالمحكمة العليا جاءا للنظر في القضايا المحلية. استحسن بيزنر[30] البهو المضلّع بهدوء، ولا شيء آخر. ليس سوى انحراف بيروقراطي ما أنقذ مبنى ليدمان من نصل ترشيد النفقات، لكن المباراة توشك على نهايتها، هذا هو عامها الأخير فيما يخص السلك القضائي. كان الفناء، يُستأجر عدة أسابيع في السنة، من عائلة محلية معروفة تاريخيا بأعمالها في مناجم الفحم، غالبًا لعقد المؤتمرات أو لحفلات الزفاف. وملاعب الغولف والتنس وحمام السباحة بالماء المُدفَّأ في الهواء الطلق، كما اتضح الآن، رفاهيات غير ضرورية لقاضيين مُكدّين سيقضيان فترة قصيرة. بدءًا من العام القادم سوف تستبدل شركة تأجير السيارات السيارة البنتلي بسيارة فوكسهول فسيحة. وستكون الإقامة بفندق حيوي بنيوكاسل. مع ذلك يُفضِّل قضاة المحكمة الجنائية المكلّفون، الذين يحكمون بفترات سجن طويلة من حين لآخر على محليّين لهم أقارب يُخشى

29 أسلوب أوروبي في الهندسة المعمارية تم اشتقاق اسمه من تصاميم المهندس الإيطالي اندريا بالاديو، يعتمد بقوة على التناظر والمنظور وصارت له شعبية كبيرة في بريطانيا في منتصف القرن السابع عشر.

30 سير نيكولاس بيرنارد ليون بيزنر (1902-1983) أستاذ في تاريخ الفن وخاصة فن العمارة، من أعماله سلسلة شهيرة من 64 مجلد بعنوان مباني إنجلترا.

جانبهم، عزلة المنزل الكبير، لكن لا أحد يمكنه الدفاع عن الليدمان دون أن يبدو أنانيًّا.

كان باولينج ينتظر مع مدبرة المنزل على الأرض المفروشة بالحصى أمام الباب الرئيسي. أراد أن يحتفي بتلك الزيارة الأخيرة. دنا من باب السيارة الخلفي ببهجة ساخرة ووثبة طفيفة بكعبيه. كالعادة، كانت مدبرة المنزل جديدة. هذه بولندية، شابة في العشرينات تقريبا، حسب ظن فيونا، لكن نظرتها ثابتة وباردة، أمسكتْ بأكبر أمتعة القاضيين بقبضة حازمة قبل أن يمد باولينج يده إليها. جنبًا إلى جنب، قاد الكاتب ومدبرة المنزل الطريق إلى غرفة في الطابق الأول اعتبرتها فيونا غرفتها. كانت في مقدمة المنزل، بثلاث نوافذ طويلة تطل على ممر أشجار الزان وجزء من البحيرة. خلف غرفة النوم التي مساحتها ثلاثون قدمًا توجد غرفة جلوس بطاولة كتابة. كان الحمام، مع ذلك، في نهاية رواق وأسفل ثلاث درجات مكسوة بالسجاد. لم يكن التنوع في أدوات الحمام والاستحمام قد بدأ بعد حين تم تحديث المبنى آخر مرة.

حين عادت من حمّامها كانت العاصفة قد بدأت. وقفت عند النافذة الوسطى في روب المنزل تراقب زخات المطر، تكوينات شبحية طويلة، تهرع عبر الحقول، تغيب عن النظر خلال ثوان. رأت فرعا عاليا في إحدى أشجار الزان القريبة ينكسر ويبدأ سقوطه، انفصل وتأرجح كأن الفروع أسفله تحمله، ثم يهوي مجددا، يعلَقْ، ثم تحرره الرياح، ويسقط على الأرض بصوت قصم. كان صوت الأنين الصاخب في المزاريب عاليًا كصوت انهمار المطر على الحصى.

أضاءت النور وبدأت ترتدي ملابسها. كانت متأخرة بالفعل عشر

دقائق عن تقديم شراب الكرز في غرفة الرسم.

توقف أربعة رجال ببذلات وأربطة عنق داكنة، يحمل كل منهم كأس جِن وتونيك، عن الكلام ونهضوا من مقاعدهم حين دخلتْ. كان نادل في سترة بيضاء ضيقة يعدّ لها كأسا، فيما يقدمها زميلها، كارادوك بول القاض الملكي المسئول عن القائمة الجنائية، إلى الآخرين: أستاذ في الفقه القانوني، رجل يعمل في مجال الألياف البصرية وآخر مسؤول حكومي في حماية الخط الساحلي. جميعهم يعرفون بول بطريقة ما. لم تدعُ هي ضيوفًا في الليلة الأولى. تلا ذلك محادثة إجبارية عن سوء الطقس. ثم استطراد عن كيف يعيش من هم فوق الخمسين والأمريكان في عالم الفهرنهايت. ثم كيف تنشر الصحف البريطانية، في أفضل الظروف، الطقس البارد بالدرجات المئوية، والحار بالفهرنهايت. كانت تتساءل طوال هذا الوقت لماذا يستغرق الشاب المنحني بشدة على عربة يد هناك في ركن من الغرفة، وقتًا طويلًا هكذا. أحضر لها كأسها وهم يتذكرون التحوّل الذي حدث منذ وقتٍ طويل على العُمْلة العَشْريّة.

كانت تعرف بالفعل من بول أنه هنا في نيوكاسل لإعادة النظر في قضية قتل، متهم فيها رجل بضرب والدته حتى الموت في بيتها بسبب سوء معاملتها لابنتها الصُّغْرى، الأخت غير الشقيقة للمتهم. لم يتم العثور على سلاح للجريمة، ولم يجزم تحليل الحامض النووي بشيء. وكانت حجة الدفاع أن المرأة قد قُتِلت على يد مقتحم. توقفتْ المحاكمة حين اكتُشِف أن أحد أعضاء هيئة المحلفين قد أخبر الأعضاء الآخرين بمعلومات حصل عليها من الإنترنت عبر هاتفه. كان قد عثر على قصّة صحفية منذ خمسة أعوام، عن حكم سابق صدر

ضد المتهم يدينه بالاعتداء بالعنف. في العصر الحديث للمعلومات، يجب فعل شيء ما "لتوضيح" الأمور للمحلفين. كان أستاذ الفقه القانوني قد تقدم بمشروع قانون مؤخرًا للجنة سن القوانين، ولا بد أن هذه هي المحادثة التي قاطعتها فيونا حين دخلت الغرفة، تُستَأنف الآن. كان رجل الألياف البصرية يسأل كيف يمكن منع المحلفين من البحث عن أشياء على الإنترنت في خصوصية منازلهم، أو حتى طلب ذلك من أحد أفراد أسرهم. كانت نقطة أستاذ الفقه بسيطة نسبيًا. المحلفون يضبطون أنفسهم. عليهم، تحت تهديد الحكم بالحبس، أن يبلِّغوا عن كل مَن يناقش أمورا لا تعلم بها المحكمة. السجن عامَين كحد أقصى لهذا، وستة أشهر كحد أقصى لعدم التبليغ عن المخالفة. ستصدر اللجنة قرارها العام المقبل.

حينها جاء الوصيف لدعوتهم إلى مائدة العشاء. كان شابًّا بالكاد تجاوز الثلاثين، له وجه شاحب شحوب الموتى، كأنه مغبَّر بالبودرة. أبيض كالأسبرين، كما سمعت سيدة ريفية فرنسية تقول ذات مرة. لم يبد عليه المرض مع ذلك، كانت طريقته لا شخصية وواثقة. أنهوا كؤوسهم بينما يقف جانبًا، منحنيًا بانتباه، ثم ساروا خلف فيونا عبر مجموعة من الأبواب المزدوجة إلى غرفة العشاء. كانت المائدة التي تَسَع ثلاثين ضيفًا مُعَدّة لخمسة فقط عند أحد طرفيها بوحْشة. الغرفة مبطّنة بألواح الخشب التي يعلوها طلاء برتقالي فاقع تقريبًا برسوم لطيور فلامينجو على مسافات متساوية. الضيوف الآن في الجانب الشمالي من المنزل، حيث تهب الرياح والنوافذ الثلاث الطويلة تهتز وترتج. كان الهواء باردا ورطبًا، وفي المدفأة باقة ورود جافة ومُتْرِبة بدلًا من النار. قال الوصيف إن المدفأة قد سُدَّت منذ وقت طويل،

لكنه سيجلب مدفأة مروحية كهربية. فكّروا في أماكن جلوسهم، وبعد فاصل من الارتباك المهذب اتفقوا على أن تجلس فيونا إلى رأس المائدة، حفاظًا على التناظر بين الجانبَين.

حتى الآن نادرًا ما تحدّثتْ فيونا. دار الوصيف الشاحب عليهم بنبيذ أبيض. جاء نادلان بمهروس السلمون وخبز رفيع. يجلس إلى يسارها مباشرة مسئول حماية الساحل، تشارلي، خمسيني مكتنز، أصلع بشكل لطيف. فيما واصل الآخرون محادثتهم عن المحلفين، سألها تشارلي بأدب عن عملها. استسلاما لجولة ضرورية من الحديث القصير، تحدثت بمصطلحات عامة عن محكمة الأسرة. لكن تشارلي أراد تفاصيل. في ماذا ستنظر غدا مثلًا؟ أسعدها أكثر التحدث عن قضية معينة. تريد السلطة المحلية ضمّ طفلين إلى رعايتها، ولد عمره عامان وبنت عمرها أربعة. الأم مدمنة خمر، وأمفيتامينات أيضًا. تعاني من نوبات نفسية تعتقد فيها أن أحدا يتجسس عليها من مصابيح الضوء. لم تعد قادرة على العناية بنفسها ولا بطفليها. الأب البعيد ظل غائبا، وقد ظهر الآن ويطالب بضم الطفلين إلى رعايته هو وصاحبته. هو أيضًا يعاني من مشاكل إدمان، وله ملف جنائي كذلك، لكن له حقوق. ستسمع المحكمة غدا شهادة أخصائي اجتماعي عن جدارته كأب. جِدًّا الطفلين من أمهما يحبانهما، وهما مؤهلان، ويريدان ضمهما إلى رعايتهما، لكن ليس لهما حقوق. والسلطة المحلية، التي تعرّضت مرافق خدماتها للطفل للنقد في تقارير رسمية، تعارض الجدين لأسباب ليست واضحة تمامًا بعد. الأطراف الثلاثة، الأم، والأب، والجدان، انقسموا على أنفسهم بمرارة. يوجد تعقيد آخر وهو الآراء المتناقضة بخصوص الفتاة ذات الأربعة أعوام. يقول

أحد خبراء طب الأطفال إنها من ذوي الاحتياجات الخاصة، ويزعُم آخر استدعاه الجدّان أنها، بالرغم من انزعاجها من سلوك والدتها وضآلة حجمها بسبب عدم انتظام الوجبات، فإنّ نموّها طبيعي.

توجد، كما قالت، قضايا أخرى كثيرة كهذه مدرجة لهذا الأسبوع. أمسك تشارلي جبينه بيده وهو يُغمض عينيه. يا لها من فوضى. لو كان عليه الخوض في هذا غدًا صباحا واتخاذ قرار بشأن قضية واحدة فقط مثل تلك، لعجز عن النوم وظل طوال الليل يقضم أظافره، ويعتدي على حانة الشرف في غرفة الرسم. سألتْه لماذا كان هنا. جاء من وايتهول لإقناع مجموعة فلاحين على الساحل بالانضمام إلى بعض منظمات البيئة المحلية والسماح بإغراق مراعيهم بماء البحر بغرض إعادتها إلى مستنقعات ملحية. كانت تلك، إلى حد كبير، أفضل وأرخص الطرق للدفاع ضد الفيضانات الساحلية، ورائعة للحياة البرية، وبخاصة الطيور، وجيدة لشركات السياحة الصغرى كذلك. لكن ثمة معارضة قوية من جانب القطاع الزراعي، مع العلم بأن الفلاحين سيحصلون على تعويضات جيدة. مع ذلك ظلوا طوال اليوم يصيحون فيه في الاجتماعات. كان ثمة أقاويل إنها خطة إجبارية، ولم يصدقّوه حين قال إن الأمر ليس كذلك.. اعتبروه ممثلا لحكومة مركزية، وكان الفلاحون غاضبين من شتى أنواع القضايا التي لا تتعلق بإدارته. بعد ذلك تزاحم بعضُهم عليه في الرواق. جذبه من ياقته رجل "في نصف عمري وضِعْف قوتي" وردد شيئا ما باللهجة المحلية لم يفهمه. وكالعادة، سوف يعود غدًا ويحاول مجددا. لأنه واثق أنه سيصل في النهاية.

حسنًا، بدا لها هذا كدائرة خاصة من الجحيم، وهي قانعة بالأم

المريضة نفسيًا في أي يوم.. كانا يقهقهان على هذا حين أدركا أن الثلاثة الآخرين قد تركوا محادثتهم ويستمعون إليهما.

قال كارادوك بول، الذي كان صديقًا لتشارلي من أيام الدراسة، "آمل أنك أدركت أي قاضية مميزة تلك التي تتحدث معها، أنا متأكد أنك تتذكر قضية التوأمين السياميين".

يتذكرها الجميع، وفيما تفرغ الأطباق ويوزّع لحم البقر ونبيذ الشاتو لاتور، تحدثوا وسألوها عن القضية الشهيرة. أخبرتهم بكل ما أرادوا معرفته. لكل منهم رأي، وإذ كان هو الرأي نفسه، تجاوزوا القضية ليناقشوا حماسة وتنافسية الصحف في تغطيتها. كانت تلك خطوة قصيرة نحو مائدة مستديرة للنميمة عن أحدث تحقيقات لجنة ليفيسون[31]. أنهوا اللحم البقري. يتوقعون الآن، طِبْقًا لقائمة الطعام، خبزا وزبدًا مخفوقا. خمّنت فيونا أنهم سرعان ما سيتحدثون عن حكمة الغرب أو حماقته في عدم إرسال جيوشه إلى سوريا. لم يكن ممكنا إيقاف كارادوك في هذا الموضوع. وهكذا سار الأمر، كان بالفعل يذكر الموضوع حين تناهى إلى مسامعهم أصوات في الردهة بالخارج. ثم جاء إليهم باولينج والوصيف ذو الوجه الأبيض، توقفا عند العتبة، ثم اقتربا من فيونا.

وقف الوصيف جانبًا، بدا منزعجا وباولينج، بعد أن أومأ اعتذارا للآخرين، يميل على كرسيها ويقول في أذنها بهدوء "سيدتي، أنا آسف للمقاطعة، لكن أخشى أن ثمة مسألة تتطلب وجودك فورًا".

مسّدت شفتيها بمنديل المائدة ووقفتْ قائلة "معذرة، سادتي".

نهضوا جميعا بلا تعبيرات على وجوههم وهي تتقدم الرجلين عبر

31 لجنة تحقيقات عامة تُعنى بثقافة وممارسات وأخلاقيات الصحف البريطانية تشكلت عام 2012.

الغرفة. حين خرجتْ قالت للوصيف، "ما زلنا ننتظر تلك المدفأة".

"سأحضرها على الفور".

في سلوكه شيء ما قاطع وهو يستدير. التفتتْ إلى كاتبها بحاجبين مرفوعين. فقال لها ببساطة "مِن هنا".

تبعته في الرواق إلى غرفة كانت ذات مرة مكتبة. الأرفف مليئة بالكتب الخردة، التي قد تشتريها الفنادق باليادرة لإضفاء الزّينة.

قال باولينج "إنه فتى شهود يهوه ذاك، آدم هنري. أتذكرينه، قضية نقل الدم؟ يبدو أنه تتبعك إلى هنا. ظل يسير تحت المطر، مبللا تمامًا. أرادوا أن يُبعدوه، لكنني رأيت أنه يجب إخبارك أولًا".

"أين هو الآن؟"

"في المطبخ. المكان الأدفأ".

"أحضره إلى هنا أفضل".

نهضتْ ما أن غادر باولينج وأخذت تسير في الغرفة ببطء، تعي لازدياد ضربات قلبها. لو كانت قد ردّت على رسائله ما كانت لتواجه هذا الآن. تواجه ماذا؟ تورُّط لا ضرورة له في قضية أُغلقَت. والأنكى... لكن لا وقت للتفكير في هذا. سمعتْ خطوات تقترب.

انفتح الباب وأشار باولينج للفتى بالدخول. لم تره خارج الفراش من قبل، أدهشَها طوله، أكثر من ستة أقدام. يرتدي زيه المدرسي، سروالًا رماديًّا من قماش الفانلة الثقيل، سترة رمادية، قميصًا أبيض، رداء واسعًا مدرسيًّا مُهلْهلًا، ومبلل تماما، وشعره مشعث من تجفيفه إياه. حقيبة ظهر صغيرة تتدلى من يده. اللمحة المثيرة للشفقة كانت منديل مائدة الليدمان، المطبوع عليه مناظر طبيعية محلية، معلّقًا على كتفيه للدفء.

وقف الكاتب عند الباب فيما تقدم الفتى في الغرفة خطوتين ووقف بالقرب من حيث تقف وقال "أنا آسف حقًا".

في تلك الثواني الأولى كان من السهل إخفاء ارتباكها خلف نبرة أمومية. "تبدو مجمدًا. الأفضل أن يحضروا تلك المدفأة إلى هنا".

"سأحضرها بنفسي"، قال باولينج ثم غادر.

"حسنا"، قالت بعد فترة صمت. "كيف وجدتني هنا في جميع الأحوال؟"

مناورة أخرى، أن تسأل كيف بدلًا من لماذا، لكنها في هذه المرحلة، وحضوره ما زال صدمة، لا تستطيع مواجهة العلم بماذا يريد منها.

كان سرده رصينا. "تتبعتُكِ في تاكسي إلى كينجز كروس، استقللْتُ قطارك، دون أن أدري إلى أين، لذلك اضطررت لشراء تذكرة إلى إدينبرج. في نيوكاسل سرتُ خلفكِ إلى خارج المحطة، ركضتُ خلف سيارتك، ثم فقدتُها، فخمنتُ وسألتُ الناس عن موقع المحاكم، وما أن وصلتُ هناك رأيتُ سيارتك".

راقبتْه وهو يتحدث، تلاحظ التغييرات فيه. لم يعد نحيفًا، لكنه نحيل، قوة جديدة في الكتفين والذراعين. الوجه نفسه المنحوت برقّة، طابع الحسن البني اللا مرئي تقريبًا في بشرة أعياها المرض. مجرد آثار للأكياس الأرجوانية تحت العينين. الشفتان ممتلئتان ورطبتان، والعينان في هذه الإضاءة داكنتان تمامًا فباتتا دون لون معيّن. حتى وهو يحاول أن يبدو اعتذاريًّا كان حيويا للغاية، يدقق للغاية في تفاصيل شرحه. حين نظر بعيدا عنها ليأمر أفكاره بتسلسل الأحداث، تساءلتْ إن كان هذا ما كانت أمها تدعوه وجهًا من الطراز القديم. فكرة لا معنى لها. تصوُّر الجميع لوجه الشاعر الرومانسي،

ابن عم لكيتس[32] أو لشيللي[33].

"انتظرتُ وقتا طويلا حقًا، ثم خرجتِ وسرتُ خلفك في البلدة، هناك ناحية النهر، ثم ركبتِ السيارة، استغرقني الأمر أكثر من ساعة، لكنني وجدتُ في النهاية موقعًا يذكر أماكن استضافة القضاة، فأشرتُ لسيارة أقلتني حتى الطريق الرئيسي، وقفزتُ من أعلى السور لأتجنب الدخول من البوابة، وسرتُ في الممشى إلى هنا في العاصفة. انتظرتُ في الخلف عند الإسطبلات القديمة طويلا جدا، أتساءل ماذا أفعل، ثم رآني أحدهم. أنا آسف حقًا. أنا..."

دَخَل باولينج مندفعًا وعصبيًا يحمل المدفأة، يبدو أنه اضطر لانتزاعها نزعًا من الوصيف. راقبا الكاتب وهو يجثم على أربع، ينْخُر ويختفى جزئيًا أسفل طاولة جانبية ليصل إلى قابس. بعد أن نهض واستعاد نفسه، وضع يده على كتفي الشاب ووجّهه إلى تيار الهواء الدافئ. قال لفيونا قبل أن يغادر "سأكون بالخارج مباشرة".

حين صارا وحدهما مجددا قالتْ "ألا يجب أن أعتقد أن ثمة شيئا ما مخيفًا في تتبعك لي إلى البيت ثم إلى هنا؟"

"أوه لا! أرجوكِ لا تفكري هكذا. الأمر ليس كذلك". جال بنظره في حَيرة، كأن شرحا ما مكتوبًا في مكان ما في الغرفة. "انظري، لقد أنقذتِ حياتي. وليس هذا فقط. لقد حاول أبي إخفاء الحُكم عني لكنني قرأته. لقد قلتِ إنك تريدين حمايتي من ديني. حسنا لقد فعلتِ. لقد نجوتُ!"

ضحكَ على مزحته، وقالتْ هي "لم أنقذك لتتّبعني عبر المدن".

---

32 جون كيتس، شاعر إنجليزي من شعراء المدرسة الرومانسية في مطلع القرن التاسع عشر.

33 بيرسي بيش شيلي، شاعر إنجليزي رومانسي من القرن التاسع عشر من أهم أعماله بروميثيوس طليقا، أحد الذين تأثر بهم ويليام باتلر ييتس.

حينها لابد أن جُزءًا ثابتًا في المدفأة المروحية قد طالَ مدار حركة جُزء آخر، فقد امتلأت الغرفة بصوت ارتطام مكتوم ومتكرر. علا ثم انخفض، ثم ثبَت. شعرت بدفقة غضب على المكان كله. زائف. ورخيص. كيف لم تلحظ هذا من قبل؟

مرّتْ تلك الدفقة ثم قالتْ "هل يعلم والداك أين أنت؟"

"أنا في الثامنة عشرة الآن، يمكنني أن أكون أينما أشاء".

"لا يهمني كم عمرك، سيقلقان".

أطلق تنهيدة استسلام كالكبار، ووضع حقيبة ظهره على الأرض قائلًا "أُنظري، سيدتي..."

"يكفي هذا، اسمي فيونا". تشعر أفضل طالما استطاعت إبقاءَه في مكانه.

"لم أكن أقصد السخرية أو شيئا كهذا".

"لا بأس. ماذا عن والديك؟"

"بالأمس، تشاجرت مشاجرة كبيرة مع أبي. كنا قد خضنا مشاجرات قليلة منذ أن خرجت من المستشفى، لكن تلك كانت كبيرة حقًا، كلانا كان يصيح، وقد أخبرته برأيي كله في دينه الغبي، ليس أنه كان يسمع. في النهاية اختفيتُ من أمامه، صعدت إلى غرفتي وحزَمت حقيبتي، أخذت مدخراتي وقلت وداعا لأمي. ثم غادرتُ".

"يجب أن تتصل بها الآن".

"لا داعي لهذا. أرسلتُ لها رسالة هاتفية بالأمس من حيث كنت".

"أرسِل إليها رسالة أخرى".

نظرَ إليها، مندهشا ومحبَطا معا.

"هيا، أخبرها أنك آمن وسعيد في نيوكاسل وأنك ستكتب إليها

ثانية غدًا. ثم سنتحدث".

تراجعتْ خطوات قليلة عنه وراقبتْ إبهاميه يتقافزان على لوحة المفاتيح في شاشة اللمس. وخلال ثوان كان قد أعاد الهاتف إلى جيبه.

"هالكِ"، قال وهو ينظر إليها بتوقع، كأنها هي من عليها شرح موقفها.

عقدتْ ذراعيها "آدم، لماذا أنت هنا؟"

ابتعدتْ نظرتُه عنها وتردّد. لن يخبرها، ليس مباشرة.

"أُنظري، أنا لم أعد الشخص نفسه، حين جئتِ لرؤيتي كنت مستعدا للموت حقًا. من المذهل أن يضيع أشخاص مثلك وقتهم عليّ. كنت أبْلهَ حقًا!"

أشارت برأسِها إلى كرسيين خشبيين على جانبي طاولة بيْضَويّة من خشب الجوز، فجلسا إليها متقابلين. الضوء من السقف، عجلة ريفية مصنّعة من خشب مبقّع، تحمل أربعة مصابيح موفّرة للطاقة وتُلقي من أحد جانبيها بوهج أبيض مخيف، يُحدد معالم وجنتيه وشفتيه ويُبرز الحافتين الرقيقتين لنثْرته[34]. كان وجهه جميلًا.

"لم أظنّك أبله".

"لكنني كنتُ كذلك. كنتُ كلما حاول الأطباء أو الممرضات إقناعي بالعلاج، أشعر بنوع من النُّبل والبطولة وأنا أجيبهم بأن يتركوني وحدي. كنتُ صادقًا وطيبًا. أعجبني أنهم لم يفهموا كم كنتُ عميقًا. كنت منتفخًا حقًا. أعجبني فخر والدَيّ والشيوخ بي. كنت في الليل، حين لا يكون أحد حولي، أتدرب على مقطع فيديو لي مثل الانتحاريين. كنت أنوي تصويره بهاتفي. كنت أريده أن يُذاع

34 النَثْرة هي الثلم العمودي في أوسط الشفة العليا.

في التليفزيون وأثناء جنازتي. كنت أبكي في الظلام وأنا أتخيل لحظة حَمل نعشي ومروره بوالدَيّ وأصدقائي في المدرسة ومُدرسِيّ، والجماعة كلها، الزهور، الأكاليل، الموسيقى الحزينة، الجميع يبكون، الجميع فخورون بي ويحبونني. كنت أبلهَ حقًا".

"وأين كان الرب؟"

"خلف كل هذا. كانت تلك أوامره وكنت أطيعها. لكن الأمر أغلبه عن المغامرة الرائعة التي كنتُ فيها، أن أموت بطريقة جميلة فيحبني الجميع. أعرف فتاة في المدرسة أصابها مرض فقدان الشهيّة منذ ثلاث سنوات، حين كانت في الخامسة عشرة. كان حلمها أن تظل تخسر وزنا حتى تصير لا شيء – كورقة شجر جافة في الرياح، كما قالتْ، الذوبان بهدوء نحو الموت فيما الجميع يُشفقون عليها ويلومون أنفسهم بعد ذلك لأنهم لم يفهموها. شيء كهذا".

ذكّرتها جلسته الآن بجلسته وهو في المستشفى، يستند على الوسادات بين فوضى المراهقين. لم تتذكر مرضه، بل الحماسة، البراءة الساذجة. حتى كلمة فقدان الشهية من شفتيه تبدو كرحلة زاخرة بالآمال. أخرج من جيبه شريطًا رفيعًا من قماش أخضر، مقطوعًا من بطانة ربما، لفّه وربطه بإحكام بين سبابته وإبهامه مثل سُبْحة.

قالتْ "لم يكن الأمر بشأن دينك كثيرا إذن. بل بشأن مشاعرك أكثر".

رفع يديه الاثنتين، "أتت مشاعري من ديني. كنت أنفذ إرادة الرب، وكنتِ أنتِ والآخرون جميعًا مخطئين تمامًا. كيف كنت سأدخل في غمار كل هذا لو لم أكن من الشهود؟"

"يبدو أن صديقتك فاقدة الشهية قد تدبّرت أمرها".

"نعم، حسنا، في الحقيقة، إن فقدان الشهية مثل الدين قليلًا".

حين عقدتْ حاجبيها متسائلة ارتجل قائلا "أوه، أنتِ تعرفين، نريد أن نعاني، نحب الألم والتضحية، نظن أن الجميع يراقبون ويهتمون وأن الكون كله يدور حولك. وحول وزنك!"

لم تستطع منع نفسها، أضحكها التجهم والخجل من الذات في التفكير المتأخّر. ابتسم لنجاحه غير المتوقع في إضحاكها.

سمِعا أصواتًا ووقْع خطوات في الرواق فيما يغادر الضيوف غرفة العشاء إلى غرفة الجلوس لاحتساء القهوة، ثم ضحكات متفرّقة قريبة من غرفة المكتبة. توتّر الفتى لإمكانية المقاطعة وجلسا في صمت تآمري ينتظران انحسار الأصوات. كان آدم ينظر لأسفل إلى يديه المتشابكتين على سطح الطاولة المصقول. تعجبت لكل ساعات طفولته وسنوات مراهقته التي قضاها في الصلاة والتراتيل والطقوس ومختلف القيود التي لن تعرف عنها شيئا، في الجماعة الضيقة المحبة التي احتضنته حتى كادت أن تقتله تقريبا.

"آدم، أنا أسألك مجددا. لماذا أنتَ هنا؟"

"لأشكرك".

"ثمة طرق أسهل".

تنهد ثانية وهو يعيد الشريط إلى جيبه. للحظة ظنته يستعد للرحيل. لكنه قال "كانت زيارتِك أفضل شيء حدث لي". ثم أردف بسرعة "كان دِينُ والديّ سُمًّا وكنتِ أنتِ الترياق".

"أنا لا أذكر أنني تحدثتُ عن معتقدات والديك".

"لم تفعلي. كنتِ هادئة، استمعتِ إليّ، سألتِ أسئلة، وبعض

التعليقات. هذا هو الأمر. إنه ما لديكِ. ما أضافَ شيئا ما. لم يكن عليكِ قوله. طريقة في التفكير والحديث. إن لم تفهمي ما أقصده، اذهبي وتحدثي مع الشيوخ. وحين غنينا معًا أغنيتنا..."

قالت فجأة "أما زلت تعزف القيثارة؟"

أومأ برأسه.

"والشعر؟"

"نعم، كثيرا. لكنني كرهتُ ما كنت أكتبه من قبل".

"حسنا، هذا جيد. أعرف أنك ستكتب شيئا ما رائعًا".

رأتْ اليأس في عينيه. كانت تنأى بنفسها عنه، تلعب دور العَمّة المهتمّة. عادت بالمحادثة خطوتين إلى الوراء، تتساءل لماذا تحرص بشدة على ألا تحبطه.

"لكن لا بد أن مدرّسيك مختلفون كثيرا عن الشيوخ".

رفع كتفيه. "لا أعرف". ثم أضاف يقصد التفسير "المدرسة كبيرة جدا".

"وما هو هذا الشيء الذي يُفترض إنه لديّ؟" سألتْ بصرامة، دون أن تسمح لأدنى أثر من السخرية.

لم يُحرجه السؤال. "حين رأيتُ والدَيّ يبكيان هكذا، يبكيان حقًا، يبكيان ويكادان يصيحان فرحًا، انهار كل شيء. لكن الأمر أنه انهار لتتضح الحقيقة. بالطبع لا يريدانني أن أموت! إنهما يحبانني. لماذا إذن لم يقولا هذا، بدلًا من الحديث عن الفردوس؟ كان حينها أن نظرتُ إلى الأمر كشيء إنساني عادي. عادي وجيد. ليس عن الرب إطلاقًا. كان ذلك سخفًا فقط. كأن أحد الكبار جاء إلى غرفة مليئة بأطفال يُزعج أحدهم الآخر وقال "هيا، كفوا عن كل هذا الهراء،

حان وقت الشاي!" كنتِ أنتِ هذا الشخص. كنتِ تعرفين طوال الوقت لكنكِ لم تقولي شيئًا. كنتِ فقط تسألين أسئلة وتستمعين. كل ما ينتظره من حياة وحب – كما كتبتِ. هذا هو ما "لديكِ". ثم إلهامي. بدءًا من أشجار الصفصاف وما بعدها".

قالتْ وما زالت على صرامتها "لقد انفجرتْ قمة رأسك".

ضحك بفرح لاقتباسِها منه وقال "فيونا، يمكنني الآن عزف مقطوعة باخ تلك كلها بدون خطأ تقريبًا، ولحن كورونيشن ستريت[35]. وكنتُ أقرأ أغاني الأحلام لبيريمان[36]. وسوف أشارك في مسرحية، وعليّ اجتياز جميع امتحاناتي قبل أعياد الميلاد. والفضل يعود لكِ في امتلائي هكذا بيتس!"

"نعم"، قالت بهدوء.

مال إلى الأمام مستندا على مرفقيه، عينان داكنتان تلمعان في الضوء القميء، وجهه كله يختلج تحفزًا، بشهية لا تحتمل.

فكّرت للحظة، ثم قالتْ بهمس "انتظر هنا".

نهضتْ، ترددتْ قليلًا، وبدا أنها ستعدِل عن رأيها وتجلس. لكنها استدارتْ وعبرت الغرفة وخرجت إلى الردهة. كان باولينج يقف على بُعد خطوات، يتظاهر باهتمامه بقراءة صفحات من دفتر الزوار على طاولة بسطح رخامي. أعطته تعليمات سريعة بصوت خفيض ثم عادت إلى المكتبة وأغلقتْ الباب خلفها.

كان آدم قد نزع منديل المائدة عن كتفيه ويتفحص الآن رسومات المواقع المطبوعة عليه. حين عادت إلى كرسيها قال لها "لم

---

35 مسلسل تلفزيوني بريطاني شهير من بداية الستينات

36 جون آلين مالكالبين بيريمان (1914-1972) شاعر أمريكي وأحد رواد مدرسة شعر الاعتراف، ومن أشهر أعماله ديوان أغاني الأحلام الصادر عام 1964

أسمع عن أيٍّ من هذه الأماكن من قبل".

"يوجد الكثير لاكتشافه"

حين زالت آثار المقاطعة قالتْ "فقدتَ إيمانك إذًا؟"

بدا أنه طرفَ بعينيه ثم قال "نعم، ربما. لا أعرف. أعتقد أنني مرعوب من قولها بصوت عال. لا أعرف أين أنا حقًا. أعني، الأمر أن، ما أن تتراجعي خطوة عن الشهود، حتى يمكنك قطع الطريق كله أيضًا. لماذا استبدال جنيّة بأخرى؟"

"ربما الجميع في حاجة إلى جنيّات".

ابتسم بتسامح. "لا أظن أنك تعنين هذا".

لجأتْ إلى عادتِها في تلخيص آراء الآخرين. "رأيت أبويك يبكيان إذن، وأنت مُرتبك لأنك تشك أن حبهما لك أكبر من إيمانهما بالرب أو بالآخرة. وأنت في حاجة إلى أن تبتعد عنهما. طبيعي تمامًا لشخص في مثل سنك. هذا سيساعدك. لكنني ما زلت لا أفهم ماذا تفعل هنا. والأهم من هذا، ماذا تنوي فعله الآن؟ إلى أين سوف تذهب؟"

أربَكه السؤال الثاني أكثر. "لي خالة في بيرمنجهام، شقيقة أمي. سأقيم عندها لأسبوع أو اثنين".

"هل تنتظرك؟"

"نوعًا ما".

كانت على وشك أن تجعله يُرسل رسالة أخرى، حين مد يده عبر الطاولة، فسحبت هي يدها بنفس السرعة إلى حِجرها.

لم يستطع تحمل النظر إليها ولا نظرها هي إليه وهو يتحدث. وضع يده على جبينه، يُظلل عينيه، وقال "هذا هو طلبي. حين ستسمعينه ستظنينه غبيًا جدا. لكن من فضلك لا ترفضيه فورًا.

من فضلك قولي إنك ستفكرين فيه".

"حسنا؟"

تحدث إلى سطح الطاولة. "أريد أن أعيش معكِ".

انتظرتْ المزيد. لم يكن طلبا متوقعًا. لكنه الآن، بدا واضحًا.

ما زال لا يستطيع النظر في عينيها، يتحدث بسرعة كأنه يخجل من صوته. كان قد فكر في الأمر كله. "يمكنني القيام ببعض المهام لكِ، أعمال منزلية، تسوق. ويمكنك إعطائي قوائم قراءة، أتعرفين، كل ما تظنين أنني يجب أن أعرف عنه..."

كان قد سار خلفها عبر المدن، وفي الشوارع، وتحت العاصفة، ليطلب منها هذا. امتداد منطقي للرحلة البحرية الطويلة التي حلم بها معها، وتحدّثهما طوال النهار وهما يسيران على سطح السفينة. امتداد منطقي ولا معقول، وبريء. لفّهما الصمت، حتى صوت المدفأة المروحية بدا أنه هدأ، ولا أصوات من خلف الغرفة. ظل يحمي وجهه منها. حدّقت في خصلات شعره البني الداكن الشابة النضرة، جفّت تمامًا الآن وتلمع.

قالت برقة "أنتَ تعرف أن هذا ليس ممكنا".

قال "لن أزعجكما، أعني، أنتِ وزوجك". أخيرا أبعد يده ونظر إليها. "أتعرفين، سأكون مثل مستأجر. يمكنني بعد الامتحانات أن أبحث عن عمل وأدفع لكِ إيجارا".

رأتْ بعين خيالها غرفة الضيوف وفراشيها الضيقين، والدمى والحيوانات الأخرى في سلة الخيزران، ودولاب اللعب مكتظ حدّ أن دُرفته لا تنغلق. سعلتْ فجأة ووقفتْ، سارت عبر الغرفة إلى النافذة وبدت كأنها تدقق النظر في الظلام. أخيرًا، دون أن تستدير، قالتْ

"لدينا غرفة ضيوف واحدة فقط والكثير من أبناء وبنات الأخوة".

"هل تعنين أن هذا هو المانع الوحيد لديكِ؟"

طَرْقٌ على الباب ثم يدخل باولينج ويقول "سيكون هنا خلال دقيقتين سيدتي" ثم ينصرف.

استدارتْ عن النافذة وسارت إلى آدم، انحنت لتحمل حقيبتَه عن الأرض وقالت: "سيذهب كاتبي معكَ في التاكسي، أولًا إلى المحطة ليشتري لك تذكرة غدا صباحا ثم إلى فندق قريب كي تبيت الليلة".

بعد فترة صمت، نهضَ ببطء وأخذ منها الحقيبة. وبرغم طوله، بدا كطفل صغير مصدوم وهو يقول "أهذا هو كل شيء إذا؟"

قالتْ "أريدك أن تعدني أنك ستتصل بوالدتك مجددا قبل أن تستقل القطار. أخبرها أين ستكون".

لم يجِب، أشارت له إلى الباب وخرجا معا إلى الردهة. لا أحد هناك، ما زال كارادوك بول وضيوفه في غرفة الرسم خلف أبوابها المغلقة. تركته بالقرب من باب المكتبة وذهبتْ إلى غرفتها لتأتِ بمال من حقيبة يدها. في طريق عودتها، رأت المشهد بكامله من موقعها أعلى الدّرَج، كان الباب الأمامي مفتوحًا والوصيف يتحدث مع السائق بالخارج. ومن خلفهما، أسفل درج البهو المعمّد، التاكسي، بابه مفتوح وتنبعث منه أصوات مبتهجة هجومية لموسيقى أوركسترا عربية. كان كاتبها يعبر الردهة إلى الخارج بسرعة، في الغالب ليمنع الوصيف من خلق مشكلة. ما زال آدم هنري عند باب المكتبة يحتضن حقيبته بذراعيه إلى صدره. حين وصلت إليه، كان الوصيف والسائق والكاتب بالخارج على الممشى المفروش بالحصى عند السيارة، يناقشون، كما أمِلت، مسألة فندق مناسب.

بادرها بقوله "لكننا حتى لم..." فرفعتْ يدَها تُسكته وقالت "يجب أن تذهب".

ثم وبرقة، أمسكتْ ياقة سترته الخفيفة بأصابعها وجذَبته نحوها. كانت تنوي تقبيله على خده، لكنها حين شبّت نحوه، انحنى قليلًا وتقارب وجهاهما، فمال برأسه، وتقابلت شفاههما. كان بإمكانها التراجع، كان بإمكانها الابتعاد فورا، لكنها تلكأت، عاجزة أمام اللحظة. محَتْ حسية تلامس البشرة بالبشرة كل قوة الإرادة. إن كان تبادل القبلات بعفّة وملء الشفتين أمرًا مُمكنًا، فقد كان هذا ما فعلته. تواصل عابر، لكنه أكبر من فكرة القبلة، أكثر مما قد تمنحه أم لابنها الراشد. طوال ثانيتين، ثلاث ربما. الوقت الكافي لتشعر بنعومة شفتيه وليونتها. وبكل السنين، وكامل الحياة، التي تفصل بينه وبينها. فيما يتراجعان، قد يكون تماسًا خفيفًا بين الجلدين ما جذبهما معًا مجددًا. لكن ثمة صوت خطوات تقترب على الحصى ثم على الدّرَج الحجري بالخارج. تركتْ ياقته وقالتْ مجددًا "يجب أن تذهب".

التقطَ حقيبته، التي تركها تسقط على الأرض، وسار خلفها عبر الردهة إلى الخارج، إلى هواء الليل المنعش. حيّاهما السائق بالأسفل وفتح باب التاكسي الخلفي. كان قد أطفأ الموسيقى. كانت تنوي إعطاء النقود لآدم، لكنها في تغيير فجائي لا منطقي سلّمتها لباولينج الذي أومأ برأسه بجدية وهو يأخذ لفة العملات الورقية الرفيعة. ندّت عن آدم هنري حركة سريعة بكتفيه كأنه ينفض نفسه ليتحرر منهم جميعًا وجلس في المقعد الخلفي للسيارة والحقيبة على حجره، يحدق أمامه مباشرة. سارت حول السيارة، وهي نادمة بالفعل على ما جلبته لنفسها، لتتبادل معه نظرة. كان بالطبع واعيا لها، لكنه

أدار رأسه بعيدا عنها. جلسَ باولينج في المقدمة بجوار السائق. أغلق الوصيف باب آدم بتلويحة حاسمة بكفه. وأسرعتْ فيونا تصعد السلم الحجري بكتفين منحنيَين، فيما التاكسي يبتعد.

خمسة

غادرتْ نيوكاسل بعد أسبوع، تركتْ الأحكامُ التي أصدرتها أو أجّلتها لحين إصدار تقارير، الخصومَ راضين أو ناقمين، بعضهم لديه هامش راحة الاستئناف. في القضية التي ذكرتها لتشارلي على العشاء، منحت حضانة الطفلين للجدّين، وسمحت بتواصل أسبوعي تحت الإشراف للأم والأب على نحو منفصل، بتاريخ عودة محدد بعد ستة أشهر. حينها سيكون أمام من سيجلس مكانها تقريرًا عن تقدم الأمور بشأن رفاه الطفلين، ووعود الوالدين بحضور برامج التعافي من الإدمان، وتقريرًا عن حالة الأم الذهنية. تبقى الطفلة الصغيرة في مدرستها، ابتدائية كنيسة إنجلترا، حيث يعرفونها جيدا. وجدتْ فيونا أداء إدارة الطفولة بالسلطة المحلية في القضية نموذجيًا.

في نهاية ظهيرة الجمعة ودّعت موظفي المحكمة. السبت صباحًا في ردهة الليدمان، حمّل باولينج صندوق السيارة الخلفي بصناديق الوثائق وشماعات أرديتها. وانطلقا بمتاعهما الشخصي في المقعد الخلفي، والقاضية في المقعد الأمامي، غربًا إلى كارلايل عن طريق تاينجاب، بعرض إنجلترا كلها، أغنام الشيفيوت إلى يمينها، وجبال بنين إلى يسارها، لكن دراما الجيولوجيا والتاريخ شابها ملل المرور، كثافته، ومساراته، وأثاث الطريق الذي يُميّز ويُوحّد الجزر البريطانية.

كانا يتقدمان ببطء إيقاع السير في هيكسهام، يرقد هاتفها في يدها وهي تفكر، كما ظلت طوال فترات الراحة خلال الأسبوع، في القبلة. يا لها من حماقة عفوية أن لم تتراجع. جنون مهني واجتماعي. بدا لها في الذاكرة، أن الاتصال الفعلي، اللحم باللحم، قد استمر زمنًا. حاولت التخفيض من اللحظة إلى مجرد لمسة بريئة للشفاه، لكن اللمسة تعود لتتمدّد مجددًا، إلى أن لم تعد تعرف ماذا كانت أو ماذا حدث أو إلى أي مدى خاطرت بالسقوط في العار. كان من الممكن أن يخرج كارادوك بول إلى الردهة في أي لحظة. الأنكى، أن يراها أحد ضيوفه، هؤلاء الذين لا تقيدهم ولاءات قبليّة، ويخبر العالم. كان من الممكن أن يعود باولينج إلى الداخل من محادثته مع سائق التاكسي ويُفاجئها. كانت المسافة، المقاسة بحرص بينهما لجعْل العمل ممكنا، قد تدمّرت.

لم تكن تميل إلى الدوافع الجنونية ولم تفهم تصرفها. أدركت أن ثمة الأكثر من هذا لمواجهته في خليط مشاعرها المرتبك، لكن يكفيها الآن الرعب مما قد يحدث، الإخلال الوضيع والمشين بأخلاقيات المهنة، التي تنتمي إليها. الخِزي الذي سيكون كله من نصيبها. يصعب تصديق أنّ لا أحد رآها، أنها تغادر مسرح الجريمة سليمة. الأسهل تصديق أن الحقيقة، قاسية وقاتمة كبذرة مرار، على وشك أن تنبت: أنها شُوهدَت دون أن تلاحِظ. أنه الآن حتى، خلفها بأميال في لندن، كانوا يناقشون الأمر. أنها يوما ما قريبا ستسمع عبر هاتفها الصوت المتردد المتحرِّج لزميل قديم يقول آه، فيونا، انظري، أنا آسف حقًا لكن أخشى أنني يجب أن أحذرك، أوه، لقد حدث شيء ما. ثم تجد في انتظارها في جمعية جراي خطابًا رسميًّا من ضابط تحقيق في

الشكاوى ضد القضاء.

نقرتْ مفتاحين في الهاتف لتتصل بزوجها. في هروبها من القُبلة، تهرول مذعورة خلف سِتار المرأة المتزوجة حسنة السمعة، بعض التماسك. اتصلتْ به بدون تفكير، من باب العادة، بالكاد تتذكر اللعبة بينها وبينه. حين سمعتْ تحيته المنتبهة، أخبرتها الصوتيات أنه في المطبخ. صوت المذياع، بولنك ربما. في صباحات السبت كانا يتناولان، أو اعتادا أن يتناولا، إفطارا كسولًا مبكرا، أوراق منتشرة، محطة راديو ثري بصوت خفيض، قهوة، فطائر محلاة بالزبيب ساخنة من شارع لامبس كونديوت. كان يرتدي روبه المنزلي الحريري البيزلي، بذقنه غير حليقة وشعر مشعث.

سألَها بنبرة محايدة حريصة إن كانت بخير. حين قالت نعم "بخير" أدهشَها كم بدت طبيعية. بدأت ترتجل بسلاسة، تمامًا مثلما تذكر باولينج، بتنهيدة رضا، طريقا مختصرا وتحرُّرًا من زحام المرور. من المنطقي لأجل ترتيبات منزلية جيدة أن تُذَكّره بتاريخ عودتها بنهاية الشهر، ومن الطبيعي، أو كان كذلك ذات مرة، أن تقترح أن يخرجا ليلة وصولها لتناول وجبة معًا. كان مطعم قريب يحبّانه محجوزا دائمًا مقدمًا. ربما يمكنه الحجز منذ الآن. وجدها فكرة جيدة. سمعته يكتم الدهشة في صوته، يوجه الدفة بدقة بين الدفء والمسافة. سألها مجددًا إن كانت بخير. إنه يعرفها جيدا جدا، والواضح أنها لا تبدو طبيعية تمامًا. قالت بتوكيدات هادئة إنها بخير تمامًا. تبادلا عبارات قليلة عن العمل. انتهت المكالمة بوداعه الحريص الذي بدا كسؤال تقريبا.

لكن لقد أفلح الأمر. انتقلتْ من التهيّؤات المذعورة إلى واقع من

الترتيبات، وموعد، وعلاقة تتحسن. شعرت بدفاعها أفضل وأكثر معقولية في مجمله. إن كان ثمة شكوى ضدها لكانت قد سمعت بها الآن. كان من الجيد أن اتصلت وحرّكت الأمور بعد لحظة الإفطار غير المحددة تلك. جدير بالذكر أن العالم لم يكن قط كما تتوقعه. بعد ذلك بساعة، حين كانت السيارة تزحف ببطء على طريق أيه 69 المكتظ إلى كارلايل، كانت مستغرقة في أوراق المحكمة.

وهكذا سار الأمر، بعد ذلك بأسبوعين حين اكتملت جولتها المحلية وانتثر المزيد من العدل عبر أربع مدن شمالية، كانت تجلس قبالة زوجها إلى مائدة في ركن هادئ بمطعم كليركينويل. تقف بينهما زجاجة نبيذ لكنهما يشربانها بحذر. لا داعي للاندفاع الفجائي نحو الحميمية. ظلّا بعيدين عن الموضوع الذي كاد أن يُدمرهما. تحدث إليها برقة غريبة كما لو كانت قنبلة ما غير مألوفة قد تنفجر في منتصف الجملة. سألتْ عن عمله، عن كتابه عن فيرجيل، مقدمة ومختارات، الذي يشعر من بعيد أنه سيحقق ثروة. ظلت تطرح سؤالا بعد الآخر بعصبية، واعية لكونها تشبه المحقق. كانت تأمل أن تنظر إليه كما لو كانت المرة الأولى، أن ترى غرابته، كما رأتها منذ سنوات عديدة مضت، حين وقعت في غرامه. ليس سهلا. كان صوته وملامحه مألوفين كصوتها وملامحها هي. وجهه صارم وحزين. جذاب، بالطبع، لكن ليس بالنسبة إليها في تلك اللحظة. يداه، ترقدان على المائدة بجوار الكأس، لم تكونا، كما تأمل، على وشك الإمساك بإحدى يديها.

بنهاية الوجبة، حين استنفذا الموضوعات الآمنة، ساد صمت خطر. فقدا شهيتهما، لم يلمسا طبقي الحلو ولا النصف المتبقي من

زجاجة النبيذ. يُزعجهما تبادل الاتهامات المكتوم. ما زال في ذهنها رحلته البذيئة، وفي ذهنه كما قدّرت، مبالغتها في الشعور بالجرح. بدأ بنبرة عازمة يخبرها عن محاضرة في الجيولوجيا حضرها ذات مساء تصف كيف يمكن قراءة تسلسل طبقات الترسبات الحجرية مثل كتاب في تاريخ الأرض. في ختام المحاضرة سمح المحاضر لنفسه ببعض التكهن. مئات الملايين من السنين في المستقبل، حين ستغرق المحيطات في سديم الأرض ولن يوجد ما يكفي من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي لنمو النباتات ويصير سطح العالم صحراء صخرية بلا حياة، ما الدليل الذي قد يجده جيولوجي من خارج الأرض على حضارتنا؟ تحت الأرض بأقدام قليلة خط داكن سميك في الصخر قد يميزنا عن كل ما سبقنا. في تلك الطبقة القاتمة بسُمك ست بوصات ستتكثف مدننا ومركباتنا وطرقنا وجسورنا وأسلحتنا. كذلك، كافة أنواع التركيبات الكيماوية التي لم تكن توجد في العصر الجيولوجي الماضي. سيذوب الإسمنت والطوب بسهولة مثل الجير. أفضل أنواع الصلب سيغدو بقعة حديد مفتتة. قد يعلن تحليل ميكروسكوبي أكثر تفصيلًا عن حبوب اللقاح أعلى المروج الطبيعية الرتيبة التي صنعناها لإطعام تعداد سكاني هائل من الماشية. بالحظ الجيد، قد يجد الجيولوجي بعض العظام المتحجّرة، قد تكون عظامنا نحن. لكن بعض مخلوقات البرية بما في ذلك جميع الأسماك لن تقرب حتى إلى عُشر نسبة الأغنام والبقر. كان لا بد من أن يختم بأنه ينظر إلى بداية انقراض جماعي بدأ بالحدّ من تنوّع الحياة.

ظلّ يتحدث لخمس دقائق. يقمعها بثِقل الزمن الذي لا معنى له. تثيره صحراء السنين غير المتخيّلة والنهاية الحتمية. لكنها لا تؤثر

فيها. استقرت كآبة ما حولها. شعرت بثقلها على كتفيها وبالأسفل في قدميها. أخذت منديلها من حجرها، وضعته على المائدة، على نحو استسلامي، ثم وقفتْ.

كان يقول، كمن يتعجّب، "هكذا سنوقّع بأسمائنا في السجل الجيولوجي".

قالتْ "ظنّي أن علينا دفع الحساب،" وسارت بسرعة في المطعم نحو غرفة السيدات، حيث وقفت أمام المرآة، عيناها مغمضتان، والمشط في يدها في حال دخل أحدهم، تنفّسَت ببطء مرات قليلة.

لم يكن ذوبان الجليد بينهما سريعا ولا ممتدّا. في البداية كانت راحة أن كفّا عن تجنُّب أحدهما الآخر عمدًا في الشقة، والتنافس ببرود على من هو الأكثر أدبًا بتلك الطريقة الخانقة التي تميزهما. تناولا الوجبات معًا، بدآ يقْبَلان دعوات على العشاء مع الأصدقاء، تحادثا – عن العمل في الغالب. لكنه ما زال ينام في غرفة الضيوف، وحين جاء أحد أبناء الأخوة، شاب في التاسعة عشر من عمره، ليبيت عندهما، عاد جاك إلى أريكة غرفة الجلوس مرة أخرى.

أواخر أكتوبر. التوقيت الشتوي، علامة على التمطّي الأخير لعامٍ مُنهَك، خيّمت الظلمة. لأسابيع حل ركود جديد بينها وبين جاك وبدا خانقًا كما كان من قبل تقريبا. لكنها كانت مشغولة، ومرهقة بشدة في المساء لتبدأ المحادثة اللازمة التي قد تحركهما إلى مرحلة جديدة. علاوة على عبء القضايا المعتاد في الإستراند كانت تترأس لجنة بشأن إجراءات جديدة في المحكمة، وعضوة في لجنة أخرى للرد على اقتراح بتعديل في قانون الأسرة. كانت إن وجدت في نفسها القوة بعد العشاء، تتدرب وحدها على البيانو، استعدادا لبروفاتها مع مارك

بيرنير. كان جاك مشغولا هو الآخر، يحل محل زميل له في الجامعة، ومنكبًا في البيت على كتابة مقدمة طويلة لمختاراته لفيرجيل.

أخبرها المحامي المسئول عن تنظيم حفل أعياد الميلاد في القاعة الكبرى أنها ومارك بيرنر قد أُختيرا لافتتاح الحفل. يمكنهما العزف والغناء لما لا يزيد عن عشرين دقيقة، مع السماح بخمس دقائق كحد أقصى لفاصل خاص. وقت كافٍ لمختاراتهم: ليالي الصيف لبيرليوز[37]، وأغنية لمالِر؛ إحدى قصائد روكرت[38]، "لقد فقدني العالم". وسوف يغني كورال جمعية جراي بعض مونتيفيردي وباخ، يليه عزف ثلاثي بالآلات الوترية لهايدِن. تقضي عصبة من كبار القانونيين بجمعية جراي ليالي كثيرة كل عام وهم يستمعون مقطّبين بتركيز لموسيقى الغرفة بقاعة ويجمور في ماريلبون. يعرفون المؤلّفات جيدا. يقال إنهم يعرفون النغمة السيئة قبل أن تُعزَف. هنا، حتى مع وجود نبيذ في متناول الأيدي، والجو العام، على الأقل خارجيًا، متسامح، كانت المعايير قاسية على عزفٍ للهواة. أحيانا تستيقظ فيونا قبل الفجر تتساءل ما إن كانت تستطيع ذلك، وإن كان ثمة طريقة لتعتذر. ظنّت أنها لا تستطيع التركيز، وكانت أغنية مالِر صعبة. موضوعة ببطء، سيكشُفُها. والشوق الألماني إلى الفَناء يُزعجها. لكن مارك كان يتحرق لغنائها. كان قد انفصل عن زوجته منذ عامين، والآن، طبقا لما قاله شيروود رونسي، توجد امرأة في حياته. خمّنت فيونا أنها ستكون بين الجمهور وأنه يتمنى إبهارها. حتى إنه طلب من فيونا أن تعزف من قلبها، لكنها أخبرته أن هذا يفوق قدرتها. كانت تحفظ في ذاكرتها ثلاث

37 هيكتور بيرليوز موسيقار فرنسي رومانسي من القرن التاسع عشر من أهم أعماله لعنة فاوست الأبدية وطفولة المسيح.

38 فريدريك روكرت، شاعر ومترجم ومستشرق ألماني من القرن التاسع عشر ترجم الكثير من الأدبين العربي والفارسي، ومن ترجماته مقامات الحريري وبعض سور من القرآن الكريم.

أغانٍ أو أربع لهما معًا فقط.

بنهاية أكتوبر وجدتْ في بريدها الصباحي بمجمع محاكم العدل ظرفًا أزرق مألوفًا. كان باولينج في غرفتها حينها. ولتُخفي مشاعرها، مزيجًا من الفرح والخوف الغامض، أخذت الرسالة إلى النافذة وتظاهرت بالاهتمام بشيء ما في الباحة بالأسفل. حين غادر باولينج، أخرجت من الظرف ورقة واحدة، مطوية لأربعة أجزاء، كانت قصيدة غير مكتملة. عنوانها في حروف كبيرة سميكة تحته خطين. "**ملحمة آدم هنري**". الكتابة صغيرة، والقصيدة طويلة تشغل الصفحة بكاملها. لا رسالة مُرفقة. قرأت البيت الأوّل، فشلت في فَهمه، فوضعت الورقة جانبًا. لديها قضيّة صعبة ستبدأ خلال نصف ساعة. مجموعة ادّعاءات وادّعاءات مضادة زوجية معقدة استغرقت أسبوعين من حياتها. يريد كلا الطرفان أن يظل ثريًا للغاية على حساب الآخر. لم تكن تلك لحظة تناسب الشعر.

مرَّ يومان قبل أن تفتح الظرف مجددا. كانت العاشرة مساءً. جاك في محاضرة أخرى عن طبقات الترسبات الحجرية، أو هكذا قال، وكانت تفضل أن تصدّقه. رقدتْ على أريكتها وبسطتْ الورقة المسنّنة على حجرها، بدت لها كشِعر هزَليّ من النوع المطبوع على بطاقات أعياد الميلاد. ثم أجبرت نفسها على حالة ذهنية أكثر تقبُّلا. إنها ملحمة، رغم كلّ شيء، وهو في الثامنة عشرة من عمره فقط.

ملحمة آدم هنري

أخذتُ صليبي الخشبيّ وجررْته جانب النهر
كان صغيرا وأحمق ويزعجه الحلم

التوبة حماقة، والأثقال للحمقى
لكنهم أخبروني أيام الآحاد أن أعيش الحياة بقواعد

جرّحت شقوق الخشب كتفيّ، كان صليبًا ثقيلًا كالرّصاص،
كانت حياتي ضيقة ورهبانية وكدت أن أموت
وكان النهر مرحا يرقص مع أشعة الشمس
لكنني يجب أن أواصل السير، بعينين مثبتتين في الأرض

ثم ارتفعت سمكة من الماء بخيشومين كقوسي قزح
تلألأت قطرات الماء تصطف على ذيلها الفضي
قالت "ألقِ بصليبك في الماء إن أردت تحررًا!"
فألقيتُ بحِملي في النهر تحت ظل شجرة يهوذا

وركعتُ على ضفة النهر شاكرا النعمة الجليلة
مالت على كتفي ومنحتني قُبلتها الأروع.
لكنها غاصت بعد ذلك في الأعماق الجليدية حيث لا يُعثَر عليها أبدًا
وغرقتُ أنا في دموعي حتى سمعت أصوات الأبواق
ورأيت يسوع يقف على الماء
قال "كانت تلك السمكة صوت الشيطان، وعليك أن تدفع الثمن.
كانت قُبلتها قبلة يهوذا.. غدرٌ باسمي.. ولعلّ مَن..."

لعلّ من ماذا؟ فُقِدت الكلمات الأخيرة بالبيت الأخير تحت شبكة خطوط عنكبوتية تحوّلتْ، بأفكارٍ أخرى، إلى كلمات محذوفة

ومُعاد تركيبها، وخيارات أخرى بعلامات استفهمام. بدلًا من محاولة فك شفرة تلك الفوضى أعادت قراءة القصيدة، ثم رقدتْ مغمضة العينين. أزعجها أنه غاضب منها، يُلبسها ثوب الشيطان، فبدأت في حلم اليقظة كتابة رسالة له، وهي تعرف أنها لن ترسلها أبدًا، ولن تكتبها حتى. كان دافعها أن تسترضيه وأن تبرر موقفها كذلك. استدعتْ عبارات جامدة وسطحية. كان عليّ أن أرسلك بعيدًا، هذا لمصلحتك الفضلى، لديك شبابك أمامك. ثم عبارات أكثر تماسكًا، حتى لو كان لدينا الغرفة، يستحيل أن تكون أنت المستأجر. مثل هذا الأمر لا يجوز لقاضية بيساطة. ثم أضافت، آدم، أنا لست يهوذا. قد أكون سمكة عجوز...

هذه العبارة الأخيرة لإلقاء الضوء على رغبتها الشرسة في تبرير موقفها.

كانت "قبلتها الأروع" طيشًا، لم تستطع الهروب منه، ليس إلى حيث فكّر. لكنها عطفًا عليه فقط لم ترسل إليه رسالة. سيكتب لها ثانيةً، سيأتي عند بابها وسيكون عليها أن تُبعده ثانيةً. طوتْ الورقة وأعادتها في الظرف الذي أخذته إلى غرفة نومها ووضعته في درج الطاولة المجاورة لفراشها. سيتجاوز الأمر بسرعة. قد يعود أدراجه إلى الدين، إما يهوذا أو يسوع، والبقية مجرد أدوات شعرية في مسرحية تصرُّفها المشين، أن تُقبّله ثم تُرسِل به بعيدا في تاكسي. أيًا كان ما سيحدث له، الأرجح أن آدم هنري سينجح بامتياز في امتحاناته المؤجّلة، ويلتحق بجامعة جيدة. ستَذوي هي في أفكاره، وستُضحي شخصية ثانوية بنمو خبرته العاطفية.

* * *

كانا في قبوٍ صغير عارٍ أسفل مكتب مارك بيرنير. لا أحد يتذكر كيف جاء بيانو **جروتريان شتاينويج** إلى هنا، لم يدّع أحد ملكيته طوال خمسة وعشرين عامًا، ولم يمانع أحد نقله. كان ثمة خدوش ومواضع إطفاء سجائر على غطاءِه، لم يهتم أحد بإزالتها، لكن حركته جيدة، ونغماته مخملية. درجة الحرارة بالخارج تحت الصفر، أوّل بوصة ثلج في الموسم تستقر على نحو مثير في ميدان جمعية جراي. هنا، في ما يدعونها غرفة البروفات، لا توجد تدفئة مركزية، بل مواسير سفلية معينة بين نظام سباكة فيكتوري مبكّر، مثبّتة على أحد الحوائط، تمنح حرارة ضعيفة ثابتة صادف أنها تحفظ للآلة تناغمها. غطاء الأرضية، منذ 1960، موكيت بلون القهوة، لُصِق ذات مرة بالإسمنت، لكن حوافه الآن تبرز بتمرد. كان من السهل أن تخطئ في النغمات، الإضاءة من مصباح عارٍ ساطع بقوة مائة وخمسين واط مُعلّق في السقف الواطئ. ذكر مارك منذ فترة أمر تركيب ظلًّا لها. باستثناء حامل النوتة وكرسي بيانو من غير ظهر، لم يكن في الغرفة أثاث آخر سوى كرسي مطبخ مكسور، يضعان عليه معطفيهما وأوشحتهما.

تجلس فيونا إلى لوحة المفاتيح، يداها متشابكتان في حِجرها طلبا للدفء، تحدق في النوتة أمامها، ليالي الصيف، في نسختها لبيانو ومغنٍّ رئيسي. في مكان ما من غرفة جلوسها كانت توجد اسطوانة قديمة لكيري تي كاناوا[39]. لم ترها منذ سنوات. ولن تجديهما الآن. عليهما العمل بسرعة، لأنهما لم يقوما سوى ببروفتين فقط حتى الآن.

39 السيدة كيري جانيت تي كاناوا مغنية أوبرا إنجليزية شهيرة ولدت عام 1944 ونالت عدة أوسمة شرف.

لكن مارك كان في المحكمة اليوم السابق وكان ما زال غاضبا ويريد أن يخبرها لماذا، وبما ينوي فعله بمستقبله، بعد أن يترك القانون. الذي نال كفايته منه. حزين جدا، غبي جدا، إهدار للشباب. تهديد قديم وفارغ، لكنها شعرت وهي تجلس ترتعش بردًا أن عليها أن تسمعه. مع ذلك لم تستطع منع نفسها من التحديق في الافتتاحية، "الفيلانيلا"[40]، في النغمات المتكررة بهدوء، تنبض بتهدُّج متقطع، أو من تخيل اللحن الجميل، وتكوين ترجمتها الركيكة الخاصة لسطر جوتييه[41] الأوّل:

حين يأتي صيف جديد، حين يذهب البرد...

قضية بيرنر عن أربعة شباب خاضوا شجارا خارج حانة بالقرب من تاور بريدج مع أربعة شباب آخرين قابلوهم مصادفة. كان الثمانية يشربون. لكن الأربعة الأولين فقط من أُلقي القبض عليهم ووجِّهت إليهم التهم. وجدَتهم هيئة المحلفين مذنبين بتهمة إحداث ضرر بدني بالغ عمدًا وقبلت بمطالبة النيابة باعتبارهم مشروعًا مشتركًا، وبصرف النظر عن ما فعله كل منهم، يجب معاملتهم الأربعة بالتساوي. كانوا جميعًا في الأمر معًا. بعد هذا القرار الذي سبق الحكم بأسبوع، نصحهم قاض ساوثوارك، كريستوفر كرانهام، أن عليهم أن يتوقعوا عقوبات جادة بالحبس. في هذه المرحلة ظهَر مارك بيرنر بناء على طلب أحد الأقارب المهتمين لواحد من الشباب يُدعى واين جالاغار. قاموا معًا بحملة جمع تبرعات بين الأسرة والأصدقاء وببعض مهارات حشد الموارد على

40 Villanilla أحد أشكال القصيدة يتكون من خمسة مقاطع ثلاثية يليها رباعية.

41 تيوفيل جوتييه شاعر وروائي فرنسي وكاتب مسرحي رومانسي وصحفي وناقد أدبي من القرن التاسع عشر.

الإنترنت، جمعا العشرين ألف جنيه اللازمة. كان أملهم أن يتوسّط أحد أعضاء المحكمة الملكية من ذوي الصيت للتخفيف من الحكم على جالاغار. تم الاستغناء عن محامي مساعدة قانونية كفؤا تمامًا، وأُبقيَ مع ذلك على محامٍ متمرن.

كان مُوَكّل بيرنر شابًّا في الثالثة والعشرين من عمره من دالستون، حالمًا إلى حد ما، خطأه الوحيد السلبية. وعدم احترام المواعيد. أمه مدمنة خمر ومخدرات، الأب، شرحها، ظل غائبًا عن طفولة واين، التي عمّتها الفوضى والإهمال. يُحب أمه ويصر على أنها تحبه. لم تضربه قط. قضى أغلب صباه الراعي الرئيسي لها وفاتَه الكثير من الدراسة. غادرها في سن السادسة عشرة، اشتغل بأعمال متدنية، في مصنع لنتف ريش الدجاج، أو عامل مستودع، يخزن البريد الخردة في صناديق. لم يطالِب قط بإعانة بطالة أو دعم سكني. قبل ذلك بخمس سنوات، وهو في الثامنة عشرة من عمره، أُتّهم كيْدًا باغتصاب فتاة، وأودِع في إصلاحية للأحداث الجانحين لعدة أسابيع. ثم وُضِع تحت الحظر المشدد لمدة ستة أشهر. كان ثمة رسالة نصية على هاتف محمول تثبت أن ممارسة الجنس كانت بالاتفاق، لكن الشرطة لم تحقّق في الأمر. لديها ملفات يجب إغلاقها في قضايا الاغتصاب. وجالاغار من النوع النموذجي لهذا. في أول يوم للمحاكمة، تسبب دليل إثبات لعين من صديق المتهم المقرب في انهيار القضية. كانت الضحية المفترضة تأمل في مبلغ مالي من هيئة تعويض المجني عليهم. لشراء إكس بوكس جديد. وقد صرحت بذلك في رسالة نصية لصديقتها. شوهد محامي الادّعاء ينزع باروكته البيضاء ويقذف بها وهو يتمتم "فتاة غبية".

"حبكة أخرى في تاريخه"، قال بيرنر، "وهو في الخامسة عشرة من عمره، نزع عن رجل شرطة خوذته، مقلب غبي. لكنه اعتِبر في ملفه: اعتداء على ضابط شرطة".

جاء الربيع يا حبي الغالي، إنه موسم الحب الغالي.

كان المحامي إلى يسارها الآن، أمام حامل النوتة. يرتدي سروال جينز أسود ضيق، وتيشيرت بولو أسود، يذكرّها بأحد أبناء جيل الغضب القدامى. لا تعديل سوى نظارات القراءة المعلقة بسلسلة حول رقبته.

"أتعرفين، حين أخبر كرانهام الشباب بما عليهم أن يتوقعوا، قال اثنان منهما إنهما يريدان بدء فترة الحبس فورًا. حِملان ماكرة، ديكة رومية تصطف على باب الفرن. لذلك قلّدهم واين جالاغار، مع إنه أراد أن يكون مع صاحبته لأسبوع أخير. كانت لتوها قد أنجبت طفلهما. لذلك كان عليّ السّفر كل تلك المسافة غرب لندن إلى ذاك الأحمق لأراه. إلى تيمزميد[42]".

قالت فيونا وهي تقلِب الصفحة في نوتتها، "ذهبت إلى هناك مرة، إنها أفضل من أغلب الضواحي".

فتعالي إلى هذه الضفة الطيبة ودعينا نتحدث عن حبنا الرائع...

"اسمعي هذا"، قال بيرنر. "أربعة شباب من لندن. جالاغار، وكوين، وأوروكي، وكيلي. الجيل الثالث أو الرابع لمهاجرين أيرلنديين. لهجة لندنية. ذهبوا معًا إلى المدرسة نفسها. إدراكهم ليس سيئا. رأى ضابط القبض الأسماء وقرر أنهم صعاليك. لهذا لم يُزعج نفسه

42 مساكن شعبية شمال غرب لندن من الستينات.

بملاحقة الأربعة الآخرين. ولهذا قررت النيابة معاملتهم كمشروع مشترك. يستخدمون هذا مع العصابات. أمر مرتب جدا. كنْسٌ لطيف ونظيف وكسول".

"مارك" غمغمتْ. "يجب أن نبدأ".

"أكاد أنتهي تقريبا".

كالعادة، وُجد تسجيل للمشاجرة برؤية كاملة على كاميرتين للمراقبة.

"زوايا الرؤية ممتازة. يمكنك رؤية الجميع. وبألوان مكتومة. مشهد حاد وجاد. لم يكن مارتن سكورسيزي ليأت بأفضل منه".

استغرق بيرنر أربعة أيام ليحيط بالقضية، ظل يعيد تشغيل فيديو المعركة مرارا وتكرارا ويحفظ حركات التحول في شجار استغرق ثمانية دقائق من كاميرتين في موضعين مختلفين، ليدرس جيدا كل خطوات موكّله والسبعة الآخرين. راقب الاتصال الأول بين الرجال، على الرصيف الواسع بين محل مغلق وكابينة هاتف، تبادل ألفاظ غاضب، دفع قليل، صدور منتفخة، عجرفة ذكورية، حشد غير منظم يتجمع هنا وهناك، يهبط عند نقطة ما أسفل الرصيف، إلى الطريق. تقبض يد على ذراع، قبضة يد أخرى تدفع كتفًا، ثم يرفع واين جالاغار وهو في مؤخرة المجموعة ذراعه ولسوء حظه يصيب لكمة أولى، ثم أخرى، لكن قبضته عالية جدا، لأنه في الخلف بعيدا جدا، وتعرقل حركتَه علبةُ بيرة يحملها في يده الأخرى. كانت لكماته غير مؤثرة والرجل الذي يتلقاها بالكاد يلاحظها. الآن تنقسم المجموعة بغير نظام إلى مجموعتين. عند هذه النقطة، يلقي جالاغار، وما زال على الحافة، بعلبة البيرة. رمية من أعلى بذراعه.

مسح هدفه بعض قطرات البيرة من على ياقته، وردا على هذا أقبل أحد الأربعة الآخرين ولطم جالاغار بقوة على وجهه، جرح شفتيه وأوقف تورطه. وقف جالاغار ساكنا، دائخًا، ثم سار مبتعدا عن المعركة، خارج رؤية الكاميرات.

استمرّت المعركة بعد ذهابه. أقبل أحد أصدقاء المدرسة، أوكوروكي، وبقبضة واحدة طرح من لطم جالاغار أرضًا، ما أن سقط ذاك، ركله صديق آخر، كيلي، وتسبب في كسر فكه. بعد ذلك بنصف دقيقة، سقط رجل آخر، هذه المرة كان كوين هو من ركله، وجرح خده. حين وصلت الشرطة، نهض من لطم جالاغار وهرع يختبئ في شقة صاحبته. يخشى القبض عليه وفقدان عمله.

نظرت فيونا في ساعة يدها قائلة "مارك..."

"كدتُ أنتهي سيّدتي. الأمر أن موكلي ظل يقف هناك فقط في انتظار الشرطة. بوجه دامٍ. بذاك القدر من الضرر، إلى آخره. انكسرتْ عِظام، لذلك فهو ضرر بدني بالغ. الشرطة تتهم الأربعة بتهم عديدة. وتأتي النيابة في المحكمة لتطالب بمعاملتهم كمشروع مشترك والحكم عليهم بتهمة إحداث ضرر بدني بالغ من الدرجة الثانية، طبقًا للائحة، ما بين خمس إلى تسع سنوات. القصة القديمة نفسها. موكلي لم يلعب دورا في ذلك العنف. كان على وشك أن يُحكَم عليه بسبب جرائم ارتكبها آخرون ولم توجه إليه التهم بها حتى. كان من الممكن ألا تدينه هيئة المحلفين. أن يُحاكم بتهمة الإزعاج العام فقط، لكنني لم أكن هناك لنصحه، كان على محامي الدعم القانوني أن يعرض على هيئة المحَلّفين صورة الشرطة لوجهه الدامي. في جميع الأحوال، رفض الرجل ذو الفك المهشم عمل محضر كمجني عليه.

جاء إلى المحكمة كشاهد للنيابة. قال إنه لم يفهم شيئًا من الجلبة. أخبر القاضي إنه لم يحتج لعلاج، وذهب إلى إسبانيا لقضاء يومين بعد الشّجار.. في اليومين الأولين كان عليه رشف الفودكا بالماصّة. نهاية القصّة – كلماته نفسها في سجل المحكمة".

استمرّت فيونا تسمعه وهي تبسط أصابعها على مفاتيح نغمة لكنها لا تعزفها.

دعنا نذهب إلى البيت ونشتري فراولة برية.

"من الواضح أنني لم أستطع فعل شيء بخصوص قرار هيئة المحلفين. تحدثت لخمسة وسبعين دقيقة، محاولًا فصْل وين عن الآخرين، حاولت التخفيف من الضرر البدني البالغ إلى الدرجة الثالثة. من ثلاث إلى خمس سنوات في اللائحة. قدّمت أيضًا حجة قانونية متماسكة بأن القضاء يدين له بستة شهور حرية للتهمة الملفقة التي أدين بها سابقًا. بذلك كان الأمر سيقتصر على الحكم مع إيقاف التنفيذ، القيمة الحقيقية لكل هذا الغباء. تحدث كلٌّ من محامِي الدّعم القانوني للثلاثة الآخرين عشر دقائق عن موكّله. لخّص كرانهام الأمر. الوغد الكسول. حسنا، الدرجة الثالثة، شكرا للرب، لكنه لم يتخل عن أمر المشروع المشترك، ونسيَ تمامًا ما قلته عن الوقت الذي يدين به القانون لموكّلي".

حُكِم عليهم جميعا بعامين ونصف. كسول وفاسد. لكن أهالي الآخرين كانوا يبكون ارتياحًا في الانتظار. كانوا يتوقعون حكما بخمس سنوات كحد أدنى. أسديت لهم جميعًا صنيعًا، على ما أظن".

قالت فيونا "استخدم القاضي حكمته ليظل تحت مظلة اللائحة. أنت محظوظ".

"تلك ليست المسألة فيونا".

"دعنا نبدأ مارك. أمامنا أقل من ساعة".

"اسمعيني. هذا هو خطاب استقالتي. هؤلاء الشباب يعملون، إنهم دافعو ضرائب لأجل الرب! موكلي لم يضر أحدًا! لقد كان رغم كل الاحتمالات، مع وضع خلفيته في الحسبان، يتحول إلى أب مسئول. كان كيلي في وقت فراغه يدرب فريق كرة قدم للشباب. أوروكي يعمل في العطلات الأسبوعية في جمعية خيرية تُعْنَى بمرضى التليف المثاني. لم يكن ذلك اعتداءً على شخص بريء. بل كان عِراكًا خارج خمارة".

رفعت بصرها عن النوتة. "بفكٍّ مكسور؟"

"حسنا. مشاجرة. بين كبار متّفقين. ما الغرض من حشو السجون بهؤلاء الشباب؟ وجّه جالاغار لكمتين ضعيفتين وألقى بعلبة بيرة فارغة بالقرب منه. لديه الآن في صحيفته الجنائية جناية إحداث ضرر بدني بالغ إلى الأبد كجُرم لم يُتهم به. سيرسلونه إلى آيسيس، سجن الشباب ذاك، أتعرفينه، داخل جدران بيلمارش. ذهبتُ إلى هناك مرات قليلة. يقول موقعه الإلكتروني إن لديهم "أكاديمية تعليمية". محض هراء! كان لديّ مُوَكّلان هناك يقضون في الزنازين ثلاثة وعشرين ساعة يوميًا. يلغون البرامج التعليمية هناك كل أسبوع. لا يوجد مدرّسون، كما يقولون. يتظاهر كرانهام بضجره المصطنع أنه عصبي المزاج ليستمع لأي شخص.. فيمَ يعنيه ماذا سيحدث لهؤلاء الصغار؟ أُلقي بهم في مكبّ النفايات ليذوقوا المُرّ ويتعلموا الإجرام. أتعرفين ماذا كان خطئي الأكبر؟"

"ماذا؟"

"لقد حاولتُ الدّفع بحُجّة أنها مسألة سُكر ومزاج عالٍ. أن

العُنف اتفاقيّ. لو كان هؤلاء الرجال الأربعة أعضاء في نادي بوليندون في أكسفورد ما كانوا ليقفوا أمامك الآن سيدي القاضي. وبحَدْس مُريع داهمني حين عدت إلى المنزل بحثتُ عن كرانهمام في موسوعة الأشخاص. وخمّني ماذا وجدت؟"

"أوه ربي، مارك، أنت في حاجة لعطلة".

"واجهي الأمر فيونا. إنه صراع طبقي دموي".

"وفي محكمة الأسرة نحتسي شمبانيا ونأكل فراولة برية".

ودون أن تنتظر، بدأت عزف الافتتاحية، النغمات الناعمة المتكررة، ومن زاوية عينها، رأته يرتدي نظارات القراءة. ثم صدح صوته الرخيم يطيع علامات المؤلف بنعومة، ويتصاعد بطرب.

متى سيأتي الموسم الجديد
متي سيأتي الشتاء ويذهب
ولخمسة وأربعين دقيقة نسيا كلّ شيء عن القانون.

***

في ديسمبر، يوم الحفل، عادتْ إلى البيت من المحكمة الساعة السادسة واستحمّت وارتدت ملابسها بسرعة. سمعتْ صوت جاك في المطبخ فحيّته بصيحة وهي في طريقها إلى غرفة النوم. رد تحيتها وهو يميل أمام الثلاجة المفتوحة. بعد ذلك بأربعين دقيقة ظهرت في الرواق في ثوب أسود حريري وحذاء بكعب عال من جلد أسود ممتاز، يمنحها علوا جيدا مع دوّاسات البيانو. حول عنقها سلسلة فضية بسيطة. وعِطرها **رايف جوش**. ينبعث من سمّاعات غرفة

الجلوس، المستخدمة نادرا، صوت موسيقى بيانو، ألبوم قديم لكيث جاريت[43]، بعنوان مُواجهتك. الأغنية الأولى فيه. توقفت عند باب غرفة نومها لتنصِت. مضى وقت طويل منذ أن سمعت ذاك اللحن المتردد الذي تعرفه جزئيًا. كانت قد نسيت كيف يستجمع الثقة بسلاسة ثم يقفز حيًا فيما تندمج اليد اليسرى في رقصة حذرة غريبة تغدو قوة لا يمكن إيقافها، مثل قاطرة بخارية متسارعة. فقط موسيقار مُدرَّب كلاسيكيًا مَن يمكنه تحرير يديه بعيدا هكذا كما فعل جاريت. هذا، على الأقل، حكمها المتحيِّز.

كان جاك يرسل إليها برسالة، إذ كان هذا الألبوم، ضمن ثلاثة أو أربعة ألبومات أخرى، يشكل الموسيقى التصويرية لبداية تقاربهما منذ وقت طويل. تلكم الأيام، بعد التخرج، بعد عرض أنطونيوس وكليوباترا النسوي، حين أقنعها بقضاء الليلة الأولى، ثم بعد ذلك عشرات الليالي الأخرى في الغرفة تحت المزاريب بالنافذة غير القابلة للفتح التي تطل شرقا على النهر.. حين فهمتْ أن النشوة الجنسية أكثر من مصطلح مبالغ فيه. حين صرختْ من اللذة لأول مرة منذ أن كانت في السابعة من عمرها، وهي تتراجع للخلف إلى مكان بعيد لا بشر فيه، وفيما بعد، حين رقدا معًا جنبًا إلى جنب في الفراش، والأغطية على خصريهما مثل نجمي سينما في مشهد بعد الجماع، ضحكا على الضجة التي أحدثتْها. لحسن الحظ لم يكن أحد في الشقّة بالأسفل. أخبرها جاك، الرائع ذو الشعر الطويل حينها، أن تلك الضجة هي أعظم إطراء تلقّاه في حياته. أخبرَته أنها لا يمكنها تخيل استعادة قوتها، في عمودها الفقري، وعِظامها، لتعاود الكَرّة مجددا. ليس وهي

43 كيث جاريت عازف بيانو أمريكي كلاسيكي ومؤلف موسيقى جاز، مواليد 1945، اشتهر في السبعينات وحاز على جائزة بولار للموسيقى عام 2003.

على قيد الحياة. لكنها فعلتْ، مرارًا وتكرارا. كانت صغيرة.

كان في تلك الفترة، حين لا يكونان في الفراش معًا، أن فكّر أن بإمكانه إغواءها لأبعد من ذلك بموسيقى الجازّ. كان معجبًا بعزفها لكنه أراد إطلاق سراحها من قيود النوتات الموسيقية الصارمة لعباقرة رحلوا منذ وقت طويل. أَسمعها أغنية ثالونيوس مُنك[44] "قرب منتصف الليل"، واشترى لها نوتتها الموسيقية. لم يكن عزفها صعبًا. لكن نسختها كانت سلِسة وبلا لهجة، بدت لها كمقطوعة غير مميزة لديبوسي[45]. كان ذلك جيدا، أخبرها جاك. لأنه من تعلّم منه أعلام الجاز العِظام. استمعتْ إليها مرة أخرى، أصرّت، عزفت الرموز المخطوطة أمامها، لكنها لم تستطع عزف الجاز. لا نبض، لا لهجة فِطرية، لا حرية. أصابعها تطيع العلامات الزمنية والرموز المكتوبة ببلادة. لذلك كانت تدرّس القانون، قالت لحبيبها. لأنه يحترم القواعد.

كفّت عن محاولة العزف لكنها تعلمت السمع، وكان جاريت من أعجبت به دونا عن الآخرين جميعًا. دعت جاك لسماعه في الكولوسيوم في روما. السهولة التقنية، الفيض الجمالي السلس الغزير مثل موتزارت، وها هو الآن مجددا، بعد كل تلك السنوات، ما زال يُمسك بها تحت دائرة الضوء، يُذكّرها بما كانا عليه هي وجاك من لهوٍ ذات مرة. هذه الموسيقى مُختارة بفن.

سارت في الرواق وتوقفت مرة أخرى عند مدخل غرفة الجلوس. كان منشغلا. عدة مصابيح، كانت مصابيحها قد قضت عمرها الافتراضي منذ وقت طويل، مضاءة الآن أخيرًا. عدة شموع في أرجاء

44 ثالونيوس مُنك (1917-1982) عازف بيانو وملحن وعازف جاز أمريكي.

45 كلود أشيل ديبوسي مؤلف موسيقي فرنسي من القرن التاسع عشر .

الغرفة. الستائر مسدلة في وجه رذاذ المساء الشتوي، ولأول مرة منذ أكثر من عام، توجد نار مستقرة جيدا في المدفأة، بخشب وفحم أيضًا. يقف جاك بجوار المدفأة بزجاجة شمبانيا في يده. أمامه على طاولة واطئة طبق به لحم محفوظ وزيتون وجبن.

كان يرتدي بذلة سوداء، وقميصًا أبيض دون ربطة عنق، وبات حليقًا الآن. أقبَل نحوها، وضع في يدها كأسا طويلا وصبّ فيه الشمبانيا، ثم صبّ كأسه. كان تعبير وجهه صارما وهما يرفعان كأسيهما ليمسّاهما.

"ليس لدينا وقت".

فهِمت قصْدَه، أنّ عليهما الخروج بسرعة ليسيرا إلى القاعة الكبرى. كان جنونًا أن تشرب قبل حفل موسيقي، لكنها لم تأبه. أخذت رشفة كبيرة أخرى وتبعته إلى النار. قدّم إليها الطبق، أخذت قطعة بارميجان ووقفا جنبا إلى جنب أمام المدفأة، يميلان على رفها، كزخرفة معمارية عملاقة، كما فكرت.

قال "مَن يعرف كم لدينا من الوقت. ليس بسنوات كثيرة. لكننا إما أن نبدأ العيش مجددًا، العيش حقًا، وإما أن نستسلم ونقبل بالبؤس من الآن فصاعدًا".

موضوع قديم لديه. اغتنام اللحظة. رفعتْ كأسها وقالت بجدية "نخب العيش مجددًا".

رأت التحول الطفيف في تعبير وجهه. الراحة و.. وشيء ما خلفها، شيء ما أكثر توتّرًا.

صبَّ لها كأسًا أخرى وهو يقول "بمناسبة ذلك، الثوب رائع. تبدين جميلة".

"شكرا لك".

بقي أحدهما ينظر إلى الآخر حتى لم يعد أمامهما سوى تبادل القُبَل. فتقابلا مُجدّدًا. يده تمسّ خصرها برقة دون أن يحركها لأسفل إلى ردفها كالمعتاد. كان يتمهّل الأمر وتأثّرتْ هي برقته. لو لم يكن أمامهما التزام موسيقي واجتماعي، فلا شك لديها فيما كان سيفضي إليه إطلاق العنان لهذا. لكن نوتتها الموسيقية على الأريكة خلفها وكان عليهما أن يظلا بملابسهما كاملة. لذلك التصقا معًا بشدة وتبادلا القُبَل ثانية، ثم انفصلا، رفعا كأسيهما، مسّاهَما بصمت وشربا.

سدّ زجاجة الشمبانيا بسدادة معدنية حلزونية كانت قد أهدتها له في أعياد الميلاد منذ سنوات. وقال "لما بعد"، وضحكا.

ارتديا معطفيهّما وخرجا، ولتُثبّت خطوها في الكعب العالي سارت إلى الحفل مستندة على ذراع زوجها، وتحت مظلته التي كان يرفعها بفروسية أعلى رأسها هي وليس أعلى رأسه.

"أنتِ العازفة"، قال. "أنتِ من ترتدين ثوبا حريريًا".

وشتْ ضجة الضحكات والدردشة بوجود نحو مائة وخمسين شخصًا يقفون في أرجاء القاعة بكؤوس النبيذ. كانت المقاعد موجودة لكن أحدا لم يجلس بعد. بيانو فازيولي وحامل نوتة على المسرح في موضعيهما. أعضاء جمعية جراي، رؤساء هيئات، أغلب حياتها المهنية والاجتماعية في مكان واحد. ظلت لأكثر من ثلاثين عاما تعمل مع أو ضد عشرات الأشخاص الذين تراهم. قامات بارزة عديدة، أغلبها من الخارج، من جمعية لينكولن أو المعبد الأوسط – اللورد رئيس محكمة العدل بنفسه، بعض القضاة من محكمة الاستئناف، واثنان من المحكمة العليا، والنائب العام، وثلة من المحامين المعروفين.

القائمون على تنفيذ القانون، الذين يحددون المصائر ويحرمون المواطنين من حريتهم، لديهم حس فكاهي متطور وشغف بدردشة التسوّق. كانت الضجة تصم الآذان. فقدت جاك خلال دقائق. جاء أحدهم وطلب منه المساعدة في شيء ما باللاتينية. واجتُذِبت هي إلى دائرة نميمة عن صديق غريب أطوار لرئيس المحفوظات. لم ترغب في التحرك من مكانها. جاء أصدقاءها ليعانقوها ويتمنّوا لها التوفيق، وآخرون صافحوها. من حُسن حظها أن سمح صندوق التضامن، لجنة رؤساء الهيئات بجمعية جراي، بإقامة حفل للشُرب قبل الحفل الموسيقي. سيَحدّ النبيذ، كما أمِلت فيونا، من المهارات النقدية لعصبة قاعة ويجمور.

حين مَرّ بها نادل بصينية فضية، كانت في حال جيدة جدًا لترفضه. وفيما تأخذ كأسا، ظهر في مجال رؤيتها مارك بيرنر، على بُعد خمسين قدمًا تقريبًا ونحو مائة شخص، لوّح لها بأصبعه نهيًا، كان محقًا بالطبع، رفعت كأسها نحوه وأخذت رشفة. أخذها صديق لها، أحد فرسان المحكمة الملكية، لتقابل محامٍ "لامع" صادف أنه ابن اخته. تحت مراقبة خاله سألت الشاب النحيل بعض الأسئلة عن مهنته وكان يتلعثم وهو يجيبها على نحو مثير للشفقة. بدأت تتوق لصحبة أكثر إنعاشًا حين جاءت صديقة قديمة من المعبد الأوسط وعانقتها ثم جذبتها إلى دائرة من المحاميات الشابات المتمردات اللائي أخبرنها، بحس فكاهي مع ذلك، أنهن لا يحظين بالقضايا الجيدة، تلك تذهب للرجال.

بدأ المرشدون يمرّون بالتجمعات ليعلنوا عن بدء الحفل الموسيقي. تحرك الضيوف على مضض إلى مقاعدهم. كان من

الصعب في البداية التحول من النميمة والنبيذ إلى الموسيقى الجادة. لكن النادلين كانوا يجمعون الكؤوس، والضجة تهدأ. كانت في طريقها لتصعد درج المسرح من الجهة اليمنى، حين شعرت بلمسة يد على كتفها والتفتت. كان شيروين رونسي صاحب قضية مارثا لونجمان. بربطة عنق سوداء لسبب ما. زِيٌّ يمنحُ رجالًا في عُمر معيّن ببطون بارزة هيئة مشؤومة ومثيرة للشفقة. وضع يده على ذراعها، يُريد أن يخبرها بشيء ما مُثير لا تعرفه الصحف. مالتْ عليه لتلتقط أذنها كلماته. ذهنها منشغل بالحفل بالفعل، دقات قلبها تتسارع بالفعل، ويصعب عليها التركيز فيما يقوله، لكنها مع ذلك ظنت أنها التقطتْ شيئا ما، وكانت تهم بأن تطلب من القاضي تكرار ما قاله حين رأت مارك أمامها يستدير إلى الخلف بنظرات نافدة الصبر. استقامت وشكرت رونسي ولحقت بمغنيها إلى المسرح.

بينما يقفان معًا أسفل سُلّم المسرح في انتظار أن يهدأ الجمهور وإشارة البدء، قال لها مارك "هل كل شيء على ما يرام؟"

"أنا بخير، لماذا؟"

"تبدين شاحبة".

"ممم".

لمستْ شعرها بأطراف أصابعها بعفويّة. في يدها الأخرى موسيقاها. أمسكت بها بقوة. هل بدت مضطربة؟ تذكرت ما شربته. ليس أكثر من ثلاث رشفات من النبيذ الأبيض الذي حذرها مارك منه. كأسين تقريبًا.. ستكون بخير. أمسكَ مارك يدها وهما يصعدان الدّرَج، وقفا بجوار البيانو وأحنيا رأسيهما تحية، قوبلا بالتصفيق اللائق بفريق وطني. كان ذلك، رغم كل شيء، حفلهما الموسيقي

الخامس لإحياء أعياد الميلاد في القاعة الكبرى.

حين جلسَت، ورتبتْ موسيقاها أمامها واعتدلت على كرسي البيانو، سحبت نفسا عميقًا وأطلقته بهدوء لتنفض عن نفسها أقاصيص المحادثات الأخيرة مع المحامي المتلعثم، والشابات المرحات المحرومات من العمل الجيد. ورونسي. لا. لا وقت للتفكير. أومأ مارك لها ليخبرها أنه جاهز، وعلى الفور كانت أصابعها تستدعي النغمات المتأرجحة برقة من الآلة الضخمة وبدا أن ذهنها يتبعها. كان دخول المغنّي ممتازا وخلال نغمات قليلة كانا قد دخلا معًا دائرة وِحدة الغرض التي نادرا ما وصلا إليها في البروفات، لم يعودا يركزان في تصحيح الأمور، بل تركا نفسيهما تذوبان في الموسيقى بلا جهد. خطر لها أنها شَربتْ القدر المناسب تمامًا من النبيذ. حملتها القوة الناعمة العميقة لبيانو الفازيولي، وبدا أن تيار النغمات يحملها هي ومارك بسهولة. وبدا صوته أكثر دفئا لأذنيها، يطرق النغمة، خاليًا من التهدّج السطحي الذي يستخدمه أحيانًا، حرًا في سعيه خلف البهجة في موسيقى بيرليوز لل"فيلانيلا"، ثم، بعدها، في "الرثاء"، خلف الحزن المتهاوي من ارتفاع شديد، آه، أن تذهب بعيدا في البحر دون حُبّ![46]. اعتنى عزفها بنفسه. سمِعتْ نفسها وأصابعها تلامس المفاتيح كأنها تجلس في الخلف وراء الجمهور، كأن كل المطلوب منها هو أن تكون حاضرة. دخلتْ، هي ومارك معًا، الفضاء التخيُّلي غير المحدود لخلق الموسيقى، ما وراء الزمن والهدف. كانت تعرف على نحو مبهم للغاية أنّ شيئا ما ينتظرها بعد عودتها من هناك، شيء ما بعيد جدا أسفلها، بقعة غريبة في مشهد مألوف. ربما لم تكن هناك،

46 بالفرنسية في الأصل.

ربما ليست حقيقية.

خرجا كأنّ من حلم ووقفا جنبا إلى جنب أمام جمهورهما. التصفيق عالٍ، لكنه كذلك دائمًا. بروح الكرم الموسمية للقاعة الكبرى، كان في الغالب أعلى من هذا في العروض الأقل جودة. كان حين قابلَتْ نظرة مارك ورأت بريق عينيه أن تأكدت أنهما عبرا الحدود المألوفة لعزف الهواة. أضافا شيئا ما للمقطوعة بالفعل. إن كان بين الجمهور امرأة يريد أن يُبهرها فقد تودد إليها بأسلوب قديم الطراز ولا شك الآن في وقوعها في غرامه.

ساد الصمت فجأة وهما يتخذان مكانيهما لعزف مالِر. هي الآن وحدها. توحي الافتتاحية الطويلة إذ تتكشف بأنها من ارتجال العازفة، بصبرٍ لا حدود له، تلعب نغمتين بانتباه، ثم تكررهما وتضيف أخرى، ثم تكرر الثلاثة، وفي الرابعة فقط يمتد السطر أخيرًا لأعلى بترف في واحد من أجمل ألحان المؤلف. لم تشعر بانكشاف حزنها. حاولتْ حتى تحقيق ما يعد طبيعة ثانية في عازفي البيانو من الدرجة الأولى، أن تجعل لنغمات سي المتوسطة ما يشبه رنين الجرس. فكّرت أنها تستطيع بلمستها أن تقنع المستمعين أنهم، في مكان آخر، يستمعون إلى صوت القيثارة في نسخة الأوركسترا. من لحظة دخوله مباشرة، التقط مارك روح الاستسلام الهادئة. لسببٍ ما أصر على الغناء بالإنجليزية، وليس الألمانية، حرية لا يتمتع بها سوى الهواة. كان هدفه أن يفهم الجميع بسرعة ابتعاد الرجل عن جلبة العالم. أنا في عداد الموتى حقًّا. بدا أن الثنائي يُمسك بجمهوره جيدا، وعرضهما يواصل ارتفاعه. أدركتْ فيونا أيضا أنها تتجه بإيقاع ثابت نحو شيء ما بَشِع. أهو حقيقة، أم ليس كذلك. ستعرف فقط حين تنتهي الموسيقى

وتقف لتواجهه.

مرّة أخرى، التصفيق، الانحناء الرشيق، والآن تطالب الصّيحات بفاصل خاص. ثمة بعض ضربات أقدام حتى. نظر العارضان أحدهما للآخر. ثمة دموع في عيني مارك. شعرت بابتسامتها تتصلّب. كان في فمها مذاق معدني حين عادت إلى كرسي البيانو وهدأ الجمهور. لثوان ظلت يداها في حِجرها ورأسها مطرق، ترفض النظر إلى شريكها. من مجموعتهما المختارة للمقطوعات التي يحفظانها، كانا قد اختارا "من أجل الموسيقى" لشوبرت. من المفضّلات القديمة. لا تفشل أبدًا. وضعتْ يديها على المفاتيح استعدادًا، ما زالت لم تنظر لأعلى. كان الصمت في القاعة تامًا، وأخيرًا بدأتْ. ربما بارَكَ شبح شوبرت المقدمة التي عزفتها، لكنّ النغمات الثلاث المتصاعدة بوتيرة متوالية وصداها الذي يتردد برقة ويخفت شيئا فشيئا، كانت تنتمي ليدٍ أخرى. ربما كان في النغمات الهادئة المتكررة التي تنبض في الخلفية إشارة ما إلى بيرليوز. من يدري؟ ربما حتى أغنية مالِر باستسلامها الكئيب، قد ساعدت بريتن[47] في هذا السياق دون قصد.. لم ترسل فيونا اعتذارا لمارك. كان وجهها جامدا كابتسامتها، تنظر إلى يديها فقط. كان لديه ثانية واحدة فقط ليعيد ترتيب ذهنه، لكنه ما أن سحب نفسًا كان يبتسم وتجلّى صوته بطلاوة ظلت تزداد حتى المقطع الثاني.

في حقل عند النهر.. وقفت أنا وحبيبتي،
وعلى كتفي المنحني، أراحت يدها البيضاء كالثلج
قالت لي خذ الحياة بسهولة كما ينمو العشب في القناطر،
لكنني كنت صغيرا وأحمق، وأنا الآن غارق في دموعي.

47 المقصود بنجامين بريتن ملحن قصيدة عند أشجار الصفصاف ليبتس.

لطالما كان هذا الجمهور كريمًا دومًا لكنه نادرا ما وصل إلى دوائر تنهض واقفة. كان ذلك من نوعية ما يحدث في حفلات الموسيقى العامة، مع الصياح والصفير. لكنه الآن نهض ككلٍ واحد، بتردد قليل فقط من بعض القامات الكبيرة في الهيئة القضائية. بعض الشباب المتحمسون صاحوا وصفّروا. لكن مارك بيرنر وحده من تلقى التقدير، إحدى يديه تستريح على البيانو، يومئ ويبتسم بامتنان، ثم يراقب عازفَته باهتمام وهي تسير بسرعة عبر المسرح، ونظرتها مثبّته على خطواتها، تهبط السلم لأسفل، تدفع أعضاء فرقة الآلات الوترية المنتظرين، وتُسرع نحو باب الخروج. أُفْتُرِض عمومًا أن التجربة كلها تُثقِلها بشكل غير معتاد، فتعاطَف معها رؤساء الهيئات وأصدقائهم وصفقوا بقوة أكبر وهي تمرُّ أمامهم.

***

وجدَت معطفها ودونَ اكتراث برذاذ المطر المنعش سارت إلى الشقة بما أمكنها من سرعة بالكعب العالي. في غرفة الجلوس، كانت عدة شموع كما تركاها. ما زالت بمعطفها، شعرها ملتصق بفروة رأسها، قطرات ماء تنساب من عنقها إلى خصرها، وقفت ساكنة، تحاول أن تتذكر اسم امرأة. وقع الكثير جدا مُذ رأتها آخر مرة.. تذكّرتْ وجهها، سمعتْ صوتها. ثم تذكرتها. مارينا جرين. أخذتْ هاتفها من حقيبة يدها واتصلت بها. اعتذرت لاتصالها في وقت متأخر. تحدثتا بإيجاز، إذ كان هناك صراخ رضّع في الخلفية وبدت الشابة مُرهَقة ومزعوجة. نعم، يمكنها تأكيد هذا. منذ أربعة أسابيع. ذكرت التفاصيل القليلة التي تعرفها، وكانت مندهشة لأن الخبر لم يصل إلى القاضية.

ظلّت جامدة في مكانها، نظرتها مثبّتة، لسببٍ ما، على طبق الطعام الذي أعدّه زوجها، وذهنها خالٍ. لا يتردد في ذهنها صدى الموسيقى التي كانت تعزفها لتوها، كما تعوّدت. نسَت الحفل الموسيقي. إن جاز في علم الأعصاب ألا يُفكر المرء، فقد كانت بلا أفكار. مرّت دقائق. يستحيل عدّها. التفتت لصوتٍ ما. كانت النار تلفظ أنفاسها الأخيرة وتخمد رمادا. سارتْ إليها، ركعت وبدأت تعيدها إلى الحياة، ترفع بقايا الخشب والفحم، بأصابعها وليس بالكمّاشة، وتضعها على وبالقرب من بقايا اللهب المتوهج. بعد ثلاث نفخات بالمنفاخ، التقطت قطعة من خشب الصنوبر النار التي امتدت لقطعتين أُخرَيَيْن أكبر وهي تراقبها. اقتربتْ وتركتْ مشهد الألسنة الضئيلة بحركتها المتقافزة المتأرجحة على الجانبين في السواد المحيط للفحم، يملأ رؤيتها.

أخيرًا، جاءت الأفكار في هيئة سؤالين ملحّين. لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تطلب مساعدتي؟ جاءت الإجابة بصوتها هي أيضًا. لقد فعلتُ. نهضتْ، تعي بالألم في وركيها وهي تسير إلى غرفة النوم لتأت بالقصيدة من طاولة الفراش حيث وضعتها منذ ستّة أسابيع. النبرة المغرِقة في الكآبة، الرهان على التطهر مقابل الحرية، الإلقاء بالصليب الثقيل في النهر، تلقي قبلة عفيفة واحدة، لا بد أنه وحي شيطاني ما، ما منعها من قراءة القصيدة مرة أخرى. ثمّة شيء ما دبق أو خانق في المفردات المسيحية – الصليب، شجرة يهوذا، الأبواق. وكانت هي السيدة المرسومة كسمكة بخيشومين كقوسي قزح، المخلوق الخائن الذي أضل الشاعر وقبّله. نعم، إنها تلك القبلة. كانت خطيئتها ما أبقتها بعيدة.

عادت تجثُم قرب النار مجددا ووضعت القصيدة أمامها على

السجادة البخارية. لطخت أطراف أصابعها المهبّبة بالفحم أعلى الصفحة. نظرت مباشرة إلى البيت الأخير – يسوع يقف بإعجاز على سطح النهر يعلن أن السمكة هي الشيطان مقنّعًا وأن على الشاعر أن "يدفع الثمن".

كانت قبلتها قبلة يهوذا.. غدرٌ باسمي.. ولعلّ مَن..

مدّت يدها إلى نظارة القراءة على الطاولة خلفها ومالت أكثر على الورقة لتدقّق النظر في الكلمات المشطوبة والمحاطة بدوائر. حُذِفت "سكين"، وكذلك "يدفع"، و"دعه" و "لوم". كلمة "بنفسه" محذوفة، ثم أعاد كتابتها، ثم حذفها مجددا ربما. استبدل "ليس عليك" بـ "عليك" و"أغرَق" بدلا من "يُغرِق". كانت "لعلّ" وحدها، بدون دائرة، فوق مستوى الخلاف، بسهمٍ يوحي بكونها إضافة لواو العطف. كانت تعتاد على تفكيره وخط يده. ثم فهمتْ. رأت بوضوح. الرابط المستتر بين الكلمات المختارة. إن ابن الرب يَغُل.

ولعل من أغرق صليبي يذبح نفسه بنفسه.

حين سمعتْ الباب الأمامي ينفتح، لم تلتفتْ، لمحها جاك وهو يمر بغرفة الجلوس في طريقه إلى المطبخ. افترض أنها تراقب النار.

قال وهو يمر بها "غَذِّها جيدا". ثم من موقع أبعد، "كنتِ رائعة، الجميع أحبوا الحفل، مؤثرة للغاية!"

حين عاد بزجاجة الشمبانيا وكأسين نظيفين، اضطُرّت للوقوف لتخلَع معطفها وتضعه على ظهر مقعد وتخلع حذاءَها. وقفت ساكنة في منتصف الغرفة، تنتظر. لم يلحظ امتقاعها وهو يناولها أحد الكأسين وهي تمسكه ليملأه.

قال "شعرُكِ، هل أجلب لكِ منشفة؟"

قالت "سيجف".

نزع السدادة المعدنية وصبّ في كأسها، ثم في كأسه الذي تركه ليذهب إلى النار ويُفرغ فيها دلو الفحم كله ويضع ثلاث قطع خشب كبيرة على طريقة ساكني الأكواخ. ثم إلى السمّاعات ليشغّل جاريت مجددا.

تمتمت "جاك، ليس الآن".

"بالطبع. ليس بعد الليلة! يا لغبائي".

رأتْ أمله في العودة سريعًا إلى ما كانا عليه قبل الحفل الموسيقى، وشعرتْ بالأسف نحوه. كان يبذل قُصارى جهده. سرعان ما سيرغب في تقبيلها. عاد إليها، وفي الصمت الذي بدأ يطن في أذنيها ما أن أطفأ السمّاعات، لامسا كأسيهما وشربا. ثم تحدث عن أداءها وأداء مارك، وعن دموعه، هو جاك، وفخره حين وقفوا جميعًا في النهاية، وبما قالوه بعد ذلك.

"سار الأمر جيدا"، قالتْ. "أنا سعيدة جدًا إنه سار جيدا".

لم يكن موسيقيًّا، وكانت ذائقته محددة بصرامة بين الجاز والبلوز، لكنه تحدّث برضا كافٍ عن الحفل وتذكر المقطوعات على نحو منفصل. ليالي الصيف كانت إلهاما. وقد تأثر بشكل خاص بالرثاء، حتى إنه فهم الفرنسية. أغنية مالِر سيحتاج لسماعها ثانية لأنه شعر فيها بفيض جمالي غزير لكنه لم يستطع التواصل معها تمامًا. أسعده أن غنّاها مارك بالإنجليزية. الجميع يعرفون الرغبة في الهروب من العالم، وقليل من يفعلونها. استمعت باهتمام، أو بدت كذلك، بردود قصيرة وإيماءات. شعرتْ كأنها مريضة في مستشفى وتتوق إلى لحظة مغادرة زائرها لتعود إلى مرضها. هدأتْ النار، لاحظ

جاك ارتعاشها، فقادها نحوها ثم صبّ بقية الشمبانيا.

عاشا في ميدان جراي وقتا طويلا وهو يعرف رؤساء الهيئات بجمعية جراي جيدا كما تعرفهم تقريبًا. راح يخبرها بمن قابل منهم هذا المساء. كان الميدان عرضًا جيدا، فتَنه الناس هناك. كانت جلسة التحليل في وقت متأخر من الليل تلك ملمحًا لحياتهما معًا. تدبّرت مواصلة التمتمة بردود عابرة. ظلّ بمعنويات عالية، فرِحًا بأدائها، وبما يظن أنهما مُقبلان عليه. أخبرها عن المحامي الجنائي الذي يؤسس مدرسة حرة مع آخرين. وفي حاجة لترجمة لاتينية لشعارها، "كل طفل عبقري". ثلاث كلمات كحد أقصى، شعار قصير بما يكفي لخياطته على سترة مدرسية أسفل تصميم لعنقاء تنبعث من الرماد. إشكالية ساحرة. العبقرية مفهوم من القرن الثامن عشر، وإشارة اللاتينية إلى "الطفل" أغلبها محدّد نوعيًا، اقترح جاك "لكل طفل شخصية[48]" ليس بقوة كل طفل عبقري لكن التعبير عن الذكاء الفطري أو الموهبة واضح. وفي أضيق الحدود قد تتضمن عبارة كل طفل الفتيات. ثم سأله المحامي إن كان يهتم بوضع منهج تشاركي لتعليم اللاتينية لأشخاص من سن الحادية عشرة حتى السادسة عشرة بقدرات متباينة. تحدٍّ لا يقاوم.

استمعتْ بدون تعبير. ليس لديها طفل ليرتدي ذاك الشعار الرائع. أدركت أنها ضعيفة بشكل مفرط.

قالت "سيكون هذا شيئًا جيّدًا".

لاحظ سطحية نبرتها ونظر إليها بشكل مختلف.

"هل ثمّة خَطْب ما؟"

48 باللاتينية في الأصل.

"أنا بخير".

قطّبَ حاجبيه حين تذكر السؤال الذي لم يسعه طرحه، فقال "لماذا خرجتِ في النهاية؟"

ترددتْ، ثم قالت "كان ذلك كثيرا جدا عليّ".

"حين وقفوا جميعًا؟ كدت أنفجر فرحًا".

"بل الأغنية الأخيرة".

"مالِر؟"

"أشجار الصفصاف".

رمقها بنظرة تساؤل كمن لا يصدق. لقد سمعها تؤديها مع مارك عشرات المرات من قبل. "كيف هذا؟"

في سلوكه لمحة نفاد صبر أيضًا. يريد تحقيق الوعد بأمسية رائعة، باستعادة زواجهما، تقبيلها، فتح زجاجة أخرى، أخذها إلى الفراش، العودة بكل شيء بينهما سلسًا مرة أخرى. تعرفه جيدا. رأت كل هذا، ومجددا، شعرت بالأسف نحوه، إنما من مسافة بعيدة للغاية.

قالت "ذكرى، من الصيف".

"نعم؟" نبرته فضولية باعتدال.

"عزف شاب هذا اللحن لي على قيثارته. كان ما زال يتعلم. كان ذلك في مستشفى. غنّيت معه. ظني أننا أصدرنا جلبة قليلا فقط، أراد أن يلعبها مرة أخرى، لكن كان عليّ أن أغادر."

لم يكن في مزاج للألغاز. رفع كتفيه ليُخفِ عصبية صوته وهو يقول. "ابدئي مرة أخرى. مَن كان هذا؟"

"شاب غريب وجميل جدا". تحدثتْ بشرود وغموض.

"ثم؟"

"كنتُ قد علّقت إجراءات المحكمة لزيارته في المستشفى ورؤيته. أتذكر قضية شهود يهوه؟ فتى مريض جدا يرفض العلاج. لقد ذكرتها الصحف".

إن كان في حاجة للتذكير، فذلك لأنه كان يحاول حينها الاستقرار في غرفة نوم ميلاني. لولا ذلك لكانا قد ناقشا القضية من قبل.

قال بثبات "أعتقد أنني أذكرها".

"منحتُ المستشفى الإذن بعلاجه بالإكراه وقد تعافى. وكان الحكم... كان له تأثيره عليه".

وقفا كما كانا من قبل، على جانبي النار التي ينبعث منها الآن وهج ضارٍ. حدّقت لأسفل في ألسنة اللهب وقالت "ظنّي... ظني أنه حمَل بعدها مشاعر قوية نحوي".

وضع جاك كأسه الفارغة وقال "استمري".

"حين كنتُ في الجولة المحلية تتبعني إلى نيوكاسل. وقد...." لم تكن تنوي إخباره بما حدث هناك، لكنها غيّرت رأيها. لا جدوى من إخفاء شيء الآن. "لقد سار تحت المطر ليبحث عني... وقمتُ أنا بشيء غبيّ جدا. في دار الضيافة. لا أعرف فيمَ كنتُ... لقد قبّلته. لقد قبّلته".

تراجع خطوة عن وهج النار، أو عنها. لم تعد تأبه.

همستْ "كان شابًّا جميلا. أراد أن يأتي ويعيش معنا".

"معنا؟"

وصل جاك إلى رشدِه في السبعينات بين شتى أنواع التيارات الفكرية، وظل يدرّس في الجامعة طوال حياته كشخص بالغ. يعرف

كلّ شيء عن لا منطقية المعايير المزدوجة، لكن معرفته لم تنأ به. رأتْ الغضب في وجهه، يجعل عضلات فكه تنقبض ويُضيّق عينيه.

"كان يرى أن بوسعي تغيير حياته، ظنّي أنه أراد جعلي كشيء ما مثل المرشد الروحي. كان يظن أن بإمكاني.... كان ودودا جدا، تواقًا للحياة، ولكل شيء. ولم أكن..."

"قبّلتِه إذن وأراد أن يعيش معكِ. بماذا تحاولين إخباري؟"

"لقد أرسلته بعيدا". أمسكتْ رأسها وللحظة عجزتْ عن قول شيء.

ثم نظرتْ إلى جاك. يقف بعيدا عنها بمسافة جيدة، موسعًا بين ساقيه، يعقد ذراعيه، وجهه الوسيم المرح ما زال مكفهرًا. تبزغ من ياقة قميصه المفتوح خصلة مجعدة من شعر صدره الرمادي. رأته من قبل يُوقفها بمشط. هدّدتْ حتمية امتلاء العالم بمثل تلك التفاصيل، نقاط الضعف الإنساني الضئيلة تلك، بسحقِها، فأشاحتْ ببصرها بعيدًا.

الآن فقط، حين توقف المطر، انتبها لاختفاء نقره المتواصل على النوافذ.

قال في ذاك الصمت الأعمق "ماذا حدث إذن؟ أين هو الآن؟"

قالت بنبرة رتيبة وهادئة، "علمتُ بالأمر الليلة من رونسي. عاوده المرض منذ أسابيع وعاد إلى المستشفى، ورفض نقل الدم. وكان ذلك قراره، تجاوز الثامنة عشرة من عمره ولا أحد يمكنه فعل شيء. رفضَ، وامتلأت رئتيه بالدم، ومات".

"مات في سبيل إيمانه إذًا". كان صوت زوجها باردا.

نظرتْ إليه لا تفهم. أدركتْ أنها لم تشرح موقفها هي البتة، وأن

هناك الكثير جدا مما لم تخبره به.

قالت "أعتقد أنه انتحرَ".

لم يقل أحدهما شيئًا لعدة ثوان. سمعا أصواتًا، ضحكات ووقع خطوات في الميدان. الحفل الموسيقى ينقضي.

تنحنح وسألها "هل أحببته فيونا؟"

انتزعها السؤال. أطلقت صوتًا مُريعًا، عويلًا مخنوقًا. "أوه جاك، لقد كان مجرّد طفل! فتى. فتى جميل!"

وأخيرًا بدأتْ تبكي، وهي تقف قرب النار، يداها متهدلتان بيأس إلى جانبيها، وهو يراقبها، مصدومًا من رؤيته زوجته الرابطة الجأش دومًا تقف عند أقصى حدود الحزن.

عجزتْ عن الكلام وعن الكف عن البكاء ولم تعد تتحمل أن يراها أحد. انحنتْ لتجمع حذاءها وأسرعت عبر الغرفة بقدميها في جوربيهما الحريريّين إلى الرواق، وكان صوت بكاءها يعلو كلما ابتعدت عنه. دخلتْ غرفة نومها، وصفقت الباب خلفها، ودون أن تضيء النور، انهارت على الفراش ودفنت وجهها في الوسادة.

***

بعد ذلك بنصف ساعة، استيقظتْ وهي تصعد في الحلم درَجًا طويلًا عموديًا يرتفع من الأعماق، لم تذكر كيف سقطت في النوم. رقدتْ على جنبها وما زالت ناعسة، وجهها للباب. يُطمئنها شق ضوء الرواق أسفله. لكن المشاهد التي يتخيلها ذهنها ليست كذلك. آدم يسقط طريح الفراش مرة أخرى، يعود إلى البيت ضعيفًا إلى والديه المحبين، يقابل الشيوخ العطوفين، يعود إلى الإيمان. أو يستخدمه

كقناع ممتاز لتدمير نفسه. لعلّ من أغرقني يذبح نفسه بنفسه. رأته من زاوية مرتفعة كما رأته في زيارتها له في العناية المركزة. الوجه النحيل الشاحب، الأرجواني الداكن أسفل عينين بنَفسجيتين ضخمتين. اللسان الجاف، ذراعان كعصاتين، واهن تمامًا، ومُصِرّ على الموت، ومفعم بسحر الحياة، صفحات أشعاره مبعثرة على فراشه، يتوسل إليها أن تبقى وتغنّي معه أغنيتهما مرة أخرى لكنها يجب أن تعود إلى المحكمة.

هناك، في المحكمة، بسلطة وجلال منصبها، منحته، بدلًا من الموت، كل الحب والحياة اللذيّن ينتظرانه. والحماية من دينه. لا بد أنْ بدا له العالم، بدون إيمان، مفتوحًا وجميلًا ومرعبًا. بهذه الأفكار انزلقت عائدة إلى نوم أعمق واستيقظت بعد ذلك بدقائق على صوت خرير وتنهّد المزاريب. متى سيتوقف المطر؟ رأت القامة الوحيدة تسير في ممشى مضيفة الليدمان، ينحني في وجه العاصفة، يتحسس طريقه في الظلام، يسمع أصوات سقوط فروع الشجر. لا بد أنه رأى أضواء المنزل أمامه وعرف أنها هناك. يرتعش في مبنى مجاور، يتساءل، ينتظر فرصته ليتحدث إليها، يخاطر بكلّ شيء في سعيه خلف... خلف ماذا تحديدا؟ ويؤمن أن بوسعه نيله من امرأة في ستّيناتها لم تخاطر بشيء في حياتها ما عدا مواقف طيش قليلة في نيوكاسل منذ وقت طويل مضى. كان يجب أن تشعر بالإطراء. والاستعداد. لكنها، بدافع قوي لا يمكن غفرانه، قَبّلته، ثم أرسلَته بعيدا. ثم هربتْ. فشلتْ في الرد على رسائله. فشلت في فكّ شفرة الإنذار في قصيدته. كم تشعر بالخزي الآن من مخاوفها المثيرة للشفقة على سُمعتها. إن جُرمها يتجاوز اختصاص أي مجلس تأديبي. جاء آدم يبحث عنها ولم

تقدم له بديلًا عن الدين، لا حماية، مع إن القانون واضح، الاعتبار الأول لرفاهه. كم من الصفحات في كم من الأحكام خصصتها لهذا المصطلح؟ الرفاه، السعادة، اجتماعيان. لا طفل على جزيرة وحده. ظنّت أن مسئوليتها تنتهي عند باب المحكمة. لكن كيف هذا؟ لقد جاء يبحث عنها، يريد ما يريده الجميع، وما لا يمكن أن يمنحه سوى المفكر الحرّ فقط، وليس الخارق للطبيعة. المعنى.

حين غيّرت وضعها شعر وجهها بالوسادة مبللة وباردة. أفاقت تماما الآن، دفعتْ الوسادة بعيدا وبحثت عن أخرى، واندهشت حين لمست جسدًا دافئًا مستلقيا بجوارها، خلف ظهرها. تقلّبت. يرقد جاك برأسه على إحدى يديه، وبيده الأخرى يرفع خصلات شعرها عن عينيها. حركة عطف. في الضوء القادم من الرواق ترى وجهه فقط.

قال ببساطة "كنت أراقبك وأنتِ نائمة".

بعد فترة، فترة طويلة، همستْ قائلة "شكرا لك".

ثم سألته إن كان سيظل على حبه لها إن حكت له القصة كاملة. كان سؤالًا مستحيلًا، لأنه لم يكن يعلم شيئًا تقريبًا بعد. شكّت أنه سيحاول إقناعها بأن شعورها بالذنب في غير محله.

وضع يده على كتفها وجذبها إليه. "بالطبع سأظل أحبك".

رقدا وجها إلى وجه في شبه العتمة، وفيما تهجع المدينة الكبرى التي كنسها المطر لإيقاعها الليلي الأهدأ خلف الغرفة، ويُستأنف زواجهما بصعوبة، أخبرتْه، بصوتٍ ثابت وهادئ، بعارِها، وبشغف الفتى الجميل بالحياة، ودورِها في موته.

شُكر

لم تكن هذه الرواية لتوجد لولا وجود سير آلان وارد، رئيس محكمة الاستئناف سابقا، القاضي الذي يتمتع بقدر كبير من الحكمة والذكاء والإنسانية. لقصتي جذور من قضيتين نظر في إحداهما في المحكمة العليا عام 1990، وفي الأخرى في محكمة الاستئناف عام 2000. مع ذلك لا توجد صلة بين شخصياتي وآراءها من ناحية، وشخصيات وظروف أيّ من أطراف القضيتين من ناحية أخرى.

أنا مدين بالشكر الجزيل لسير آلان لنصائحه بخصوص تفاصيل قانونية متنوعة، وكذلك بخصوص الروتين اليومي لقاضٍ في المحكمة العليا. كما أدين له بالشكر أيضًا لوقته الذي قضاه في قراءة المسوّدة وإبداء ملاحظاته عليها. وأنا المسئول الوحيد عن وجود أي إخلال بالدقة.

كذلك اقتبستُ من حكم شديد النزاهة كتبه سير جيمس مونباي عام 2012، وهنا أيضًا، شخصياتي خيالية تمامًا ولا تحمل أي شبه بأطراف تلك القضية.

أنا ممتن أيضًا لنصيحة بروس باركر بينفيلد من مكتبة بودليان، وجيمس وود من نقابة المحامين بدوتي ستريت شامبرز. وممتن أيضًا أن قرأتُ "تدبّر الأمر بلا دماء"، الأطروحة الموسوعية المتقنة التي

أعدّها المحامي وأحد شهود يهوه، ريتشارد دانيل.

كذلك، أشكر آنالينا مكافي، وتيم جارتون آش، وأليكس باولر، لقراءتهم المتأنية واقتراحاتهم المفيدة.

إيان مكّيوان

المؤلف

إيان مكّيوان روائيّ بريطاني وُلد عام 1948. ألّف أكثر من سبع عشرة رواية. وصلت رواياته «الارتياحُ للغرباء» و«كفّارة» و«كلاب سوداء» إلى القوائم القصيرة لجائزة مان بوكر، وفاز بها عام 1988 عن روايته «آمستردام»، وقد فازت كتبه الأخرى بجوائز عديدة. ألّفَ أيضاً سيناريوهات للمسرح والتلفزيون. أدرجته صحيفة التايمز في قائمة أفضل خمسين روائيًّا بريطانيًّا منذ عام 1945، وحصد الترتيب 19 في قائمة الديلي تيليغراف لأقوى 100 شخصيّة في الأوساط الثقافيّة البريطانيّة. يُقيم حاليًّا في لندن.

المترجم

إيمان حرز الله، مترجمة من مصر. ترجمت إلى العربية عدّة كتب من بينها: "كافكا على الشاطئ" لهاروكي موراكامي، و"ستونر" لجون ويليامز، و"الظلال المحترقة" لكاملة شمسي.

قانون الطفل

«بل تفهمين. ألم تخبريني مرة أن الأزواج في الزيجات الطويلة يطمحان إلى حالة الأشقاء؟ ها قد وصلنا إليها فيونا. صرت شقيقك. الأمر مريح وجميل وأنا أحبك، لكنني، قبل موتي، أريد شغفا واحدا كبيرا». افترض أن شهقة ذهولها ضحكة، استهزاء ربما. فقال بقسوة: «نشوة، يكاد المرء من رعشتها أن يفقد وعيه. أتذكرين هذا؟ أريد هذا مرة واحدة أخيرة، حتى إن كنت لا تريدين. أو ربما تريدينه». حدّقت فيه مذهولة وقالت: «هكذا هو الأمر إذن؟»

يرفُض الفتى آدم أن تُجرى له عملية نقل دم عاجلة لأسباب دينية تعتبر ذلك خطيئة كبيرة. وفيما هو ينتظر الموت في غرفة العناية، يرفع المستشفى دعوى قضائية على والديه للحصول على الوصاية ونقل الدم في أسرع وقت. فتصل أوراق الدعوى إلى القاضية في محكمة الأسرة فيونا ماي، المشهود لها بالفطنة والحلول القانونية الحاذقة. تقرّر فيونا زيارة آدم، ظانّة أنّ في يدها القُدرة على منحه الحياة أو تركه يموت، لكن ينكشف لها أنّه هو من يحمل القُدرة على تغيير حياتها إلى الأبد.

رشّحها موقع Goodreads لنيل أفضل رواية عام 2014

«مكيوان أحد أرق كُتّاب السرد الأحياء»

سنداي تايمز

«كلاسيكية جديدة، مُمتعة منذ بدايتها حتى نهايتها دون انقطاع»

ذا غارديان

Photo by Shane Rounce on Unsplash
Cover design by Diana Chamma

ISBN 978-9948-37-973-7
9 789948 379737

روايات
EWAYAT